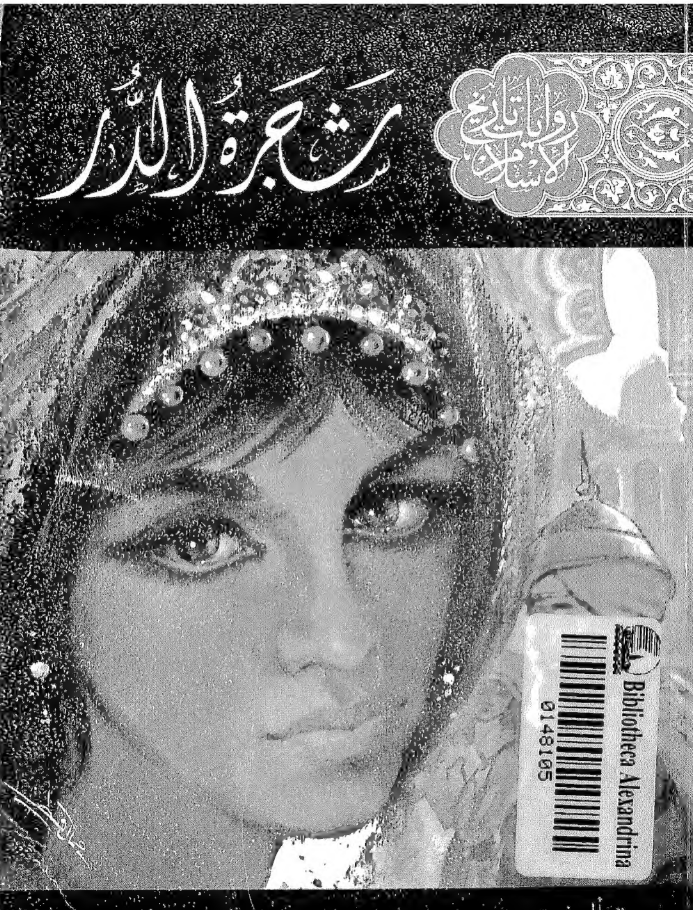
شجرة الدر

روايات تاريخ الإسلام



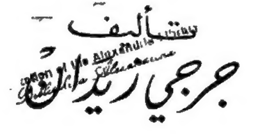
تأليف
جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت - لبنان

روايات
تاريخ الإسلام



تتضمن مقتل الملك طوران شاه آخر
سلاطين الدولة الأيوبية ، ومبايعة شجرة
الدر زوجة الملك الصالح وتتويجها ملكة
لمصر ، وهي اول ملكة في الاسلام



دار الجيل
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية

ابطال الرواية

* **شجرة الدر**	: زوجة الملك الصالح
* **شوكار**	: جارية شجرة الدر
* **عز الدين ايبك التركماني**	: قائد الجيش
* **ركن الدين بيبرس**	: احد امراء الجيش
* **سلافة التركية**	: جارية الملك الصالح
* **سحبان**	: تاجر اقمشة من بغداد
* **المستعصم بالله**	: آخر الخلفاء العباسيين ببغداد
* **الامير احمد (ابو بكر)**	: ولي عهد المستعصم بالله
* **هولاكو التتري**	: حفيد جانكيز خان
* **مؤيد الدين بن العلقمي**	: وزير المستعصم بالله

مراجع رواية شجرة الدر

هذه المراجع هي التي اعتمد عليها المؤلف في سرد حوادث الرواية، وكان شديد الحرص علــى ان تكون وقائعها الرئيسية صحيحة

★ حسن المحاضرة للاسيوطي
★ تاريخ ابن اياس
★ الهلال مجلد ١٩
★ تاريخ الفخري
★ سيرة الملوك
★ معجم ياقوت
★ تاريخ ابن جبير
★ تاريخ مصر الحديث لجرجـــــي زيدان

- ١ -

فذلكة تاريخية

فرغنا من رواية صلاح الدين وقد دخلت مصر في حوزته ، وبنى بها قلعة القاهرة وجعلها كرسي ملكه ، ثم توارثهـــا السلاطين من اولاده واخوته وأولادهم وأحفادهم ، واقتسموا فيما بينهم ملك مصر والشام . حتى افضت السلطنة بمصر سنة ٦٣٧ هـ الى الملك الصالح بن الكامل ، فأكثر من اقتناء المماليك الاتراك ، وجمع منهم نحو الف مملوك بنى لهم قلعة في جزيرة الروضة أسكنهم فيها وجعلها سرير ملكه بدلا من قلعـــة القاهرة ونقل اليها اهله وحاشيته ومماليكه .

وفي ايامه حمل الصليبيون على مصر بقيادة لويس التاسع ملـــك فرنسا ، وكان الملك الصالح مريضاً فما علم بأمر هذه الحملة حتى أمر بالتجنيد والاستعداد للحرب ، لكن الصليبيين استولوا على دمياط بخيانة بعض اهلها وفرار بعض أمرائها . وتوفي الملك الصالح على أثر ذلك ، وخلفه ابنه غياث الدين طوران شاه ، الذي لقب بالملك المعظم ، ولكن

النفوذ كان لشجرة الدر احدى جواري الملك الصالح ، وهي التي دبرت أمور الدولة بعده ، وكتمت موته حتى جاءوا بابنه غياث الدين من سورية وبايعوه سنة ٦٤٧ هـ •

وعاد المصريون لمحاربة الصليبيين ، ففازوا وردوهم على أعقابهم بعد معارك شديدة ، وأسروا الملك لويس التاسع وكثيرا من ضباطه وجنده •

ووقع الخلاف بعد ذلك بين رجال الملك المعظم غياث الدين ، ومماليك ابيه الملك الصالح ، فخرج هؤلاء المماليك عليه ، فخاف وأراد الفرار ، ولكنهم قبضوا عليه وقتلوه شر قتلة قرب فارسكور ، ثم أجمعوا امرهم على مبايعة شجرة الدر ، وهي اول أمرأة تولت الملك في الاسلام • وقام التنازع على السيادة بينها وبين بعض الامراء المماليك ، وبين بقية الدولة الايوبية وغيرهم من طلاب السيادة ، وأفضت السلطة اخيرا الى المماليك الاتراك وتوارثوها ، وفي ايامهم سطا التتر على بغداد بقيادة هولاكو ، وقتلوا الخليفة المستعصم ، وانتقلت الخلافة الى مصر مما سترى تفصيله في هذه الرواية ان شاء الله •

- ٢ -

في جزيرة الروضة

ـــ ما أجمل ضوء القمر يا شنوكار !

ـــ انه جميل يا سيدتي ، وليس اجمل منه الا الجلوس بين يديك والتمتع بحديثك •

ـ انك تتملقينني يا شوكار ولا تقولين الحق • من منا اكثر تمتعا بصاحبتها : أأنا وليس في حديثي الا المتاعب والمشاكل السياسية ؟• ام انت وقد وهبك الله كل ما تتطلبه الغانيات من الجمال والذكاء ورخامة الصوت ولطف العشرة ؟• وأنت في مقتبل العمر وأنا في حدود الكهولة، وقد اناخ علي الدهر بأثقاله ومشاكله •

فخجلت شوكار من هذا الاطراء وبادرت الى الجواب قائلة : «العفو يا سيدتي ، انك تخجلينني بهذا الاطراء ، ومن أكون انا حتى أعد شيئا مذكورا بجانب مولاتي شجرة الدر ، محظية الملك الصالح ـ رحمه الله ـ وأم والده ؟• وقد خصك الله بمواهب لم يخص بها احدا من البشر سواك • ليس في النساء يا سيدتي امرأة تطمع في بعض ما نلته• زادك الله رفعة و ••»

فبادرت شجرة الدر الى قطع حديث جاريتها شوكار بأن وضعت يدها على فمها بلطف وهي تبتسم لها ، وفي ابتسامها انقباض ، وقد ابرقت عيناها من عظم التفكير ، ثم تنهدت تنهدا عميقا وقالت : «تحسدينني على ما تتوهمينه فيّ من رفعة القدر ؟• من هنا يأتي سبب شقائي» • قالت ذلك وأطرقت وهي مقطبة الوجه ، فتهيبت شوكار النظر اليها ، ولم تجبها •

وكانت شجرة الدر جالسة على مقعد من الابنوس ، في شرفة بأحد قصور الملك الصالح التي بناها في جزيرة الروضة ، تطل على مجرى النيل الى مسافة بعيدة • وجزيرة الروضة من اجمل جزر النيل بين مصر القديمة والجيزة ، وطالما اتخذها الملوك متنزها ، وقد جعلها مولاها الملك الصالح سريرا لملكه بدلا من القلعة حيث كان أسلافه يقيمون • وأنشأ في هذه الجزيرة قلعة فخمة عرفت بقلعة المقياس ، نسبة الى مقياس قديم للنيل ، وسموها ايضا قلعة الروضة او القلعة الصالحية • وكان في

موضع هذه القلعة ابنية كثيرة فيها القصور والمساجد والمعابد ، ودور الصناعة لبناء السفن ، والهودج الذي بناه الآمر بأحكام الله الفاطمي لجاريته ، واشتهر امره . فهدم الملك الصالح كل هذه الابنية ، وبنى القلعة مكانها ، وأنفق فيها أموالا طائلة . وفي جملة ما بناه قصور ومسجد ، نقل اليها العمد والاساطين الصواذ والجرانيت والرخام من الهياكل القديمة ، وغرس فيها الاشجار والرياحين . وبنى فيها ستين برجا شحنها بالاسلحة وآلات الحرب وما يحتاج اليه من الغلال والاقوات خوفا من محاصرة الافرنج ، لانهم كانوا على عزم غزو مصر . وبالغ في اتقان تلك الابنية حتى قيل ان الحجر الواحد من أحجارها كلفه دينارا . وكان يقف بنفسه ويرتب العمل ، فلما تم بناؤها نقل اليها اهله ونساءه وجواريه ، وفرق فيها مماليكه ، وعددهم نحو الف مملوك . وأنشأ خارج القلعة بناء عظيما جمع فيه اصناف الوحوش من الاسود والنمور وغيرها .

وكانت شجرة الدر في جملة جواريه ، وقد انجبت ولدا اسمه خليل ، فقربها منه ، كما كانت هي على جانب عظيم من الدهاء والذكاء ، فنالت نفوذا عظيما عنده . فلما مات في المنصورة سنة ٦٤٧ هـ . كتمت امره ، وقامت بأمور الدولة ، وكانت توقع على الاوامر بتوقيعه خوفا من الفشل وهم في حرب مع الصليبيين . لكنها أسرت الخبر الى كبار الامراء ، ولاسيما عز الدين ايبك التركماني ، وكانت بينه وبينها مودة ، فبعث أعيان الامراء الى غياث الدين بن الملك الصالح فاستقدموه من حصن كيفا وولوه عليهم وواصلوا محاربة الصليبيين .

أما شجرة الدر فانها عادت الى تلك القلعة وأقامت فيها ، وفي خاطرها اشياء لم تطلع عليها احدا ، ورغم ثقتها العظيمة بشوكار لم تفاتحها بشيء منها . وفي تلك الليلة المقمرة جاشت أشجانها وأرقت

لسبب تعلمه هي ولا يعلمه سواها ٠ وكانت كثيرة الاستئناس بشوكــار جاريتها ، وهي جميلة الطلعة رخيمة الصوت تتقن العزف على العود ٠ فلما أرقت دعتها اليها للاستئناس بها واللهو بصوتها ٠ واتشحت شجرة الدر بثوب بسيط ، والتفت بمطرف من الخز ، وجلست على الشرفــة وأطلت على مجرى النيل ، وقد سكنت الطبيعة وهدأ النسيم الا ما يعبث منه بشعرها المرسل على ظهرها وقد ضمته وأرسلته بلا اعتناء ٠ ولــــم تحسن ارتداء مطرفها ، حتى ليخيل الى الناظر اليها انها في شاغل مهم ، ناهيك بما في عينيها من دلائل القلق حتى يكاد الشرر يتطاير منهما لفرط ما جاش في خاطرها من البلبلة ٠ وهي امرأة ليست كسائر النساء ، فلها قلب الرجل ومطامع كبار الرجال ٠ اذا عزمت على امر فلا تبالي ما يقف في سبيلها من العقبات لانها تذللها بأية وسيلة كانت ، كما يفعل عظماء الرجال وأرباب المطامع ٠

وكانت شوكار جاريتها الخاصة فتاة تركية مثلها ما زالت في مقتبل العمر ، فأحبتها واتخذتها مستودع أخبارها وأسرارها ٠ وان كانت لفرط دهائها لا تفتح قلبها لاحد او تأمنه على أسرارها المهمة ٠ ولذلك كــان كبار المماليك يهابونها ويحسبون لها حسابا ، وقد استوات على قلوبهم تهيبا واعجابا ٠

* * *

خرجت شجرة الدر تلك الليلة من قصر الملك الصالح اجمل قصور تلك الجزيرة وأثمنها رياشا وزخرفا ، ومعها جاريتها شوكار ٠ ومشت في ممر مسقوف يؤدي الى شرفة تطل على النيل ، فجلست على أريكة مغشاة بالديباج المزركش ، وجاريتها تعزف على العود وتغني لها اصواتا تعودت ان تطلب اليها انشادها ، وهي مستغرقة في هواجسها تنظر الى

النيل وهو يبدو كالفضة اللامعة من تكسر نور القمر على سطحه . ولولا ما يتخلل بياضه من التموج والارتعاش لم تشك انه فضة خالصة ، او انه مرآة صافية ، وكانت مراياهم تصنع من الفضة المصقولة بـــــدل الزجاج اليوم .

وكأنها احست بطول سكوتها واشتغالها عن غناء شوكار ، فأجالت بصرها في الضفة المقابلة من النيل في بر الجيزة ، وقد بدت فيها النخيل صفوفا أرسلت رؤوسها في الفضاء كأنها أسراب من العذارى يحملـــن المظلات وقد وردن الماء ، فلما اشرفن على ضفاف النيل تهيبن فوقفـــن خاشعات ينظرن الى مجراه . وبانت ظلال النخيل في الماء . وأكسبها النيل حركة اهتزازية كأن اولئك العذارى نزلن للاغتسال فارتعـــدت أجسامهن من البرد او من الحياء . ووراء النخيل تراءى الهرمان كأنهما جبلان وقد انتصرا على طوارىء الحدثان ، فأرادت شجرة الدر ان توهم جاريتها انها سكتت تهيبا للطبيعة الجميلة فقالت لها : «ما اجمل ضـــوء القمر يا شوكار !»

فسرت شوكار لان سيدتها قد سري عنها ، وزادت امتنانا لما سمعت اطراءها صوتها . لكنها ما لبثت ان رأتها عادت الى الانقباض وأخذت تشكو من حالها ، وان ما تغبطها عليه من النعيم انما هو سبب شقائها . فانقبضت نفس شوكار ، وألقت العود من يدها ، وتقدمت حتى جثت عند قدمي سيدتها ، وقبلت ركبتها وقالت : «ما الذي يشغلك يا سيدتي؟ وهل انت لا تثقين بي ، مع اني مستودع اسرارك ، وليس لي شاغــل سواك ؟ »

وشرقت بريقها من عظم التأثر ، فابتسمت شجرة الدر لها ووضعت يدها على رأسها وجعلت تعبث بشعر الفتاة وبوجهها كأنها شاب يداعب فتاة يحبها . وشوكار مطرقة يلذ لها ذلك لانه دليل ارتياح مولاتها اليها

وهان على شجرة الدر ان تصارح جاريتها ببعض هواجسها ، وهـــي تحسبها خالية الذهن من امرها ، وتحسب سرها مكتوما عنها كـــل الكتمان ، وذلك من الاوهام الشائعة عند اصحاب الاسرار • يكتم المحب حبه ، ويلذ له كتمانه ، لتوهمه انه لا يعلم به احد سوى حبيبه • وقد يكون ذلك الحب حديث الجيران والخدم ليل نهار ، وقس على ذلك اكثر الاسرار ولاسيما ما كان منها يتعلق بالعامة ، فانه لا يخفى عليهم ، لكنهم يسكتون عنه فيتوهم صاحبه انه سر مغلق على الناس كافة • وهب انه يخفي على الجيران فهو لا يخفي على الخدم والجواري لان هؤلاء لا شاغل لهم غير استطلاع الاسرار والتوسع فيها والتكهن بما يكون من امرها ، لكنهم في الغالب يشوهون الحقيقة بما تصوره لهم افكارهـم وميولهم •

فكانت شوكار على بينة من هواجس سيدتها وان لم تصب الحقيقة تماما ، لكنها تجاهلت وطلبت الى شجرة الدر ان تكاشفها بسرها • فقالت لها شجرة الدر : «لست اخفي عليك سرا كما تعلمين ، لكن ما أكتمه ليس مما يهمك الاطلاع عليه» •

فقالت : «لا اطلب الاطلاع عليه لانه يهمني ، لكنني اطلب ذلك لعلمي ان الانسان اذا اشتكى ما يكابده لشخص يحبه ويثق به ، فان وطأة ذلك السر تخف عنه» •

فضحكت شجرة الدر على سبيل المداعبة وقالت : «يظهر يا بنية انك قد جربت الاسرار ولذة المكاشفة» •

فأطرقت خجلا وقالت : «ليس عندي اسرار أكتمها او أبوح بها ، وليست اسراري مما يصح الاهتمام به • لكني أعرف ذلك عن سواي ، فهل انا مخطئة يا سيدتي ؟»

قالت : «كلا ، انك تقولين الصواب • ولكن دعينا مـن ذلك الان

واطربينا بشيء من غنائك الرخيم» •

لم تعتبر شوكار ذلك الرفض مقصودا لانها قرأت عكسه في عيني سيدتها شجرة الدر ـ والعينان أصدق من اللسان ـ فاستأنفت الكلام قائلة : «اني طوع ارادتك يا سيدتي ، لكنني احب تخفيف قلقك» •

فأحبت شجرة الدر ان تكون جاريتها البادئة بالحديث فقالت لها : «ماذا تظنين سبب قلقي ؟»

قالت : «من اين لي ان أعلم ذلك ؟• ليس فيما أعلمه من أحوالك الا ما يوجب السرور والفخر ، حتى فيما له علاقة بالقلب ، أعلم انك قد نلت منه ما لم ينله سواك • ان الامراء كافة يتمنون رضاك ، ويعدون التفاتك نعمة • ويكفي لاكتساب قلب احدهم ان تنظري له نظرة رضا • على انك في غنى عن ذلك بموقعك الجميل من قلب مولاي عز الدين أيبك ، وهو كبير الامراء ، ويتمنى لفتة منك، و•• »

فلما سمعت شجرة الدر اسم عز الدين تصاعد الدم الى وجنتيها ، وقطعت كلام جاريتها وهي تظهر عدم الاهتمام وقالت : «ليس هذا الامر مما يهتم له أمثالي يا شوكار ، وانما هو للفتيات أمثالك» •

* * *

وأظهرت شوكار انها صدقت سيدتها ، مع انها تعلم حق العلم بما بينها وبين عز الدين أيبك التركماني كبير الاتراك من صلات المحبة ، ثم حولت كلامها الى موضوع آخر وقالت : «اصفحي يا مولاتي عن جرأتي واغفري لي خطئي ، فلعل شواغلك تتعلق بأحوال الدولة ، على أثر وفاة سيدي الملك الصالح رحمه الله» •

فابتدرتها شجرة الدر قائلة : «نعم • نعم • انها تتعلق بما نحن فيه من الخطر، والحرب قائمة بيننا وبين الافرنج في المنصورة وفارسكور» •

فقالت : «ولكن الاخبار الواردة علينا حسنة على ما أعلم . ألم يأتنا الطائر مبشرا بالنصر ، ثم حمل الينا الرسول خبر انتصار جنودنا على الفرنسيس ، وانهم قتلوا منهم ثلاثين الفا ، وأسروا ملكهم لويس ، وحبسوه في دار ابن لقمان .. ثم جاءنا رسول يحمل رسالة اخرى ، وعليه ثوب ملك الافرنج نفسه ، وهو المخمل الاحمر بفرو سنجابي وقلنسوة من ذهب . وقد زينت له القاهرة زينة لم يسمع بمثلها ؟ ام انت تظنين ذلك غير الواقع ؟»

قالت : «بل هو الواقع عينه» .

قالت : «اذن ما الذي يقلقك يا سيدتي ؟»

فتنهدت وقالت : «لقد أحرجتني يا شوكار . فلا بد من اطلاعك على بعض الخبر . ان قلقي ليس خوفا من الافرنج فان جندنا كلهم أشداء ـ ولاسيما هؤلاء الاتراك الذين بنى لهم مولانا الملك الصالح هذه القلعة ـ وقد ظهرت بسالتهم في الحرب التي ذكرتها . ولكنني اخاف الانقسام بين جندنا من سوء تصرف الملك المعظم طوران شاه !» . قالت ذلك وهزت رأسها هز الاسف .

فقالت شوكار : «هل تأذن مولاتي بكلمة ، وان كنت لا أفهم شيئا من أحوال الدولة ولا شأن لي بتدبير المملكة ؟. أظنكم اخطأتم باستقدام هذا السلطان من حصن كيفا وتوليته السلطة . وعندكم من الامراء من هو اكفأ منه» .

فقالت : «ولكن الناس لا يذعنون للسلطان الا اذا كان من الاسرة المالكة ، أسرة آل أيوب ، ولولا ذلك لهان الامر . ولو كان طوران شاه هذا عاقلا لاستقام الامر . ولكنه غلام جاهل أحمق يشرب الخمر ، فاذا سكر فعل ما لا يفعله الاطفال . بلغني انه يصف الشموع في الليل امامه، ويأخذ السيف بيده ويضرب به تلك الشموع ويقول : (هكذا أفعل

بالمماليك البحرية) • يعني مماليكنا الاتراك • وما برح منذ جاءنا ــ ولم يمض عليه شهران ــ يفضل مماليكه الاكراد الذين اتوا معه على مماليكنا، ويعرض بذلك في مجالسه ، مع ان النصر في حروب الافرنج انما كان بفضل أبطالنا ، ولاسيما عز الدين أيبك وركن الدين بيبرس وسيف الدين قطز وأمثالهم • فأخاف ان يطول النزاع ويغتنم العدو تفرقنا فيكر علينا !» وسكتت لحظة وهي مطرقة ، ثم بلعت ريقها واستأنفت الحديث قائلة : «ولكنني دبرت تدبيرا اذا أفلح سلمنا من الخطر !» • ثم نهضت ، وأظهرت انها في شاغل خوفا من ان تستزيدها شوكار بيانا وهي لا تريد كشف ذلك التدبير لها •

ادركت شوكار غرض سيدتها ، لكنها تشاغلت باصلاح العود وهي تنظر الى النيل • لكنها ما لبثت ان لحظت عن بعد اضطراب صفحة الماء ، فتطلعت فاذا هي ترى شبحا كبيرا سابحا قادما من الشمال ، ولم تتمالك حين تبينته ان صاحت : «هذه سفينة قادمة الينا • لا بد لقدومها في هذا الليل من امر مهم !»

وكانت شجرة الدر تتشاغل باصلاح شعرها ، فلما سمعت صيحة شوكار التفتت نحو السفينة وصاحت : «هذه عشارية عز الدين ما الذي جاءنا به يا ترى من الاخبار ؟» • قالت ذلك وهرولت وهي تلتف بالمطرف ، وتبعتها شوكار في مثل دهشتها نحو المرفأ •

وكان للروضة مرفأ جميل تقف عنده السفن منذ كانت فيها دار الصناعة ، ومن هذا المرفأ الى داخل القلعة طريق مختصر • لكن شجرة الدر ــ بعد ان دفعتها الدهشة الى طلب المرفأ ــ عادت الى رشدها وتراجعت ، وأظهرت انها ذاهبة الى الايوان الكبير الذي كان الملك الصالح يستقبل فيه الوفود والامراء والوزراء •

* * *

كان ذلك الايوان من افخر الابنية ، بذل الصالح جهده في اتقانـه وزخرفته ، وهو قاعة كبيرة قائمة على اساطين الرخام ، وقد زين سقفها بالصور المذهبة والنقوش من النوع المعروف بالمقرنص ، وعلى جدرانها كتابة جميلة بصفائح الذهب والرخام الأبنوسي والكافوري والمجزع ، مما يبهج النفوس ويستوقف الابصار •

ولم تدخل شجرة الدر هذا الايوان منذ شهرين وبعض الشهر بعد ان توفي الملك الصالح ، فاضطرت لاخفاء اضطرابها ان تنزل اليه ، فأمرت بعض الخصيان ان يفتحه ، ودخلت وشوكار وراءها وقد ادركت قلقها وتوهمت انها تريد الخلوة هناك فتراجعت عند الباب وقالت : «أستأذن في الانصراف يا سيدتي» •

قالت : «الى اين ؟» • قالت : «الى حيث تأمرين • وانما اخاف ان يكون في وجودي ما يثقل عليك» •

فأشارت اليها ان تدخل وقالت : «تعالي يا شوكار • لا ينبغي ان اخفي عليك شيئا» • فدخلت ، وجلست شجرة الدر على سرير من الذهب في صدر الايوان كان يجلس عليه الملك الصالح ، وأشارت الى شوكار فجلست على كرسي مذهب بين يديها ، وقد أضيء الايوان بالشمـوع وظهرت نقوشه الجميلة • وتأملت شوكار في سيدتها وهي جالسة علـى سرير الملك وضحكت ، فلحظت شجرة الدر ضحكها وسألتها : «ما بالك تضحكين يا شوكار ؟» • قالت : «اني مسرورة يا سيدتي من جلوسك هنا ، وقد استبشرت به خيرا • ان هذا المجلس لائق بك !»

فخفق قلب شجرة الدر لهذه البشرى ، لانها كانت راغبة في السيادة، وهي اهل لها ، لكنها انكرت ذلك على شوكار ، وأظهرت انها تستبعد هذا الامر وانها ليست اهلا له ، وشغلت نفسها باستدعاء قيِّم تلك الدار• فلما حضر أمرته ان يذهب الى المرفأ ، واذا جاء احد برسالة فليأت بهـا

اليها في ذلك الايوان .

وجلست وهي تظهر الجلد ، لكنها كانت على مثل الجمر من القلق . وجلست شوكار بين يديها تشاغلها بالحديث عما في تلك القاعة من التحف ، وما أنفقه الملك الصالح في تلك الابنية ، وهذه تظهر الاهتمام بالموضوع وتقص عليها ما رأته من عناية الملك الصالح باتقان ذلك البناء.

وبينما هما في ذلك اذ سمعت شجرة الدر صوت نفير من بعيد ، فعلمت انه اشارة وصول السفينة الى المرفأ ، فخفق قلبها وظهر القلق في وجهها ولحظت شوكار ذلك ولكنها تجاهلته . ولم يمض وقت يسير حتى جاء الغلام يقول : «ان الامير ركن الدين بيبرس بالباب» .

فقالت شجرة الدر : «ليدخل» .

فدخل شاب طويل القامة ، قد تزمل بعباءة تغطيه كله ، ثم نزع العباءة فاذا هو جميل الخلقة صبوح الوجه عليه هيبة الشيوخ ونضارة الشباب ، لم يتجاوز عمره يومئذ ٢٣ سنة ، وعليه الدرع والخوذة كأنه في ساحة الحرب التي قدم منها . فلما دخل حيى شجرة الدر تحية لم تحي بمثلها من قبل ، ففهمت ما عناه لكنها تجاهلت وقالت : «ما وراءك يا ركن الدين ؟»

فالتفت يمينا وشمالا كأنه يحاذر ان يسمعه احد . فأدركت انه يحمل سرا لا يحب ان يفوه به جهارا ،فأشارت الى الخدم بالخروج واحتفظت بشوكار ، وأشارت اليه ان يتقدم نحوها ، فتقدم فقالت : «ما وراءك ايها الامير الشاب ؟ قل ولا بأس من وجود عزيزتي شوكار ، بل لا بد من وجودها فهي التي طالما أعجبت بشهامتك ، قل . ما وراءك ؟»

فاستغربت شوكار ما روته شجرة الدر عنها من انها معجبة بركن الدين ، ولم تجد باعثا على ذلك في تلك الساعة فسكتت ، واتجهت بكليتها لسماع ما يلقيه ركن الدين . اما هو فلما سمع قول شجرة الدر

عن اعجاب شوكار به التفت اليها فوجدها في غاية الجمال واللطف ، وفي عينيها معنى جمع بين الذكاء والسحر . وكان يسمع برخيم صوتها لان ذلك كان شائعا في القصر . لكنه توجه نحو شجرة الدر وقال : « ان ورائي امرا ذا بال وخبرا مهما لا ادري أيسر مولاتي ام يسوءها» .

فأجفلت ونظرت في عينيه باهتمام وقالت : «قل ما هو .. ولا يهمك ساءني ام سرني ، فاني لا أتوقع من هذه الدنيا سلامة» .

فقال : «ان الملك المعظم طوران شاه بن مولانا الملك الصالح قد لاقى أجله في هذا الصباح ، وبعثني مولاي الامير عز الدين أيبك لأنقل هذا الخبر اليك ريثما يصل هو الى هنا في صباح الغد ، ولم يشأ ان يرسله مع الطائر مبالغة في الكتمان ، لكنه دفع الي هذه البطاقة الصغيرة مختومة ، وأمرني ان أدفعها اليك يدا بيد» . قال ذلك واستخرج من جيبه بطاقة دفعها اليها .

فلما سمعت شجرة الدر بموت طوران شاه بانت الدهشة في عينيها ، لكنها تجلدت وتناولت البطاقة وفضتها ، واقتربت من المصباح وقرأتها فاذا فيها : «أما بعد فاني مسرع في ارسال البشارة بذهاب ذلك الشاب المغرور الى سبيله ، على كيفية يقصها عليك الامير ركن الدين بيبرس البندقداري حامل هذه البطاقة اليك . وقد كان لهذا الامير النصيب الاكبر من العمل في هذا السبيل وهو يستحق التفاتك . وعندي خبر اخر سأتلوه عليك في الغد شفاها ان شاء الله » .

قرأت البطاقة لنفسها وعادت الى مخاطبة ركن الدين كأنها لم تقرأ شيئا فقالت : «أأنت على ثقة من قتل الملك المعظم ؟»

قال : «نعم يا سيدتي . كل الثقة» .

قالت : «هل قتل سرا ؟»

قال : «كلا يا سيدتي ، انه قتل جهارا» . قالت : «من قتله ؟»

قال : «نحن قتلناه ، لانه لم يترك للصالح مكانا ، وقد بالغ فـــي الطيش والهوج ، وكرر مغاضبتنا وأسمعنا الاهانة ، ولم يعجبه المماليك البحريون ، مماليك ابيه الملك الصالح ، وكلما ذكروا امامه استخف بهم ، مع انهم اصحاب السيف حماة هذه الدولة .. وهم الذين ردوا الافرنج عن هذه البلاد . وقد صور له طيشه انه الفاعل لما يريد ، واننا حشرات لا يعتد بنا، حتى بلغنا انه كان يصف الشموع ويأخذ رؤوسها بالسيف ويقول انه هكذا سيفعل بنا . وقد صبرنا على ذلك ، حتى بلغنا ان هذا لا يرضي مولاتنا أم ولد الملك الصالح رحمه الله ، فأضمرنا له السوء ، فلما كان صباح اليوم جلس في موكبه والامراء والاكراد وأصحابه بين يديه ، ورؤوس النواب واقفون امامه بعصى كسيت بالذهب ، كأنه يقول لنا اني سلطانكم رغم أنفكم . فصبرنا عليه حتى مضى الموكب وبقي وحده وحضر السماط فجلس عليه على العادة ، فتقدم اليه جماعة منا بأيديهم السيوف وضربوه على اصابعه فقطعوها ، فقام وهرب ودخـــل البرج الخشبي ، وأغلق عليه بابه ، فأطلقنا النار على البرج ، فخرج منه وألقى نفسه في البحر وصار يسبح فيه والنشاب يأخذه من كل ناحية وهـــو يقول : (خذوا ملككم ودعوني أرجع الى حصن كيفا) ، فلم يغثه احد . وما زال على ذلك حتى قتل ، فكأنه مات حريقا غريقا قتيلا ، فأخرجناه من البحر وتركناه على الصعيد وسيبقى كذلك حتى لا يعرف له قبر» .

* * *

كان ركن الدين يقص خبر مقتل طوران شاه ، وشجرة الدر مصغية لا تبدي حراكا ، لكن الاهتمام باد في عينيها. فلما فرغ من كلامه قالت: «مات طوران شاه ! رحمه الله ، انه اخطأ في تصرفه ولم يحسن سياسة الملك الذي اعطيناه اياه . وكل من لا يسوس الملك يخلعه !» . ثـــم

نظرت الى ركن الدين وقالت : «وهل عندك خبر اخر غير هذا ؟»

قال : «عندي خبر سيتلوه عليك مولاي الامير عز الدين أيبك في صباح الغد » •

قالت : «لعله خبر مهم ؟»

قال وهو يبتسم : «أظنه كذلك» •

فأدركت شيئا من مراده لكنها حولت الحديث وقالت : «لم تخبرني عن القواد الابطال الذين فتكوا بالملك المعظم • هل انت منهم ؟»

قال : «نعم اني أصغرهم شأنا ، وقد فعلت ذلك بأمر مولاي الامير عز الدين» •

فأعجبها تواضعه واحتشامه فقالت : «اراك تتنصل كأنك تعد هذا العمل جريمة وعارا •• انه عمل عظيم يحق لك الافتخار به ، وقد نجيت البلاد من الخراب ، لان هذا الملك لم يكن اهلا للسلطة ، ولو طال مكثه في هذا المنصب لجر علينا الدمار • فلا تخف ، وقد أنبأني عز الدين بلائك ، وأنا طالما توسمت فيك البسالة والاقدام ، وسيكون لك شأن عظيم ، فاذا صدق توسمي فيك أهديتك أثمن ما عندي» • قالت ذلك ونظرت الى شوكار وضحكت ، فأدركت شوكار غرضها فغلب عليها الحياء لانها لم يخطر ببالها حب احد • وقد كفاها من نعم المولى ان تكون حائزة رضا سيدتها شجرة الدر ، فلما سمعت تلميحها تصاعد الدم الى وجنتيها وأطرقت ، وودت لو انها بالنقاب لتغطي وجهها ، ولكنها لم تكن تنتقب بين أيدي الامراء •

أما ركن الدين بيبرس فأعجبه اطراء شجرة الدر شجاعته ، وكان يسمع بحسن شوكار ولطفها وجمال صوتها ولم يكن يتوقع ان يأتي يوم ينالها فيه ، فلما رأى شجرة الدر اشترطت في نيلها ان يصدق توسمها فيه لم يدر بماذا يجيب ، فقال اخيرا : «أشكر لمولاتي حسن ظنها بعبدها ،

وأرجو ان اكون اهلا لثقتها . وفي كل حال اني رهين اشارتها وما تأمرني به ، وأفديها بروحي» .

ففرحت شجرة الدر بهذا التصريح لانها انما ارادت ان يكون طوع ارادتها لتستخدمه في أغراضها لما رأته فيه من البسالة ورباطة الجأش .

ولما سمعت شوكار جواب ركن الدين أحست بشيء لم تحس بمثله قبلا ، وبان التأثر في عينيها ، وخفق قلبها خفقانا لم تعرفه من قبل . لكنها اطرقت وظلت ساكتة .

وأما شجرة الدر فقد سرها ما وقفت اليه من مقتل الملك المعظم ، اذ هي التي أمرت المماليك ان يقتلوه ، ولولا ذلك لم يجسروا على قتله . وقد أغراهم على ذلك عز الدين أيبك حبيبها ، وهو كبير قواد المماليك . وكان لركن الدين بيبرس اليد الطولى في هذا العمل ، وكانت قد سمعت من عز الدين عن بسالته وتفانيه في طاعته وطاعتها فأرادت ان تزيـــد اخلاصه في طاعتها فوعدته بشوكار . فلما لحظت تعلق آماله بها تحركت في مجلسها كأنها ارادت استئناف الحديث ، فقالت : «ومتى يصل الينا الامير عز الدين ؟»

قال : «أظنه يصل في صباح الغد ، وسيأتي معه سائر الامـــــراء والعسكر ، وسيحدث تغيير عظيم في أمور الدولة . وقد حفظ الامير عز الدين حق هذه البشارة لنفسه وهو كبيرنا ومولانا» .

فضحكت شجرة الدر وهي تنهض عن السرير وقالت : «أظنك نلت جائزة حسنة .. وانما ارجو ان تحقق ظني فيك يا ركن الدين» .

فأدرك انها تصرفه ، فتحول وهو يلتفت الى شوكار لفتة الوداع وهي لا ترفع بصرها اليه ، لكنها رأته ورآها وتفاهم النظران وتناجى القلبان. وما أسرع تناجيهما اذا توافقت الطباع .

خرج ركن الدين وقد شغله ذلك الوعد عن دهشة الخبر الذي حمله

من فارسكور الى القاهرة ، وما يرجى ان يحدث من التغيير في أمــور الدولة بسببه ، سار توا الى برج من أبراج القلعة كان يقيم فيه مع بعض المماليك من رفاقه .

- ٣ -

عز الدين ايبك

مشت شجرة الدر ــ بعد ان توارى ركن الدين ــ نحو شوكار وهي تجر مطرفها وراءها ، فنهضت لها احتراما ، وأطرقت شكرا ، وهي لا تدري أأحسنت اليها بذلك الوعد ام اساءت . ولم تستقر افكارهـــا لتحكم في الامر فابتدرتها شجرة الدر قائلة : «أرجو ان تكوني مسرورة من هذا النصيب يا شوكار» .

فرفعت بصرها والخجل يغشاه فرأت شجرة الدر تنظر اليها نظـــر المداعب فأجابتها : «يظهر ان سيدتي ملت رفقتي ؟» . وضحكت .

فقالت شجرة الدر : «لا ، لكنني نظرت الى مستقبلك ، فمن كانت في مثل ما انت فيه من الجمال والعلم ورخامة الصوت يجب ان تنـــال نصيبا حسنا . وأنا على ثقة ان هذا الشاب الباسل من خيرة الشبان ، وله مستقبل مجيد . فاذا اخطأ ظني فيه ولم يكن الرجل الذي أرضاه لك لا أزوجك به . لا تخافي اني شديدة الغيرة على مصلحتك لانـــك بمنزلة ولدي كما تعلمين .. والآن ينبغي لنا ان نطلب الرقاد فقد تعبنا» .

فقالت شوكار : «ولكن التعب جاء بنتيجة ترضينها يا سيدتي .. ان

الرجل الذي كنا نشكو منه قد مضى لسبيله وعادت الامور الى مجاريها. فمن يا ترى سيتولى هذه السلطنة ؟. ارجو ألا يعودوا الى بيت أيوب مرة اخرى . إن هؤلاء قد مضت ايامهم ولكل ايام دولة ورجال» .

فأظهرت شجرة الدر انها خالية الذهن من امر المستقبل ، وانها تتوقع ان تعرف الحقيقة في الغد بعد مجيء عز الدين . فأكبت شوكار على يد سيدتها وقبلتها للوداع ، فقبلت شجرة الدر رأسها .

وحالما خلت شجرة الدر بنفسها انصرفت من باب سري في الايوان الى قصرها وقد توسط الليل ، فلما صارت في غرفتها كان الخدم قد اناروها، وهي في اجمل ما يكون من الرياش ، وعلى جدرانها ستائر الديباج عليها الابيات الشعرية او الصور والنقوش بأزهى الالوان . وما كادت تدخلها حتى استلقت على سريرها واستغرقت في هواجسها ، وجعلت تناجي نفسها قائلة : «قتلوا طوران شاه — لا اقامه الله — وقد قتل بسعي عز الدين حبيبي» . ولما ذكرت اسمه تنهدت وقالت : «هو حبيبي لكنه سرير لا أظنه امينا في حبه . وهؤلاء الرجال لا يؤمن جانبهم . ما لي وله ؟! فليكن كما يشاء . ألم يخدمني في هذا الامر ؟. ليس بعد قتل طوران شاه الا ان يعود الملك الى يدي . هكذا وعدني عز الدين فهل تراه قد بر بوعده ؟. فاذا صرت ملكة فأنا اول ملكة في الاسلام . وسأجازي عز الدين خيرا لانه أخلص في خدمتي» .

قضت هزيعا من الليل في مثل هذه الهواجس ، ولما نامت حلمت انها تولت الملك وقبضت على صولجانه ، وذلك لفرط رغبتها في الملك مهما يكلفها الوصول اليه ، فانها من طلاب السيادة بأية وسيلة كانت وقد نبت ذلك في خاطرها منذ ولدت للصالح ابنها خليلا لعلمها انه سيكون وسيلة الى تحقيق مطامعها او انه يكون هو السلطان وهي الوصية عليه ، لكنه توفي طفلا .

وفي صباح اليوم التالي جاءتها الجارية الموكلة بتدبير غرفتها وقالت :
«ان الامير عز الدين ايبك ينتظر في الايوان يا سيدتي» .

فنهضت وأصلحت من شأنها ، وبذلت جهدها في الزينة لتظهر بين يدي حبيبها في اجمل حالاتها . وهذه طبيعة النساء على الاجمال ؛ فكيف بمن تعلق على ذلك الحب غرضا سياسيا مهما ؟ لبست ثوبا مخططا معتم اللون ، وضفرت شعرها ضفائر قليلة ارسلت منها اثنتين الى جانب وجهها، وغطت رأسها بغطاء مرصع بحجارة كريمة فوق الجبين له ذيل مزركش يغطي العنق من القفا حتى يسترسل على الظهر . وقد تقلدت عقدين احدهما من اللؤلؤ والآخر من العقيق وغيره ، وتمنطقت بمنطقة مشبكها من الذهب المرصع ، وهي مع كونها على ابواب الكهولة لا يزال ماء الشباب يتلألأ في محياها ، ولا تزال عيناها ترسلان السحر الى قلوب الناظرين ، فتتملكهم الهيبة والقوة ، لا اللطف والوداعة ، كما ينبعثان من عيني شوكار .

وكان عز الدين أيبك يشعر بقوة تلك المرأة وسيطرتها على قلبه ويحبها حب تهيب واحترام لا حب شغف وتلهف . وزاده رغبة فيها ما كان يعلمه من منزلتها عند الملك الصالح وتقدمها في داره ونفوذها عنده . فتودد اليها وبادلته هي حبا بحب ، ووافق ذلك هواها لانها مع مطامعها الواسعة لا حول لها ، وهي امرأة لا تطمع في قيادة جند تستعين بهم في نيل أغراضها ، فرأت في ارتقاء عز الدين الى منصب كبير أمراء المماليك فائدة لها فأعانته على نيل ذلك المنصب في زمن الملك الصالح ، وهو لم ينس هذا الجميل لها . ولما سنحت فرصة اخرى يخدمها فيها بقتل طوران شاه لم يضيعها ، وان كان قد فعل ذلك لمصلحته ايضا .

فلما أتم عمله امس أنفذ بعض الخبر مع ركن الدين واحتفظ ببقيته لنفسه ليتلذذ بسماع الاطراء والاعجاب بدهائه وبسالته . وجاء في ذلك

الصباح على جواده مع جماعة من حاشيته وقواده ، ولم يسترح الا قليلا ثم جاء الى الايوان ، وبعث الى شجرة الدر لتوافيه .

* * *

لم تمض هنيهة حتى دخل الغلام يعلن قدومها ، فوقف لها عز الدين، ثم أكب على يديها كأنه يقبلهما ، فأجفلت وأشارت اليـــه ان يجلس ؛ وجلست هي على السرير وجلس هو بين يديها ، وأمرت الخدم بالخروج. ولما خلت به قالت : «اهلا بك يا عز الدين . قد بلغنا بلاؤك في انقـاذ البلاد من ذلك الغلام ، جزاك الله خيرا . انها خدمة للمسلمين» .

قال بلهفة المحب الولهان : «انما فعلت ذلك خدمة لسيدتي وحبيبتي شجرة الدر وطوعا لامرها» .

فأثر كلامه في خاطرها لانها تحبه ، فهاجت أشجانها وقالت : «اني أعرف هذا الجميل لك يا عز الدين . وليست هذه هي المرة الاولى التي برهنت فيها على صدق مودتك ، فأنا اسيرة ودادك» .

قال : «يكفيني منك لفتة رضا يا سيدتي ، ولاسيما الان بعد ان صرت ملكة المسلمين» .

فتظاهرت بالاستغراب وقالت : «ملكة المسلمين ؟ ماذا تقول ؟» .

قال : «انت الان ملكتي والقابضة على قلبي وستصبحين غدا ملكـــة المسلمين وعصمة الدنيا والدين» . قالت : «وكيف ذلك ؟ أفصح» .

قال : «لما قتل الملك المعظم امس اجتمع الامراء ودار الحديث على من يتولى السلطة بعده ، واختلفت الآراء فقلت لهم : اننا لا نحب ان نستقدم احدا من آل أيوب ، وقد رأينا مصيرنا معهم ، وشدد آخرون في ان يكون السلطان من البيت الايوبي ، فقلت لهم نعمل عملا وسطا نحن انما نحترم من الايوبيين مولانا الملك الصالح ــ رحمه الله ــ ولا نأمن

احدا من اهله ، وهذه أم ولده خليل كانت من أعز الناس عنده ، وهـي عاقلة مدبرة ، ومن ابناء جلدتنا وتغار علينا ، فأرى ان نوليها هـــذا المنصب • فرضي القوم بذلك ، واتفق رأيهم على ان تكوني ملكة مصر • ألا يحق لي ان أقبل يدك وأطلب رضاك ؟»

قالت : «معاذ الله • أستغفر الله • انك حبيبي وصاحب الفضل علي، لاني لولاك لم أحصل على هذا المنصب • فاذا تم لي الملك فأنت صاحب النفوذ الاول فيه ، فأدعوك مدبر المملكة • ومن هو أولى به منك ؟»

فانشرح صدر عز الدين لهذا الوعد ، وهو ما كان يتمناه وقد حصل عليه على ان يتدرج منه الى ما هو اعظم • فأظهر الشكر وانه لا يستحق هذا الالتفات ونحو ذلك من اسباب المجاملة •

أما هي فانها عرفت لصديقها فضله ، وأخذت تثني على علو همتـه وغيرته ، وانها لا تثق الا به ، وقالت له : «اني لا أستغني عنك فـي تدبير المملكة» •

فقال : «انت في غنى عن تدبيري لكنني طوع ارادتك وما تأمرين» •

وقضيا ساعة في الحديث ، وكل منهما قد طار قلبه فرحا بما ناله ، ثم قالت : «ومن الحكمة ان نفرق المناصب على اصحابنا الذين معنا مـن الجند لتتأيد هذه الدولة فماذا ترى ؟»

قال : «دبرت كل شيء ، ولا يخفى على سيدتـي شجرة الدر ان جندنا مؤلف من اتراك وجركس وروم وأكراد وتركمان ، وأكثرهم من المماليك المبتاعين • وانما يهمنا نحن ان نقوي الاتراك لانهم جندنـا الاصليون فنقدمهم في مناصب الدولة ، وهم كما تعلمين طبقات من حيث المناصب ، وفيهم أمراء المئين وأمراء الالوف ، وكلهم من الفرسان الاشداء، وهم عضد الجند وقوته ، فنفرق هذه الوظائف على كبار الامراء الذين اخذوا بناصرنا في هذا العمل • ومناصب الدولة غير الجندية عديدة اعظمها

منصب امير السلاح الذي يتولى حمل السلاح للسلطان في المجامع الجامعة ، والداودار الذي يبلغ الرسائل عن السلطان ويرفعها اليه ويستقبل من يحضر ويقدم البريد ويأخذ خط السلطان على جميع المناشير والتواقيع والكتب ، والحاجب الذي يقف بين الامراء والجند ، وأمير جاندار الذي يسلم الزردخانة ويقتل من اراد السلطان قتله ، والاستاذ دار واليه أمر بيوت السلطان كلها ، وغير ذلك من المناصب • فما الذي ترينه من امر هذه المناصب ؟ ثم لا بد من ارضاء الجند بالعطايا » •

قالت : «اني تاركة امر ذلك كله اليك لانك ستكون مدبر المملكة ، فتولي هذه المناصب من تثق بهم من رجالك وترى فيهم الاخلاص لنا ، لكنني اطلب امرا واحدا وهو ان تنظر في امر ركن الدين بيبرس الشاب الذي بعثت رسالتك معه • انه من خيرة الامراء فوله منصبا بحيث يكون قريبا منا » •

فلما سمع اطراءها ركن الدين أحس بالغيرة ، ورغم ثقته به حدثته غيرته ان يطعن فيه ــ والغيرة تعمي وتصم ــ ولكنه رجع الى صوابه ودهائه وقال : «ان ركن الدين من خيرة الامراء ، صدقت • وأرى ان توليه الداودارية ، وبذلك يكون قريبا منا» •

وأحست شجرة الدر بغيرة عز الدين ــ والمرأة أرق شعورا من الرجل ، ولكنها تجاهلت وأغضت لانها لم يكن لها مطمع في حب احد ، وانما هي تحب العلى وتهوى السلطة وتبذل كل شيء في سبيلها ثم قالت : «ومتى يأتي الامراء من المنصورة ؟ »

قال : «أظنهم يكونون هنا غدا ليحتفلوا بتولية شجرة الدر ملكة على هذه الديار • ما اجمل هذا الاسم في فمي ! وما ألطف وقعه في قلبي ! فهل لاسمي شيء من ذلك في قلبها ؟» • قال ذلك ونظر اليها نظرة عتاب•

فنظرت اليه وقد ادركت مراده وقالت : «سترى ثقتي وحبي ، وستعلم مركزك بالفعل لا بالكلام . اراك تلمح وتستطلع كأنك تشك في صدق مودتي . سامحك الله يا عز الدين ..» . وبان العتب في عينيها .

فاعتقد صدق قولها وقال : «معاذ الله يا سيدتي ..»

فابتدرته قائلة : «لا تقل سيدتي ، انت حبيبي ، انت سندي ، انت موضع ثقتي وعليك اتكالي . كن واثقا بذلك ..»

قال : «اني واثق ولكن المحب كثير ..»

فقطعت كلامه وقالت : «دعنا من ذلك فانه مفهوم بيننا ، وهلم الى تدبير شؤوننا .. اني أسمع لغطا في الدار» .

فأسرع عز الدين وهو يقول : «اظن الامراء قد وصلوا من المنصورة، ولعلهم يطلبون تقديم تحياتهم لك» .

قالت مبالغة في اكتساب قلبه : «وهل ترى ان استقبلهم ؟»

قال : «لا ارى بأسا من استقبالهم اذا طلبوا ذلك لانهم اصحاب فضل في هذا الامر ، وقد رأيت منهم اذعانا سريعا لما اقترحت ان تصير السلطنة اليك . ولكن ، طبعا سترسلين الستر بينك وبينهم ، ولاسيما انت الان ملكة المسلمين» .

فنظرت اليه بطرف عينها وهي تبتسم وقالت : «ان عز الدين غيور، ولكن يسرني ذلك ، لان الغيرة دليل المحبة ، على اني لم اكن أحتاج الى تنبيه ، وأنت تعلم اني لا ألقي احدا كما ألقاك» . قالت ذلك وأشارت الى الخصي الواقف في خدمتها ان ينزل الستر . ولم يكد يفعل حتى جاء الحاجب يقول : «ان كبار أمراء الجند يلتمسون التشرف بمقابلة السيدة الجليلة» . وذكر الحاجب أسماء الامراء بلباي الرشيدي وفارس الدين اقطاي وبيبرس ركن الدين البندقداري وسنقر الرومي . فقال عز الدين بالنيابة عنها : «فليدخلوا» .

دخل كبار الامراء وحيوا تحية طيبة فاستقبلهم عز الدين بلطف . ثم تكلم الفارس اقطاي عنهم قائلا : «ان الامراء قادمون لرفع واجب التعزية الى السيدة أم خليل في القضاء الذي نزل بطوران شاه ، ولابلاغها ان اختيارهم قد وقع عليها لتتولى أمور المسلمين ، فعسى ان يقع ذلك لديها موقع الرضى» .

فأجاب عز الدين عنها قائلا : «ان مولاتنا السيدة الجليلة قد بلغها بلاؤكم الحسن ايها الامراء في سبيل مصلحة الدولة وقد وقع القضاء على ذلك الملك فأسفت لما اصابه ، ولكنه جنى على نفسه رحمه الله» .

فقال الامير سنقر الرومي : «انه الجأنا الى ما اتيناه لانه لم يجعل لنا يدا في شؤون الدولة . وان مولاتنا زوج ملكنا المرحوم الملك الصالح أولى الناس بهذا الامر» .

فأجابتهم من وراء الحجاب : «اني شاكرة مروءتكم وحسن ظنكم ، ولا يسعني الا الانصياع لما تم اتفاقكم عليه وأنتم نخبة الامراء اصحاب السيوف . وانما أقبل هذا المنصب اعتمادا عليكم وثقـــة بكم لاني لا استطيع عملا ان لم تأخذوا بيدي» .

فصاحوا بصوت واحد : «نحن طوع أمر مولاتنا نفديها بأنفسنا . وغدا نحتفل بتوليتها في القلعة ان شاء الله» .

ثم تحولوا للخروج فرافقهم عز الدين وهو يقول لهم : «ان مولاتنا شجرة الدر كانت تحدثني قبل وصولكم مثنية على بسالتكم وشجاعتكم، وقد أعدت الهدايا للأمراء والرجال ، وقالت لي انها انما ترضى بالسلطنة لانكم اخترتموها لها» .

وقد صدقوه ، وسرهم ما سينالونه من الهدايا ــ وهي العطايا يعطيها السلطان عند توليته ــ وقد اعتزمت شجرة الدر ان تجعلها كبيرة لعلمها بما يعتور سلطنتها من العقبات لانها اول امرأة تولت ذلك في الاسلام .

وخرج عز الدين لوداعهم وهو يثني على هممهم ويمنيهم ، ثم عاد الى شجرة الدر يلفتها الى الهدايا وقيمتها ، ثم افترقا على ان يمضــي لتهيئة الاحتفال .

* * *

لم تطلع شمس ذلك النهار حتى علم اهل جزيرة الروضة بما قالته شجرة الدر، وانها اصبحت سلطانة مصر .وقد وقع الخبر موقع الاستغراب عند كثيرين ، وموقع الغيرة والحسد عند زميلاتها جواري الملك الصالح ــ وكل ذي نعمة محسود ــ وكانت أشدهن غيرة جارية كردية الاصل اسمها سلافة ، كانت تفاخر سائر الجواري بأنها من قبيلة الملك الصالح وكان هو يقربها حتى جعلها قيّمة قصره ، لكنها لم تلد منه كما ولدت شجرة الدر ، فأصبحت هذه اقرب جواريه اليه . وكانت سلافة بارعة الجمال لكنها قليلة الدهاء شديدة الغيرة سريعة النقمة .

وكانت مشهورة بجمالها الفتان ، يتحدث اهل الروضة والقاهــرة بحسنها وان لم يرها منهم الا القليلون . ومن بين الذين أتيح لهــم رؤيتها تاجر بغدادي اسمه سحبان كان يتردد الى مصر ومعه الاقمشــة الفارسية والهندية ، وكان الملك الصالح يدعوه اليه ويبتاع منه ما يختاره لنسائه من الانسجة الجميلة ويطلب منه احضار ما يحتاج اليه مـــن مصنوعات العراق وفارس وغيرهما . فاتفق له وهو يعرض عليه بعض المنسوجات النسائية ، وكانت سلافة حاضرة لتختار نوعا منها ، ان وقع بصره عليها فأخذت بمجامع قلبه ، لكنه تجلد وتهيب ، وشعرت هي بما جال في خاطره ، وتجاهلت انه اصبح بعد تلك المقابلة يغتنــم الفرص لابلاغها ما يكنه فؤاده من الحب لها بهدايا يبعث بها اليها على أيـدي بعض الخصيان دون اية اشارة ، فيظهر ذلك منه مظهر الاكرام للملـك

الصالح لانها قيِّمة داره ورئيسة جواريه .

فلما توفي الملك الصالح ضعف شأن جواريه ، فتوسم سحبان بابا للنظر الى سلافة نظر المحب الطامع بالقرب ، فاحتال يوما ببضاعة حملها الى القصر كعادته ، فلقيه استاذ الدار ونساوما ، ولم تتأت له مشاهـدة سلافة ولا مخاطبتها ، وقد علمت هي بمجيئه وتجاهلت ، وفي خاطرها ان تراه ولكنها لم تكن تعرف سبيلا الى ذلك ، ولا حاجة لها اليه لانها لم تشعر بالميل اليه .

فلما علمت بما صارت اليه شجرة الدر في ذلك اليوم ، وانهـــم سيحتفلون في الغد بتوليتها ملكة ، وان ذلك انما جرى بسعي عز الدين أيبك ــ ولم تكن تخفي على سلافة علاقته الودية بشجرة الدر ــ هبت نيران الغيرة في قلبها ، وأصبحت تتقلب وتتعذب كأنها على قطع الجمر ، وأخذت تفكر في ايقاع الاذى بشجرة الدر ، لا لسبب غير الغيرة ، فانما لذتها ان ترى تلك النعمة قد زالت عنها . ذلك هو داء الحسد العضال ، وبين مرضاة من يفضل ان يشترك هو نفسه في الاذى الذي ينوي ايقاعه بمحسودة على ان يراه رافلا في نعمته .

ضاقت سلافة ذرعا بطول التفكير وهي جالسة في غرفتهـــا ، فأرادت التشاغل ببعض الشؤون ، فتنقبت والتفت بملاءة من الحرير ، وخرجت من قصر النساء من ممر يؤدي الى حديقة تابعة لذلك القصر فيها الاشجار والجداول والرياحين والازهار كان الملك الصالح قد تعود ان يقعد فيها صباحا . وجاءها احد خصيان القصر مسرعا يعدو وهو يقول : «ان الشيخ سحبان جاء بأنسجة جديدة» .

فلما سمعت اسمه أجفلت ، لكنها أحست بانفراج كربها قبل ان تفكر في كيفية ذلك ــ وهو تنبؤ نسائي مبني على مجرد الشعور بلا برهان . فان المرأة تأتيها الفكرة اولا ثم تفكر في برهانها ــ فالتفتت سلافة الى

الغلام وقالت : «اين هو ؟»

قال : «هو في فناء القصر ، وقد ذكرك بالتخصيص ، وقال ان بين اقمشته اشياء تسرك» .

فقالت : «لا ارى ان اعود الى هناك . دعه يدخل الى هذه الحديقة من بابها الخارجي لأرى بضاعته» . قالت ذلك وأصلحت من شأنها وتنقبت بطرف الملاءة ، وأصبح قلبها يخفق ، ولم تكن تشعر بشيء من ذلك في مقابلاته السابقة .

وبعد هنيهة دخل الغلام من باب الحديقة وهو يقول : «هذا الشيخ سحبان يا سيدتي» . ورجع .

وكانت جالسة على كرسي بين الازهار فالتفتت نحو الباب فرأت الشيخ سحبان كما كانت تراه قبلا بقلنسوته الفارسية وجبتـه السوداء ولحيته القصيرة الخفيفة وعينيه البراقتين ، لكنها تفرست فيه هذه المرة فرأت في وجهه معنى لم تلحظه من قبل . فلما دخل حياها فردت بمثـل تحيته ، وأشارت اليه ان يتقدم وقالت : «اين الاقمشة ؟»

فتقدم وقال : «انها لا تزال في القصر مع الجمـــــال ، فاذا أذنت باستجلابها الى هنا فعلت» .

قالت : «لا بأس ، دعها الان هناك .. تفضل اجلس» . وأشارت الى حجر منحوت كالكرسي ، فجلس عليه وهو يصلح قلنسوته ، فقالت له : «لم تكن عادتك اذا جئت بأقمشة او نحوها ان تطلب سلافة باسمها» .

قال : «وهل ساءك ذلك يا سيدتي ؟»

قالت : «كلا .. لكنني لم أفهم السبب لتغيير عادتك معي» .

قال : «غيرت عادتي جريا مع التغييرات الكثيرة التي انتابت اهل هذا القصر في هذا العام» .

فتصاعد الدم الى وجنتيها ، وبانت البغتة في عينيها ، وتذكرت ما هي

فيه فقالت : «صدقت ، ان التغيير كثير ــ رحم الله الملك الصالح ، انه كان حرزا لهذه الدولة ، فلما مضى اضطربت احوالها» . وظهرت في مآقيها دمعة اوشكت ان تسقط .

فقال سحبان : «نعم ، رحمه الله ؛ ولكن ما العمل ؟ هذا قضاء مبرم يا سيدتي ، والدنيا دول» . قالت : «أعلمت ماذا جرى ؟»

قال : «اذا كنت تعنين ما صارت اليه شجرة الدر فقد علمت» .

قالت : «نعم ، اياه أعني . وكيف تراه يا سحبان ؟»

فاستأنس بمناداتها له باسمه بلا لقب وقال : «ارى ؟ ماذا ارى ؟ ارى امرا أقل ما يقال فيه انه لم يسبق له مثيل في الاسلام» .

فابتسمت وقد أشرق وجهها ؛ وقالت : «أرأيت مثل هذه البدعة قط ؟» . قال : «لا . لكنني» . وبلع ريقه كأنه يحاذر ان يبدي رأيه .

فقالت بلهفة : «قل . ولكن ماذا ؟. قل» .

قال : «ولكن . كيف توصلت هذه الجارية الى هذا المنصب ؟ لا أدري » .

قالت : «ألا تعرف عز الدين ايبك التركماني امير الجيش ؟»

قال : «نعم أعرفه . قد فهمت مرادك يا سيدتي . نعم فهمت الآن . عرفت الفرق بين السيدة سلافة الكردية والمحظية شجرة الدر التركية» .

فتوسمت من عبارته ما يوصلها الى الموضوع الذي تريد الخوض فيه فقالت : «وما هو الفرق ؟»

قال : «الفرق ان هذه وفت بالامانة في حق مولاها . وان تلك اشركت سواه في حقه» .

فأظهرت انها تعارضه وقالت : «لا، لا تقل ذلك انها أم ولده خليل . لا . لا تقل ذلك» .

فأدرك سحبان انها تتظاهر بالاعتراض ، فقال : «قد قلت يا سيدتي ،

اني أتردد على هذا القصر منذ عدة أعوام ، وقد رأيت سلافة مـــرارا وعيناي شاخصة اليها ، وفي كل مرة أحاول ان أكسب منها لفتة فـــلا تفعل . ولم أر غيرها يحرص هذا الحرص . أستأذنك يا سيدتي في هذا التصريح . وأما سواك فمع كونها أم ولده فان علاقتها مع عز الدين أبيك مشهورة ، ومع ذلك فهي الان ملكة المسلمين ، ولا بد لكل منا ان يصدع بأمرها » .

فصاحت فيه : «انها لن تكون ملكة واذا صارت فالى أجل قصير» . ثم رأت انها قد تورطت بالتصريح بما في نفسها ، فتراجعت والتفتت الى ما يحيط بها ، وتشاغلت بزهرة قطفتها من شجرة الى جانبها وهي مطرقة وقد علت الحمرة محياها .

فتوسم سحبان في ذلك المنظر فرجا فقال بصوت منخفض : «يـا سيدتي لا ينبغي لنا ان نطيل الحديث بلا جدوى . اذا كان لا بد لامرأة من اهل هذا القصر ان تحكم فأنت أولى من سواك لانك ارقى درجة من سائر نسائه ، وأنت من عصبة الملك الصالح رحمه الله ، ولكن» .

فقطعت كلامه قائلة : «لا . لا أريد ان أحكم . ان النساء لم يخلقن للحكومة يا سحبان ، ولذلك قلت لك ان شجرة الدر لا ينبغي ان تبقى في السلطة طويلا ، والآن اقول لك لا ينبغي ان تبقى ابدا» . قالت ذلك وبان الغضب في عينيها .

وأدرك هو انها تستحثه على مساعدتها في هذا الامر فقال : «اذا كنت ترين فيّ مكانا لثقتك فاني رهين اشارتك . افصحي لي عما ترينه» . فغلب عليها الحياء ، والوردة في يدها ، فجعلت تتشاغل بنثر اوراقها بين اناملها كما يفعل المضطرب الافكار وهو لا يدري ، فابتدرها سحبان قائلا: «اذا كنت لم تفهمي مرادي بعد فاني أتجاسر وأفصح عما يكنه ضميري لك يا سيدة الملاح .. اني أسير هواك منذ عرفتك ، وكلما زدت اعراضا

عني ايام الملك الصالح ازددت اجلالا لاخلاقك الفاضلة . وأما الان وقد مضى ذلك الملك الى سبيله ، فهل ترين في سحبان ما يستحق التفاتك وثقتــك ؟ »

فازدادت حياء ، وتوردت وجنتاها ، وشعرت بخفقان قلبها ، وأوشكت ان تنسى الامر الذي كان شغلها الشاغل في ذلك الصباح . ثم التفتت الى ما حولها فلم تر غير الاشجار والرياحين ، ولم تجد ما تتشاغل به عن الجواب ريثما تعمل فكرتها . وأدرك سحبان ما دار في خلدها فتحفز كأنه يريد النهوض ، فمدت يدها نحوه وأشارت اليه ان يمكث . وظلت ساكتة وهي تعض شفتيها وتمسح جبينها وتصلح نقابها فقال لها : «دعيني أنصرف الان فربما كان وجودي معك سببا للقيل والقال» .

فنظرت اليه نظرة اخترقت أحشاءه وقالت : «وأي قيل وقال ؟ اني لا اخاف احدا ، وأما وجودك هنا فانه لازم لي» .

فهش لها وضحك كأنه نال امرا لم يكن يتوقع الحصول عليه وقال : «اذا كان وجودي هنا لازما لك فاني رهين امرك» .

★ ★ ★

اعتدلت سلافة في مقعدها والجد باد في عينيها ، ولو كشفت عــن وجهها لظهرت دلائل العزم والاصرار حول شفتيها ، وقالت : «هل انت صادق فيما تقول ؟»

قال : «جربي يا سيدتي . بعد ان تسمعيني كلمة منك يطمئن لهــــا قلبي . ألا ترين فيّ الرجل الذي يستحق رضاك ؟»

فأشارت برأسها وعينيها وقالت : «بلى ! والدليل على ذلك انــــي سأعرض عليك امرا خطيرا لا يجوز ان يطلع عليه احد على وجه الارض» وسكتت .

فقال : «تفضلي يا سيدتي» . قالت : «وسأكلفك بمهمة لا تخلو من الخطر» .

قال : «روحي فداك . لا أبالي ان اموت في سبيل رضاك» .

فقالت : «انت من اهل بغداد تسافر اليها كل عام ، أليس كذلك ؟»

قال : «أسافر اليها متى شئت» . قالت : «ولماذا لا تمكث هناك ؟»

قال : «لا بد من الجواب عن هذا السؤال ؟» . قالت : «نعم» .

قال : «ان هذه الجلسة التي سمح الزمان بها على قصرها جعلتني أشعر ان قلبينا متحدان من عهد بعيد . فاذني لي ان أخاطبك بجسارة وصراحة» . قالت : «هذا ما أريده منك» .

قال : «لا أقيم في بغداد لاني شيعي ، والخلفاء العباسيون يكرهون الشيعة ويطاردونهم ، ولاسيما في بغداد ، فانه لا تمضي سنة لا يقاسون نيها تعديا أو اضطهادا او نهبا او قتلا ، ففضلت الرحيل عن ذلك البلد ، وان كنت في غنى عن التجارة ، ولكنني جعلتها سبيلا للأسفار . واذا سافرت الى بغداد فلا أمكث فيها الا ريثما أبتاع البضاعة وأعود» .

قالت : «هل تعني ان الخليفة المستعصم الحالي يطارد الشيعة ؟»

قال : «اكثر الخلفاء العباسيين فعلوا ذلك ، والمستعصم هذا من أشدهم وطأة علينا ، فقد قاسينا في ايامه الامرين» . قال ذلك والغضب يتجلى في وجهه .

فأطرقت وبان التردد في عينيها وسكتت ، فقال : «مالي اراك ترددين؟ قولي ما يخطر لك» . قالت : «اخاف ان يكون في قولي تعب عليك» . قال : «لا لذة في الحب ان لم يرافقه التعب» .

ولما ذكر الحب اختلج قلبها في صدرها وقالت : «انت تطلب ذلك باسم الحب يا سحبان ؟» . قال : «اذا كنت تأذنين» .

قالت : «نعم . انظر يا سحبان . ان هذه الجارية التركية لا ينبغي

ان تبقى ملكة الا ريثما تصل انت الى بغداد وتعود منها» .

ففهم مرادها وقال : «لك علي ذلك . وهل تريدين ان أذهب بهذه المهمة من عند نفسي ام اكون رسولا منك ؟»

قالت : «بل تكون رسولا تحمل كتابا مني الى بغداد ، ولا يصل الكتاب حتى يأتي الجواب بخلعها لا محالة» .

قال : «لمن تريدين ان يسلم الكتاب ؟» . قالت : «سلمه الى قيّمة قصر النساء هناك . انها صديقتي ، ولي معها مودة . هل تفعل ذلك ؟»

فنهض وقال : «أفعله الساعة . هاتي الكتاب» . ومد يده الى منطقته واستل منها دواة مغروسة فيها واستخرج القلم منها ودفعه اليها وأخذ من جيبه ورقة بيضاء دفعها اليها فتناولت الورقة والقلم وهي تتفرس في وجه سحبان وهو ينظر في عينيها . بقيا لحظة على هذه الحال كأنهما يتفاهمان بالعيون . ثم قالت سلافة : «ان هذه هي المرة الاولى التي تخاطبنا فيها ، ألا تعد ذلك تسرعا مني ؟»

قال : «جسي قلبك .. فمن القلب الى القلب دليل . واذا كنت في ريب من صدق خدمتي اقسمت لك بما تريدين» . وهم ان يقسم ولكنها امسكت بيده وقالت : «لا حاجة الى اليمين» .

وكانت هذه هي المرة الاولى التي تلمس فيها يدها يده منذ تعارفا ، فأحس كلاهما بالقشعريرة وهي دليل التحاب ، ولا تحدث عند كل تلامس بين الجنسين ، وانما تقع بين اثنين في قلبيهما استعداد الى الاتحاد . او بالتعبير العلمي «بين كهربائيتهما تجاذب» ويزيد هذه القشعريرة ظهورا قلة الاختلاط بين الجنسين والمبالغة في التحجب ، ويلوح للباحث في نواميس الحب وظواهره ان اسبابه تقوى او تضعف على حسب الامزجة والاشخاص ، او كان الواحد متمم للآخر ، فاذا التقى اثنان من هذا النوع شعرا بالتجاذب لاول مرة على ان للجمال المادي

والمعنوي قواعد أجمع الناس عليها ، يغلب في اصحابها ان يلفتوا أنظار الناس ويجتذبوا قلوبهم •

فلما أحست سلافة بتلك الرعشة اتخذتها دليلا على صدق مـــودة سحبان ، وتناولت الورقة وأخذت تكتب، وكانت بارعة في الخط والانشاء لان السلاطين كانت لهم عناية في تعليم الجواري الكتابة واللغة والادب• ولما فرغت من الكتابة اقفلت الكتاب ودفعته اليه وقالت : «هذا سري قد عهدت به اليك • اذا أفلحت فقد برهنت لي على ما تقول» •

فتناوله وقال : «أستودعك الله» • ومشى وهو يلتفت اليها حتى خرج من الحديقة ، وظلت هي بعده واقفة تفكر فيما فعلته ، فخالج ذهنها ندم على تسرعها ، لكنها راجعت ما رأته وشاهدته منه ، وتذكرت تاريخ معرفتها به ، فلم تجد ما يوجب الحذر •

- ٤ -

اول ملكة للمسلمين

اصبحت القاهرة في اليوم التالي وأهلها في هرج ، والناس يزحم بعضهم بعضا نحو القلعة ، بين راكب وماش ، رجالا ونساء • حتـــى اصبحت ساحة الرميلة تحت القلعة غاصة بالناس من كل الطبقات ، وقد اختلط بهم الباعة يحملون انواع الكعك والفاكهة والثمار والمملحـــات والحلوى والمأكولات الجافة • وبينهم حملـــة الودع وكشاف البخت وفاتحو المندل ، ينادي كل واحد على بضاعته على اختلاف الالحـــان

وطبقت الاصوات ، وقد علت ضوضاء الناس وأصوات الحيوان •

ولو اشرفت على الرميلة من سور القلعة لرأيت الساحة بقعا ، يشغل كل بقعة جماعة متشابهون لباسا وشكلا ، اكثرهم قاعد القرفصاء ، يلهو الواحد منهم بشيء يمضغه او عود ينكت به الارض او اداة يلاعب بها اصابعه • وهناك جماعات التفت على رجل يلاعب دبا او قردا ، ثـم يدور عليهم بدفه يجمع ما يجودون به من الدوانق ، وجماعات هـدأ جوهم لاشتغالهم بحديث يقصه عليهم شيخ منهم يبذل جهده في اجتذاب قلوبهم ونيل اعجابهم ، وهم يتطاولون بأعناقهم نحوه ، وقد اخذهـم الاستغراب •

ولو أتيح لك حضور تلك المجالس لرأيت عجبا وأخذتك الدهشة من اخلاق العامة وسرعة تصديقهم للغرائب ، لانك قد تسمع حديثا انت أعلم الناس به فتجده تشوه واضطرب حتى انقلب الى غير ما تعرفه ، وقـد تنكره وتظنه حديثا اخر • ويزداد تحريفهم للاحاديث بنسبة ما تحويه من الغرابة عن مألوفهم ، فما ظنك في موضوع ذلك اليوم ، وهو تنصيب امرأة ملكة على المسلمين ، مما لم يسبق له مثيل في تاريخهم • فتضاربت اقوالهم في ذلك ، واخترعوا الاسباب الباعثة عليه ، وافترضوا الاسرار ، وتكهنوا بمصير هذه الحال ، وزعم بعضهم انهم صاروا في آخر الزمان ، وسوف تنقضي الدنيا ، لان ذلك من دلائل الفناء •

وبينما هم في ذلك اذ سمعوا نفخ الابواق وقرع الطبول ، ثم رأوا موكب أمراء المماليك البحريين متوجها نحو القلعة وفي مقدمتـه كبراء الفرسان بالملابس المذهبة تتلألأ في شعاع الشمس حتى يكاد بريقها يذهب بالابصار ، وبعدهم هودج شجرة الدر تحمله البغال وقد تجلل بالحرير المزركش ، وأحاطت به الفرسان في أزهى الملابس وأجملها وفيهم حملة الاعلام ، ووراءهم كوكبة من الفرسان اصحاب المزاريق ثم كوكبة من

حملة الرماح . ووراءهم جماهير الناس مشاة على أقدامهم يموجـــون كالبحر الزاخر ، وفيهم من تبطل وأوقف عمله لمشاهدة موكب الملكة ، وهو لا يرجو شيئا من وراء تلك الخسائر ، وانما يساق العامة الى ذلك بفطرتهم الساذجة وميلهم الطبيعي الى مشاهدة الغرائب ، فهم يؤخذون بالظواهر ويتبعون كل ناعق . ولذلك كان اجماع العامة على امر ما لا يدل على صوابه .

وصل الموكب الى باب القلعة الكبير المواجه للقاهرة ، ويقال له الباب المدرج ، وكانت طائفة من الجند قد وقفت هناك بالسلاح لتمنع الناس من الدخول . وللقلعة باب اخر نحو القرافة أقفلوه في ذلك اليوم لئلا تتزاحم الاقدام في ساحة القلعة ، وهي ساحة كبيرة في وسط القلعـــة تنتهي بمصطبة وراءها باب كبير هو الباب الداخلي المؤدي الى الابنيـة الخاصة بسكنى السلطان والامراء والاجناد ، وفيها الجامع والايوان .

دخل الموكب القلعة من بابها المدرج ، وظل العامة خارجها يكتفون بما يسمعونه من قرع الطبول ونفخ الابواق . وقطع الموكب الساحـــة حتى وصل الى الباب الداخلي المذكور ففتحوه ، ولم يأذنوا لغير الخاصة بدخوله ، ولاسيما الامراء وأرباب المناصب ونحوهم ، وخلفوا فـــي الساحة جمعا من الخاصة اكتفوا بأنهم امتازوا عن سائر العامة بدخـــول القلعة .

ودخل الموكب من ذلك الباب الى ممر فسيح تحف به الابنية وهناك ترجل الفرسان ، واعتنى جماعة بشجرة الدر فأنزلوها عن الهودج ، وبينهم وبين الايوان الكبير ممرات وأبواب لا بد من اجتيازها ، وكانوا قـد فرشوها بالسجاد وعلقوا على ابوابها الرياحين والاعلام ، ومشى عز الدين أيبك وسائر الامراء ــ وهم بملابسهم الفاخرة ــ بين يدي شجرة الدر، وهي في ذلك اليوم في ابهى ما يكون من اللباس . وكانوا قد أعدوا

لها قبة من الحرير المطرز قائمة على اربعة أعمدة يحملها نفر من القواد ، وقد أرخيت ستائرها • وشجرة الدر في داخلها ، ومعها جاريتها شوكار وبعض الوصيفات •

* * *

لم يصل الى الايوان الكبير الا الخاصة وكبار الموظفين وهم اصحاب المطامع وطلاب السيادة ، يسخرون العامة لاغراضهم ويسوقونهم كالانعام لا يدرون مصيرهم ، وربما اكتسبوا رضاهم بأكلة يطعمونهم اياها او بصلاة يتلونها بين أيديهم ، او دعاء لولي او قديس يعرفون انهم يعتقدون كرامته •

وظل اصحاب القبة سائرين حتى وصلوا الى صدر الايوان ، وكانوا قد نقلوا اليه سرير السلطنة الذهبي ، فجعلوا القبة فوق السرير وأرخوا ستائرها حوله فقعدت شجرة الدر على السرير وبين يديها شوكار والوصائف يأتمرن بأمرها ولا يراها احد من الحضور • ثم دخل قاضي القضاة فقعد الى يمين القبة ، ووراءه صاحب بيت المال وناظر الحسبة ، والى يساره كاتب السر وغيره من كبار أرباب المناصب وذوي السن وأمراء المشورة ، وجلس بين يدي القبة في وسط الايوان الامير عز الدين أيبك امير الجند ، وكبار أمراء المماليك وبينهم ركن الدين بيبرس • ووراء القبة والسرير صفان من حملة السلاح ، ووراءهم الحجاب ونحوهم، وأتوا في جملة ذلك بجماعة من اسرى الافرنج عليهم البسة الاسرى مبالغة في الاعتزاز •

وبعد ان استقر بهم الجلوس على هذه الصورة وقف عز الدين أيبك ووجه خطابه الى الجمع وقال : «ايها الامراء والقواد • لا يخفى عليكم ما اصاب الملك المعظم طوران شاه • انه اساء السيرة وأراد التنكيل بجند

هذا البلد البحريين الذين عرفتم بلاءهم في زمن الملك الصالح رحمه الله في حرب الافرنج وغيرهم ، فوقع القضاء عليه ، ولما خلا كرسي السلطنة ممن يسوسها لم نجد من هو أولى بها من اصحاب الحق فيها الا مولاتنا الصالحة شجرة الدر والدة خليل وصاحبة الملك الصالح لما نعلمه من ثقة مولانا المرحوم بها وهي أم ولده ، فأجمع رأي الامراء والنواب والقضاة على اختيارها ملكة تتولى شؤون الدولة بمساعدتهم . وقد تعهد اصحاب السيوف بطاعتها لاحقاق الحق وحماية بيضة الدين . ونحن الان نحتفل بتنصيبها ، وسندعو لها على المنابر بعد مولانا امير المؤمنين المستعصم بالله . وسننقش اسمها على الدنانير والدراهم فادعوا لامير المؤمنين» .

فضج الجميع بالدعاء للخليفة وهم وقوف ، ثم تقدم قاضي القضاة فدعا لشجرة الدر قائلا : «واحفظ اللهم ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية صاحبة السلطان الملك الصالح» .

فقال عز الدين ايبك : «وقد عهدت الي في تدبير المملكة باسمها ، وولت الامير ركن الدين بيبرس الداوودارية الخاصة . وأمرتني ان اثبت أصحاب المناصب الموالين لنا في مناصبهم من اصحاب الاقلام وأصحاب السيوف» . ثم اشار الى صاحب الستر الواقف بجانب القبة فأزاح الستر ، فبان داخل القبة فاذا هي مبطنة بأطلس اصفر مزركش ، وفي صدرها شجرة الدر جالسة على السرير قد ارخت النقاب وعلى رأسها العصائب السلطانية وهي صفر عليها ألقاب المملكة مطرزة بالذهب .

فعاد الناس الى الدعاء لها ، ثم أرخوا الستر وعاد عز الدين الى الكلام فقال : «وعما قليل نحتفل بقراءة المرسوم الذي سيرد علينا من امير المؤمنين المستعصم بالله يؤيد سلطنة مولاتنا حفظها الله» .

وكان الناس في اثناء الاحتفال سكوتا كأن على رؤوسهم الطير ، وقد اخذتهم الدهشة لانهم لم يسمعوا بمثل هذه الولاية ، وفيهم الغاضب

والعاتب والمعترض ولكن لم يجسر واحد منهم على الكلام لعلمهم ان هذه السلطنة انما كانت بتواطؤ المماليك البحريين اصحاب القول فـــي ذلك العهد .

وقبل الفراغ من الاحتفال اشار عز الدين الى بعض الوقوف مـــن الداودارية فمضى وعاد ومعه الاطباق عليها صرر النقود ، فأخـــذوا يوزعونها على الحضور وعلى كل صرة اسم صاحبها .

ولما هم الحضور بالانصراف وقف عز الدين ايبك وقال : «ايهـــا الامراء : ان مولاتنـــا ملكة المسلمين اقتضت ارادتها ان تنتقـــل دار السلطنة من جزيرة الروضة الى هذه القلعة ، وستكون هذه القلعة مقر أرباب المناصب بدلا من قلعة الملك الصالح في الروضـــة ، لان السبب الذي من اجله جعلها الملك المرحوم كرسيا للسلطنة قد زال» .

فكان لهذا التغيير وقع حسن عند بعض السامعين ووقع سيء عند آخرين ، ولكن لم يجسر واحد على ابداء رأي او ملاحظـــة . وانفضت الحفلة وانصرف كل الى مكانه ، وانتقلت شجرة الدر الـــى قصر خاص بالسلطنة هناك . وأخذوا في نقل الرياش وغيره من جزيرة الروضة ، ولم تعد تلك الجزيرة كرسيا للسلطنة من ذلك الحين ، وأخذوا فـــي تعريتها من زخرفها ونقوشها ولاسيما لما صارت السلطنة الى عز الدين ايبك فانه أمر بهدمها ونقل ما كان فيها من الاعمـــدة والنوافذ والسقف والاخشاب لبناء مدرسة باسمه في القاهرة .

وكانت شنوكار في اثناء الاحتفال مع شجرة الدر في الهودج كمـــا تقدم . فلما رفع الستر الزوت في مكان ترى الحضور منه ولا يرونها ، وكان نظرها لا يتحول عن ركن الدين وهو بلباسه الرسمي ، على رأسه القلنسوة الجندية ولباسه مزركش بالقصب وقد زانه شبابه . وسرها على الخصوص ما سمعت من انه صار داودارا لسيدتها لعلمها انه اصبـــح

اقرب اليها اذ يكثر تردده الى قصر الملكة لقضاء مهام منصبه ، فخفق قلبها فرحا وتحققت قرب السعادة لانها ستكون زوجة لداودار السلطنة .

* * *

انتقلت شجرة الدر بعد انقضاء الاحتفال الى قصر السلطنة ، وقـــد أعدوا لها فيه غرفة فرشوها بأحسن الرياش . ودخلت الغرفة يحيط بهـا الجواري والوصائف وفي مقدمتهن شوكار فأخذن في تبديل ملابسها ، ثم أمرت الخدم بالانصراف ، فلما خلت بنفسها اخذت تفكر فيما صارت اليه مما لم تكن تحلم به في صباها ، وتذكرت صباها وكيف كانت تنظر الى السلاطين والملوك ، وما كانت تراه بينها وبينهم من المسافـــات البعيدة ، وكيف اصبحت اليوم ملكة المسلمين تطأطـــىء لها الرؤوس وتعنو لها الرقاب . فلما تصورت ذلك انشرح صدرها وانبسطت نفسها ، لكنها ما لبثت ان فكرت فيما يعتور ذلك المنصب من المشاق ، وما في مصر يومئذ من المشاكل والحروب مع الصليبيين ، عدا الاحزاب المختلفة بين رجال الدولة والجند ، فانقبضت نفسها .. لكنها لما تذكرت عز الدين مدبر المملكة ومن معه من الامراء الذين يأخذون بناصرها للعصبية او للعطاء ، هان الامر عليها ، وان بقي الانقباض ظاهرا في وجهها .

وبينما هي في ذلك اذ دخلت عليها جاريتها شوكار والفرح يتجلى في وجهها وأكبت على يد سيدتها تقبلها وهي تقول : «الحمد لله على نعمه يا سيدتي .. انت ملكة المسلمين .. ألم اقل لك عندما رأيتك على ذلك السرير انه لائق بك ؟. مالي اراك منقبضة النفس ؟. هل ساءك مجيئي الان ؟ هل تأمرين بانصرافي ؟»

فطوقت عنقها بيديها وضمتها الى صدرها وقبلتها وهي تقول : «كيف تنصرفين يا شوكار ؟!. لا . لا . لست منقبضة من شيء . اني شاعرة

بالسعادة التي انا فيها والحمد لله • ولكنني أفكر في المهام الكثيرة التي بين يدي • كنت قبل الان أتمنى ان يتم هذا الامر لي ، فلما تم ذهبت شهوة ذلك الميل ، وتبين لي المنصب بما يحف به من المشاكل والمسؤوليات » •

فأرادت شوكار مداعبتها لتشغلها عن تلك الهواجس فقالت وهي تضحك : «اذا كنت قد كرهت هذا المنصب فأنا آخذه منك وأخفف عنك مهامه » •

فابتسمت شجرة الدر وقبلت شوكار ثانية وقالت : «لم أكره هذا المنصب يا عزيزتي ، فاني لم أذق منه شيئا بعد ، لكن لا ينبغي لي ان أتغاضى عما يحيط به من اسباب العناء» •

قالت : «ان هذه الاسباب لا بد منها • وهذا مولانا عز الدين مدبر المملكة يحمل عنك كل أثقالها ، وهذا ركن الدين • انه بطل» • ولما ذكرته خجلت وأطرقت حياء •

فضحكت شجرة الدر من قولها ومدت يدها الى جبينها تمسحه وقالت : «ان ركن الدين بطل • واذا شئت ان تري ذلك وتختبريه فاني سأكلفه بمهمة ذات بال لا ارى بين الامراء من أثق به وأعول عليه في قضائها غيره • هل تأذنين في ذلك ؟»

فخجلت شوكار من هذا الاستئذان وقالت : «من اكون انا ليؤخذ الاذن مني ؟ ألسنا جميعا عبيدا نصدع بالامر ؟»

فلما سمعت هذا التعبير ــ وهو مما يقال للملوك ــ عظم الامر عندها ، لكنها كانت عاقلة تنظر في الامور الى حقائقها ، ولا يهمها الزخارف فقالت : «كلنا عبيد يا شوكار ، وانما سألتك لان ركن الدين يهمك الان • أليس كذلك ؟»

فقالت وقد توردت وجنتاها من الخجل : «هبي انه لي ، فأنا لم اكن

لأحصل عليه لولاك» .

قالت : «ليس هذا هو المهم في الامر يا شوكار ، ولكنني احب قبل ان يعقد له عليك ان يأتي عملا يوجب له الفخر على أقرانه ، فاذا تزوجك بعد ذلك زاد افتخارك به» .

قالت : «الامر لك في كل حال» . لكنها في الحقيقة لم يسرها هذا الامر ، لان ركن الدين من الامراء المعروفين ، واذا لم يكن بد من زيادة اسباب شهرته فليكن ذلك بعد العقد .. وقد اصبحت لفرط غبطتها بذلك النصيب تخاف ان يؤخذ منها ، لكنها لم تستطع اظهار غير الرضا . اما شجرة الدر فانها لحظت ترددها وما خامر ذهنها من هذا الامر فتنهدت ونهضت وقالت : «اتبعيني يا شوكار» .

فتبعتها وهي تفكر في غرضها من هذا النهوض ، فاذا هي قد مشت في ممر الى غرفتها الخاصة . وهي غرفة أعدوها لها بأثمن الرياش ، فدخلت واستلقت على سريرها بلا كلفة وهي تقول : «آه يا شوكار ، لقد تعبت من التفكير ، وشعرت بثقل العمل الذي اخذته على عاتقي .. اطربيني بصوتك الرخيم لعلي أروح عن النفس قليلا» .

فسرها هذا الاقتراح ، وأمرت بعض الغلمان باحضار العود ، فتناولته وأخذت تضرب عليه باتقان ، وتغني اغاني تعلم ان شجرة الدر تطرب لها ، فآنست منها استحسانا كثيرا وهي تضحك لها وتعجب بها ، وشوكار تائهة الفكر في ركن الدين ، وتود لو يكون حاضرا لتراه لعلها تتحقق منه شيئا . لانها لم تملك فرصة تسمع منه فيها قوله انه يحبها ، وأحست هي انها احبته وخافت ألا يكون قد بادلها حبا بحب ، وبان انقباض قلبها في وجهها ، وظهر أثر ذلك في ضربها وغنائها ، فقالت لها شجرة الدر : «ما بالك يا شوكار ؟» فانتبهت لنفسها وقالت : «لا شيء يا سيدتي» . ثم ابتسمت لتخفي ما بها وقالت : «شكرا يا مولاتي .. اني محاطة بكل

اسباب السعادة والحمد لله» . وسكتت وفي سكوتها شبه انكار .

فلحظت شجرة الدر شيئا مما اعترى جاريتها شوكار فقالت : «لا شيء يا سيدتي» . ثم ابتسمت لتخفي ما بها وقالت : «شكرا خاطرك شيئا تكتمينه . هل ساءك ما قلته عن ركن الدين من امر السفر ؟»

قالت بلهفة : «كلا يا سيدتي ، ان ما تأمرين به لا يكون فيه غير اسباب الراحة والسعادة ولكن» . وأطرقت حياء . .

قالت : «ولكن ماذا ؟» ان هذا الاطراق يعجبني من الفتاة في مثل هذه الحال ، يظهر انك تشتاقين رؤية ركن الدين قبل سفره . ولعلك تحبين ان تعرفي رأيه فيك . اني سأدعوه الساعة يجالسنا بحجة عزمي على تكليفه بتلك المهمة » . وصفقت فجاء بعض الغلمان فأمرته ان يدعو الداوادار ركن الدين ، وعادت الى مشاغلة شوكار فقالت لها : «لا يمضي كثير حتى يأتي ركن الدين .. غني شيئا من عندك» .

فأخذت تغني ، وقد فرحت بقرب قدوم ركن الدين ، لكنها أحست بخفقان قلبها فتشاغلت بالضرب والغناء .

وبعد قليل جاء الغلام يقول : «ان الامير ركن الدين بالباب» . فقالت: «يدخل» . وأشارت الى شوكار ان تسكت .

فدخل وألقى التحية ، فابتسمت له ، وقد القت النقاب بعض الشيء على رأسها ، وفعلت شوكار مثل فعلها . وقالت شجرة الدر : «مرحبا بالبطل ركن الدين .. تفضل» . وأشارت الى كرسي بين يديها ، فجلس عليه وهو يتأدب في نظراته ويفكر في سبب تلك الدعوة ، فقالت شجرة الدر : «أتعلم يا ركن الدين لماذا دعوتك ؟» . قال : «لا يا سيدتي . وانما أعلم اني سيف من أسياف مولاتي ترمي بي حيثما شاءت» . فقالت : «بارك الله فيك . لكن هل تفعل ما تفعله اكراما لي وحدي ؟»

فلما سمع قولها علم انها تداعبه وتشير الى علاقته المستقبلة بشوكار،

فسره انها بادرته بالحديث فقال : «نعم يا سيدتي ، لانك انت صاحبة الامر والنهي من كل وجه» . والتفت الى شوكار وابتسم .

فخجلت شوكار وبان الخجل في عينيها وأطرقت ، فقالت شجرة الدر : «ارى شوكار قد خجلت ، ويعجبني الحياء منها ، لكنني احب ان تسمعنا لحنا اخر يشاركنا ركن الدين في سماعه . ما رأيك ؟»

فقال : «اني رهينة امرك يا سيدتي» . قالت : «أسمعينا او اسمعيه، لعله يسمعنا ما يطرب من غير لحن او نغم» .

فتناولت شوكار العود وأخذت تضرب عليه وتغني حتى اخـــذت بمجامع قلب ركن الدين ، فطرب طربا كثيرا وهاجت عواطفه ، وكان قد سمع عن صوت شوكار ولم يسمعه . أما وقد سمعه فازداد اعجابا به وتعلقا بزواجها ، وعلم مقدار النعمة التي وهبته اياها شجرة الدر لمـــا وعدته بتلك الغادة المطربة .

وكانت شوكار تضرب وتغني وعيناها تراقبان حركات ركن الدين ، فرأته قد هاجت أشجانه وبان الطرب والهيام في وجهه ، ولولا تهيبه من وجود الملكة لقال اشياء كثيرة . ولحظت شجرة الدر ايضا ذلك وسرها ما لحظته ، لانها كانت تريد ان تقبض على قلب ركن الدين لتستخدمه فيما تريد من الامور ، اذ اصبحت ــ بعد ان صارت ملكة ــ تخاف من الدسائس والمناظرين من الداخل والخارج . وقد توسمت في ركن الدين همة عالية وبسالة فأرادت ان تملك قلبه ليكون طوع ارادتها فيما قـــد تعتزم فعله ، لانها كانت سيئة الظن فيمن حولها حتى عز الدين ايبـــك صديقها ، كانت ترى انه غير امين لها وانه انما يظهر الطاعة موقتا .

فلما رأت هيام ركن الدين بشوكار قالت له «هل أعجبك صوتها يا ركن الدين ؟»

فتحرك احتفاء بذلك الاستفهام وقال : «تسألينني عن صوتها ؟ ألا

يكفي انه يعجب ملكة المسلمين ؟ ومن لا يطرب لهذا الصوت الرخيم ؟»

قالت وهي تضحك : «ارجو ألا يكون الصوت وحـــده الـذي اطربك» . فالتفت خلسة الى شوكار وسكت .

فقالت شجرة الدر : «اراك تستشيرها في ذلك ، هل تشك في انها تعجب بك ؟»

قال : «اذا كانت ترى فيّ شيئا حسنا فانما تراه بناء على رضا مولاتي الملكة عني» .

قالت : «لا أنكر اني وسيلة التعارف بينكما ، لكنها تسمع عن البطل ركن الدين من قبل ، ويكفي ما تسمعه مني عن بسالتك . ويعجبني منها انها لا يعجبها غير رجال الحرب المستبسلين في الدفاع عن الدولة . ولذلك سألتك حين دخولك هل تعلم لماذا دعوتك فأجبت جوابا وقع من نفسي موقعا حسنا ، ولا شك انه وقع مثل هذا الموقع عند شوكار . وقد لحظت ذلك في عينيها ، وبدلا من ان أتم حديثي معك طلبت اليها ان تسمعك صوتها وقد فعلت .. واني في غاية السرور من تقـــارب قلبيكما . فلنعد الى ما كنا فيه . قل لي هل تعلم لماذا دعوتك ، ونحن فيما نحن فيه من امر الافرنج في دمياط وحولها ؟»

قال : «انك تريدين ان آكفيك امرهم ، وهذا هين» .

قالت : «سيعهد اليك الامر عز الدين غدا في ذلك ، ولكنني احببت ان أطمئنك ان هذا العمل يرضي شوكار ، وانها تحب الشجعان البواسل. ومن الجهة الاخرى لحظت من شوكار انها» . وضحكت وهي تنظر اليها ثم قالت : «لحظت انها تحب ان تتحقق رأي ركن الدين فيها» .

فغلب الحياء على ركن الدين وقال : «هل لركن الدين رأي بعد أمر مولاتنا الملكة ؟»

قالت : «هي لا تريد ان يكون حبك لها طوعا لامر الملكة» .

قال : «ان امر الملكة كان فاتحة الكلام ، ولكنني احبها الان طوعا لامر قلبي . ويكفيني ان يكون عندها نصف ما عندي» . قال ذلك ونظر الى شوكار فأطرقت خجلا ، وتكلمت عيناها بما يعجز اللسان عـــــن الافصاح به .

★ ★ ★

لما وثقت شجرة الدر من ترابط قلبي ركن الدين وشوكار ، التفتت اليه قائلة : «والآن يا ركن الدين كن رجلا مثل عهدي فيك . ان نجاحك في هذه المهمة ضامن لوصولك الى الرتب الرفيعة . سر بحراسة الله ، ولكن قبل ذهابك صافح شوكار وضع يدك في يدها . اني أسمــــح لكما بذلك » .

فتقدم ركن الدين ومد يده ومدت شوكار يدها وتصافحا ، وهي اول مرة تلامست فيها يداهما ، فكأنهما تفاهما وتعاقدا . ثم انحنى ركن الدين امام شجرة الدر وودعها وخرج ، فأحست شوكار كأن قلبها قد خلع من صدرها وسار معه .

فابتدرتها شجرة الدر قائلة : «ألم اقل لك انه يتفانى في حبك ، وسيزداد حبك له عندما ترينه عاد ظافرا من ساحة الحرب . انه سيناضل ويحارب باسمك .. فأهنئك يا عزيزتي بهذا البطل» .

فأطرقت وقلبها يخفق طربا ، ثم أذنت لها بالانصراف لتتفرغ لمهــام الدولة . وما كادت تخرج من عندها حتى جاءها الحاجب ينبئها بقدوم عز الدين نائب السلطنة فقالت للحاجب : «قل له ينتظرني في الايوان» .

وكان عز الدين قد جاء الى الايوان لملاقاة حبيبته على حدة ليهنئها بما نالته ، وهو يتوقع ان تكثر من الثناء عليه عند المقابلة على انفراد لانه كان السبب في نيلها ذلك المنصب الذي لولاه لم تكن لتناله فلما لــــم

يجدها هناك . قصد اليها في غرفتها ، ولكنه رأى ركن الدين خارجا من عندها ، وعلى وجهه امارات الهيام ، ودهش ركن الدين عند مشاهدته وحياه وقد ظهرت البغتة في كلامه . أما عز الدين فان الشك تسرب الى فكره ، وشبت الغيرة في قلبه فلم يزد على رد التحية ، وعزم على استطلاع سبب وجود ركن الدين هناك حالما يلاقي شجرة الدر في غرفتها .

فلما عاد اليه الحاجب بأن ينتظر شجرة الدر في الايــــوان زادت وحشته وعظمت غيرته وخيل اليه ان شجرة الدر غلبت الكبرياء على قلبها حتى اصبحت تستنكف من ملاقاة صديقها وسبب نسمتها في غرفتها . لكنه اخذ يغالب شكوكه وتجلد وذهب الى الايوان في انتظارها . واتفق انها تباطأت في الوصول ريثما بدلت ثيابها ، ثم جاءت وهي تجر ذيل ثوبها الملكي والوصيفات بين يديها . فلما دخلت وقف لها ورحب بهـا فحيته وأشارت اليه ان يجلس وصرفت الخدم .

فلما رآها تهش له تغير ما في نفسه وأغضى عما سبق الى ذهنه وقال: «جئت لأهنىء مولاتي بمنصبها ، وأرجو ان تتأيد دولتها» .

فابتسمت ابتسامة الشكر وقالت : «اني لا انسى فضلك في ذلك يا عز الدين ، ولا بد لي من الاتكال عليك في فض المشاكل التي تنتـاب الدولة » .

قال : «اني رهين الاشارة يا سيدتي» .

قالت : «انت تعلم ما يحيط بنا من الحساد وما يهددنا من الاعداء ولاسيما الافرنج فانهم لا ينامون عن مناوأتنا» .

قال : «لا يشغلك شاغل من امر هؤلاء فاني مدبر امرهم» .

قالت : «بارك الله فيك .. غير اني رأيت ركن الدين يليق بهـــذا العمل . وقد سمعتك تثني على بسالته . وقد اتفق اني رأيته اليوم وذكرت امر الافرنج بين يديه فرأيت منه ارتياحا الى الخروج اليهم غير اني احببت

ان يكون ذلك برأيك» .

فلم يعجبه قولها انها رأته اليوم ، وكيف تراه ان لم يكن ذلك على موعد بينهما ؟. وكيف يكون ذلك في غرفتها لا في الايوان ؟. لكنه تجاهل وقال : «ان ركن الدين أهل لثقتك . لا بأس من ان يعهد اليه في ذلك بأمر منك رأسا» .

فمدت يدها الى جيبها واستخرجت ورقة ملفوفة وقالت : «اليك ما كتبته له في ذلك» .

فتناول الورقة وفضها فاذا هي امر صادر الى ركن الدين هذا نصه:

«من ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجليل ، والدة المرحوم خليل زوجة الملك الصالح رحمه الله الى القائد الباسل الامير ركن الدين بيبرس البندقداري . نظرا لثقتنا الكبرى ببسالتك وعلو همتك ؛ ولما ظهر من بلائك في دفع الافرنج عن بلادنا ، ولما كان هؤلاء الملاعين لا يزالون يناوئوننا في جهات دمياط ، عهدنا اليك بعد مشورة مدبر مملكتنا الامير عز الدين أيبك ان تخرج اليهم برجالك الذين تختارهم وتكفينا امرهم . وعليك السلام ورحمة الله وبركاته .

«والدة خليل»

فلما قرأ الامر أعجبه قولها انها فعلت ذلك بمشورته ، فطوى الكتاب وبعث به الى ركن الدين ، وعاد الى محادثتها في شؤون الدولة ، وهي تبذل جهدها في مجاملته ليطمئن قلبه لها ، ولا يزال الشك يخامره — والمحب كثير الشكوك — لكنه كان يطرد تلك الشكوك من خاطره ، فلما انصرف من عندها وخلا الى نفسه عادت اليه الشكوك .

اما ركن الدين فانه لما جاءه كتاب شجرة الدر بادر الى تنفيذه ، وقد اتسعت آماله فيما تطمح اليه نفسه من الارتقاء في مناصب الدولة ، وهو

يرى نفسه اهلا لأكبر المناصب . فانه كان كبير المطامع عالي الهمة ، والدولة في اضطراب ، وقد خطر له ان الدولة التي تستطيع امرأة ان تصير ملكة فيها لا يعجز فيها عن نيل ذلك مثله ، ولكنه يعلم ان مطلبه عسير وعز الدين امامه ، وهو صاحب النفوذ الاقوى عند الجند وعند شجرة الدر نفسها . على ان ما آنسه من ملاطفة في ذلك اليوم بعث في نفسه بعض الشجاعة ، فكتم مطامعه هذه عن الجميع لعلمه بما يعتور ذلك من الخطر . ومع ذلك فان حبه شوكار هون عليه كل عسير وصار من اقوى الدوافع له على طلب العلا .

اما شوكار فانها اصبحت بعد سفر ركن الدين الى دمياط شديدة الميل الى سماع أخبار الحرب واستطلاع ما جرى ، وهي تصبر نفسها ، وكلما طال انتظارها ازدادت شوقا ولهفة . وأما هو فكان يغتنم قدوم بعض خاصته للسؤال عنها وتتبع أحوالها .

ومضى على ذلك ثلاثة اشهر لم يأت الى القاهرة خلالها الا مرتين ، فاجتمع فيهما بشوكار على علم شجرة الدر وسمع غناءها . وفي المرة الثانية تواعدا على العقد بعد رجوعه ، فمكثت تنتظر ذلك بفارغ الصبر كأن قلبها دلها على سوء سيصيبها .

★ ★ ★

مشى عز الدين بعد خروجه من الايوان الى المنزل الخاص به في القلعة ، ودخل غرفة فيه تطل على القاهرة ، وقد تعمد الخلوة ليفكر في تلك الظنون التي غزت قلبه ، وهو لا يزال في اول هذا الدور الجديد، وجلس على مقعد بجوار النافذة ، فوقع بصره على القاهرة وما وراءها من الفسطاط الى النيل وفيه جزيرة الروضة ، فتذكر الملك الصالح ، وأيامه هناك مع شجرة الدر ، فمر في مخيلته تاريخ علاقته بها ، فلم

يجد ما يوجب شكا فعاد الى حسن الظن .

وبينما هو في ذلك اذ جاءه غلام ينبئه بمجيء امرأة منقبة تريد مقابلته، فسأل الغلام من هي تلك المرأة فقال : «لم استطع تمييزها لانها منقبة وقد غطت وجهها» .

فنهض وهو يفكر فيمن عساها ان تكون ، وسار الى غرفة خاصة بمقابلة القادمين ، فوجد تلك المرأة جالسة على المقعد وقد التفت بملاءة ثمينة ، ويدل مجمل حالها على انها لم تأت لطلب صدقة ، فدخل وحياها فردت التحية وهي تتحفز للنهوض ، فأشار اليها ان تقعد فقعدت ، وقعد هو بين يديها وقال لها : «من انت وماذا تريدين ؟»

فأزاحت النقاب عن وجهها ولم تجب ، فاذا هي سلافة قيّمة قصور الملك الصالح ، وكان معجبا بجمالها ، وله معها مواقف كانت هي الظافرة فيها نظرا لما كان لها من المنزلة عند الملك الصالح ، وكان يحترمها من اجل ذلك ، ولم يكن يتوقع ان يراها آتية اليه على هذه الصورة . فحالما كشفت وجهها بادر الى الترحيب بها فقالت : «لم آت اليك لضيافة ، ولكنني جئت ألتمس منك شيئا انت صاحب الامر فيه» .

فقال : «وما هو ؟» . قالت : «علمت اليوم ان أمور الدولة صارت الى صديقتك شجرة الدر ، وأنا كما تعلم قيّمة قصور الملك الصالح ، والملك الصالح مات ، وقصوره نهبت ، وأثاثها نقل الى هذه القلعة ، وصارت الحكومة الى احدى جواريه . لا تؤاخذني على هذا التعبير . انها جارية ولكنها صديقة عز الدين ايبك وهو الذي رفعها الى مقام الملك . انت رفعتها الى ذلك المقام لانها صديقتك . ولك الخيار فيما فعلت ، هنأها الله بهذا المنصب . وانما جئت الان اطلب منك ان تطلق سراحي من الخدمة ، ولم يبق لي عمل في هذه القصور ، اذ لم يبق فيها دور للحريم ، بعد ان صارت ملكتنا من الحريم ، فاصرفني . ام انت لا

تقدر ان تفعل ذلك من تلقاء نفسك بدون ان تشاور ملكة المسلمين ؟»

وكان لكلام سلافة وقع شديد في نفس عز الدين وهو في تلـــك الحال من التردد والشك ، وكان يجل قدرها ويحب التقرب منها ولكن لم تكن تسنح له فرصة في حياة مولاها . ولما جاءته في تلك الحال وقع في حيرة ، وتنبهت فيه عوامل كثيرة اهمها احتقار نفسه لانه خضع لامرأة لم ترض امرأة مثلها ان تخضع لها ، وتنبه في خاطره حب كان كامنا فهاجه لقاؤه لسلافة . ولم يسعه السكوت مع ذلك عن الدفاع عن شجرة الدر حفظا لكرامته فقال : «ان شجرة الدر لم تصل الى هذا المنصب الا لانها أم ولد السلطان كما تعلمين» .

قالت : «صدقت ، بارك الله فيكم . لم تبايعوها الا لانها أم ولد السلطان . ما شاء الله ! وأين ذلك الولد ؟ لقد مات . واذا كان الغرض المحافظة على نسب السلاطين الايوبيين في هذه السلطنة أفلم يكن الاولى ان تولوا عليكم أيوبيا يكون الامير عز الدين وصيا عليه ؟ ان الامـير عز الدين الان مدبر المملكة ولكن هل الامر بيده ؟ انـــا أعرف جنس النساء ، انهن لا يحفظن الوداد . لا اقول هذا عن شجرة الدر وحدها ، لكن هكذا طبيعتنا نحن النساء . ويؤيد ذلك ما جـــاء عنهن في كتب الدين ، وعلاوة على ذلك فان هذه السلطنة لا تثبت ان لم يأت كتاب امير المؤمنين العباسي راضيا عن هذا الاختيار» .

فقال : «وهل تظنين امير المؤمنين يعترض على هـــذا التعيين ؟» .
قالت : «لا شك عندي في ذلك» .

قال : «أظنك مخطئة يا سلافة ، لان شجرة الدر حكيمة عاقلة ، وقد اختارها الامراء والقواد ، فلا اظن امير المؤمنين يخالفهـــم» . قالت : «أؤكد لك ان اهل بغداد سيغضبون لهذا العمل وليس الخليفة فقط . وسوف ترى .. اني اعرف هذه الامور من قبل .. مالنا ولذلك انما

اطلب منك الآن ان تصرفني وتطلق سراحي ولكن دون مشورة احد» •

قال : «والى اين تذهبين اذا اطلقت سراحك ؟» • قالت : «أذهب في هذه الدنيا» • وغصت بريقها وتساقطت دمعتان على خديها فمسحتهما وأظهرت انها خجلت من الضعف الذي ظهر عليها وسكتت •

فأثر منظرها في قلبه وقال : «بدلا من ذهابك في هذه الدنيا ، امكثي عندنا» • قالت : «اين أمكث ؟ وقد ذهبت القصور والنساء ، وحيثما مكثت سأكون اسيرة سجينة ، او رهينة رضا ملكة المسلمين او غضبها • وهذا لا صبر لي عليه مثل صبركم ايها الرجال العظام والقواد البواسل ، فاني امرأة ضعيفة» •

فأحس بالتهكم الذي يتخلل أقوالها ووجدها مصيبة فيما تراه ، وأعجب بجسارتها حتى تقول ذلك له ، فقال لها : «يا سلافة •• كفى تأنيبا وتعنيفا • ما حدث قد حدث ، وأنا أعرف قدرك ، ولا احب ان تخرجي على هذه الصورة ، فامكثي عندي و •••»

فقطعت كلامه قائلة : «أمكث عندك ؟! مسكين !• وما الذي يصيبك لو علمت شجرة الدر بوجودي هنا ؟»

فوجد الحق معها ، لكنه كبر عليه ان يعترف بهذه الحقيقة فقال : «مالها ولمن عندي • انا لا أتعرض لما عندها ؟»

قالت : «وما هو الفرق بين الملوك وسواهم ؟• هل يجوز لنا ما يجوز للملوك ؟ هل يخيل اليك انك لو رأيت رجلا خارجا من غرفة شجرة الدر صديقتك الحميمة ــ وأنت الذي وضعتها في هذا المنصب ــ يحق لك ان تسأل عن سبب وجوده هناك ؟• أما هي فلها ان تعد أنفاسك وتحاسبك على كل خطوة» •

فتذكر رؤيته ركن الدين في ذلك الصباح خارجا من عندها ومـا خامره بسبب ذلك من الشكوك • فأطرق هنيهة يفكر ، لكنه خاف ان

يدل ذلك على ضعف فيه ، وهو لا يريد ان يظهر ذلك خصوصا بين يدي سلافة بعد ما اسمعته اياه من اللمز والتعريض فقال : «انت تعتقدين اذن ان وصول شجرة الدر الى هذا المنصب أبعد ما بينها وبيني ؛ فحق لها ان تتصرف كما تشاء . فما الذي يمنعني من ان أفعل انا ما أريده ولا ألتفت الى ما يرضيها او يغضبها ؟»

فقالت : «لا .. لا أشير عليك بذلك . انه يكون سببا لتنغيص العيش . ولا احب ان يكون ذلك بسببي» .

قال : «هل تظنين وجودك عندي يغضبها ؟» ومع ذلك لا ارى حاجة الى اطلاعها على وجودك عندي» .

فهزت رأسها وقالت : «انها جرأة عظيمة منك يا سيدي ، اذ احببت ان اكون تحت ظلك . ولكني لا ارى ان أقيم معك في منزلك ، بل أقيم في مكان اخر . وأنا في كل حال صديقتك ، وسأبقى على ودادك ولو صرت ملكة المسلمين .. على اني لا اضمن ذلك . لان الانسان عرضة للتغير» . وضحكت .

فقال : «ما الذي يجول بخاطرك وتخافين ان يتغير ؟» . قالت : «يجول بخاطري ان النساء لا يصلحن للحكومة ، وان السلطنة لا تليق الا بك ، فأنت قائد الجند ، وأنت حاربت الافرنج وقهرتهم ، وأنت دبرت كل شيء . هذا ما اراه الان ولا أغير فكري فيه» . فكان لهذا الاطراء وقع جميل في قلبه .

والانسان تخدعه ميوله حتى تريه الاسود ابيض والخرافة حقيقة ، ومن فطرته ان يعتقد صدق مادحه واخلاصه ويميل اليه بقلبه ، وقد عرف هذه الطبيعة اصحاب التدبير الذين يحتاجون الى مصانعة الناس في التجارة او غيرها فاتخذوا مدح عملائهم واطراء مناقبهم وسيلة للتقرب اليهم واكتساب ثقتهم ، واتخذ هذه الخلة ايضا طلاب رضا النساء، وجعلوا

اطراء جمالهن وسجاياهن وسيلة لاكتساب قلوبهن ولذلك قال امـــير الشعراء :

خدعوها بقولهم حسناء   والغواني يغرهن الثناء

والحقيقة ان الثناء لا يغر الغواني فقط ، بل هو يغر كل انسان ، ويندر ان ينجو عاقل من الوقوع فيه .

فلما سمع عز الدين عول سلافة اعتقد صدقها وانها مصيبة فيه ، وتوهم ألا غرض لها غير تقرير الحقيقة ، وتمكن اعتقاده في اخلاصها وصـــدق مودتها ، وكان ذلك باعثا على التباعد بينه وبين شجرة الـدر بدون ان يشعر . وافترقا على ان تقيم سلافة في قصر خاص بها وتكـــون تحت رعايته .

وبعد ذهابها اخذ يفكر فيما قالته فوجدها على صواب ، اذ كان يجب ان يتولى السلطنة احد غلمان بني أيوب ، على ان يكون هو مدبرا للمملكة ولا يكون هناك باب للاعتراض ، وذلك افضل من ان تتولى الدولـة امـــرأة .

— ٥ —

خلع شجرة الدر

اصبح اهل القاهرة يتهامسون عن رسول قادم من عند امير المؤمنين العباسي وقد نصب فسطاطه خارج القاهرة ، وأخذوا يتكهنون فيمـــا عسى ان يكون كنه رسالته ، اذ يندر ان تأتي رسالة من الخليفة العباسي

الا اذا كان هناك امر مهم من عزل او تولية .

وكان الرسول حين أشرف على القاهرة قد بعث احد رجاله ينبىء القواد والامراء بقدومه ليرسلوا من يستقبله كما هي العادة احتراماً للرسالة التي يحملها من خليفة الرسول . ولم يمض كثير حتى ضجت المدينة وغصت الشوارع بالمارة والوقوف ، ولاسيما في الشوارع الممتدة من باب النصر الى القلعة حيث يمر الرسول . واستعد الامراء والقواد في القلعة للاجتماع وسماع الرسالة عند تلاوتها ، وأكثرهم يظن انها تتعلق بسلطنة شجرة الدر ، والارجح عندهم انها تثبيت لها في المنصب كما تعودوا فيمن ولوهم من السلاطين . وتقاطر الامراء والقواد الى الديوان، وفي مقدمتهم عز الدين ايبك وغيره من الامراء البحرية ، الا ركن الدين لانه كان غائبا في دمياط . أما شجرة الدر فقد كانت على سريرها في صدر الايوان ، وعليها ثوبها الملكي الذي لبسته يوم الاحتفال بتوليتها منذ ثلاثة اشهر ومعها شوكار ، وكانت هذه حزينة لغياب ركن الدين فانها كانت تود حضوره .

اما سلافة فكانت أعلم الناس بفحوى تلك الرسالة ، اذ جاءها رسول خاص من قيّمة قصر الخليفة المستعصم بالله كان مرافقا لرسول الخليفة، وقد أنبأها ان الرسالة تضمنت خلع شجرة الدر عن سلطنة مصر ، فكاد قلبها يطير فرحا ، وأحبت ابلاغ ذلك الى عز الدين ، وكان يتردد عليها في اثناء هذه المدة ، وقد تحابا وبلغ خبرهما الى شجرة الدر فاستاءت لكنها كظمت غيظها . فلما علمت سلافة بقدوم رسالة الخليفة بعثت الى عز الدين فجاءها ، فقالت له : «بلغني انه جاءكم رسول يحمل كتابا من امير المؤمنين ، ما هو فحواه يا ترى ؟» . قال : «لا أعلم» . قالت : «وما ظنك ان يكون فحواه ؟» . قال : «قلت لك اني لا أعلم ، فهل انت تعلمين ؟»

فضحكت وقالت : «نعم أعلم ، وقد قلت الك عن فحواه منذ ثلاثة اشهر . ألا تذكر ؟» فأطرق وهو يفكر ، فتذكر حديثها الاول معه يـوم جاءته الى القلعة ، وذكرت له يومئذ ان الخليفة لا يسلم بسلطنة شجرة الدر فقال : «أظنك تعنين حديثنا عن شجرة الدر ؟» . قالت بتهكم : «نعم عن ملكة المسلمين !»

قال : «أذكر انك تنبأت ان الخليفة لن يوافق على توليتها ، فهل جاء الرسول بهذه المهمة ؟» . قالت : «نعم جاء بهذه المهمة . وفحوى رسالته خلع هذه المرأة عن الملك» .

فأدهشته هذه المفاجأة لانه لم يكن ينتظرها ، واستغرب اطلاع سلافة على ذلك الخبر قبل كل انسان ، والرسول لم يدخل القلعة بعد ، والكتاب ما زال في حقيبته ، فقال لها : «كيف عرفت ذلك ؟»

فضحكت وقالت : «عرفته وتنبأت به قبل حدوثه ، لعلمي ان تلك التولية لا ترضي امير المؤمنين . والآن كن حازما ، واعلم ان الرأي الذي ذكرته لك منذ ثلاثة اشهر هو الرأي الصواب . هل تذكره ؟»

فظهرت الدهشة على عز الدين ، فشعر بضعفه بين يدي تلك المرأة ، وفكر فيما تطلبه منه ، فتذكر انها اشارت عليه يومئذ ان يولي احد ابناء الايوبيين ويكون هو مدبر المملكة والوصي على العرش ، ثم يغتنـم الفرصة ويستقل بالسلطنة بعد ان تستقر قدمه فيها فقال : «نعم أذكره . لكن ما هو السبيل الى اتمامه ، ومن هو الغلام الايوبي الذي يمكننـا تنصيبه ؟ »

قالت : «متى بلغتم الي هذا الامر فأنا أدلك على من يصلح لذلك» .

قال : «قولي الان فربما لا تسنح الفرصة باعادة النظر» .

قالت : «صدقت . أتعرف موسى بن صلاح الدين بن مسعود بـن الكامل ؟» . قال : «نعم أعرفه لكنه غلام لم يجاوز الثامنة من عمره» .

قالت : «لو كان في الخامسة لكان أصلح لما نريده . هذا الغلام هو أولى الايوبيين بهذه السلطنة ، ومتى كنت انت الوصي عليه كان كـــل شيء اليك» .

قال : «ولكن من يضمن لي الوصاية عليه ؟»

قالت : «انا أضمنها لك بشرط ألا تظهر ضعفا ، وأن تكـــون انت المقترح لسلطنة موسى هذا ، واتمام ذلك علي» .

قال : «وهل تحضرين الاحتفال معنا ؟» . قالت : «أحضر مع النساء من وراء الستر» . فودعها وخرج من عندها وقد ملكت عقله بعد ان ملكت قلبه . ولما وصل الى القلعة وجد الامراء في انتظاره وكانت شجرة الدر اكثرهم قلقا على غيابه ، فقد علمت بغيابه وهي وراء الستر ، وكان قلبها دلها على تنافر بينهما . ومكثت تنتظر وصول الرسول وتـــلاوة الكتاب وهي لا تعلم ما هو مخبوء لها .

* * *

كانت الجماهير تموج في ساحة القلعة منذ صباح ذلك اليوم ، وجاء الخبر بوصول الرسول ، فتقدم الحاجب لاستقباله حتى دخل الايوان ، ووقف الامراء على الجانبين ، وشجرة الدر فوق سريرهـــا وراء الستر ومعها شوكار . وقد لحظت هذه اضطراب سيدتها وخوفها فأخـــذت تخفف عنها وتطمئنها وتداعبها وهي تتجلد وتصغي لما يدور من الحديث في الخارج ، ثم سمعت عز الدين يقول : «ايها الامراء . هذا رسول مولانا الخليفة امير المؤمنين المستعصم بالله حفظه الله ، ومعه كتاب من الخليفة سيتلوه علينا ، فاسمعوا له وأضمروا الطاعة لما يحويه ، لانه من خليفة الرسول صلى الله عليه وسلم» . فصاح الجميع : «نحن مطيعون للرسول وخليفته» .

فتقدم حامل الكتاب ، ووقف على منصة وفضه ، وأخذ يقرأ والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير ، ويكاد احدهم يقطع نفسه لئلا يكدر عليه سمعه وهذا نص الكتاب :

«من ابي احمد عبد الله المستعصم بالله بن المستنصر بالله امـــير المؤمنين الى أمراء الجند والوزراء في مصر . السلام عليكم . وبعد فقد بلغنا انكم وليتم امركم شجرة الدر ، جارية الملك الصالح ، وقلدتموها أمور الدولة ، وجعلتموها سلطانة عليكم . فاذا لم يكن عندكم رجال يصلحون للسلطنة فأخبرونا لنرسل اليكم من يصلح لها . أما سمعتم في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما أفلح قوم ولـــوا امرهم امرأة) » .

ولم يفرغ القارىء من تلاوة الكتاب حتى ضج الناس وعلت الضوضاء، ولا تسل عن شجرة الدر وما اصابها لما سمعت ذلك . لكنها كانت عاقلة حازمة ، فلما سمعت امر الخليفة وعلمت انه لا مندوحة لها عن العمل به تجلدت وأومأت الى الحاجب ان يزيح الستر المنصوب بينها وبين المجلس، فأزاحه والتفت الناس نحو السرير وتهيبوا ، ولبثوا ينتظرون ما يبدو من شجرة الدر بعد تلاوة الكتاب ، فاذا هي تقول : «يا معشر الامراء .. قد سمعتم ما أمر به امير المؤمنين ، وطاعته فرض على كل مسلم . قد صدق ــ حفظه الله ــ فان النساء لا يصلحن للسلطنة ، وأنا لم أقبل هذا المنصب الا عملا برأيكم ايها الامراء والقواد ورغبة في استقـــرار الاحوال بعد اضطرابها . اما الان وقد استقرت الامـــور وسمعنا رأي مولانا الخليفة ، فاني أخلع نفسي وأطلب منكم ان تختاروا من ترونـــه ليتولى هذا الامر ، وأنا اول من يخضع له» .

فاستحسن محبوها هذا التنازل منها ، لانه دل على كبر نفسها وسعة عقلها ، ولم تستحسنه سلافة ، لانها كانت تحب ان تتردد فينزلوها كرهاً.

على انها فرحت بخلعها • ولما فرغت شجرة الدر من قولها خرج صوت من وراء حجاب يقول : «لا نقبل علينا سلطانا ليس من سلالة آل أيوب» •

ولم يعرف الامراء من اين خرج الصوت ، لكنه عبر عن شعور كثيرين فأمنوا عليه وصادف هوى من نفوسهم • فقد كان أكثر المصريين عند تولية شجرة الدر غير راضين عن توليتها ، ويطلبون تولية رجل من آل أيوب ، لكنهم أذعنوا خوفا من الجند • فلما خلعت وسمعوا صوتا يقترح ما يشعرون به اجابوا بالموافقة ولو لم يعرفوا المقترح • وعلا الضجيج وكان الصوت الغالب اختيار سلطان من آل أيوب • فتوجهت الانظار نحو كبير الأمناء هناك ، وهو عز الدين ايبك ، كأنهم يستشيرونه فقال : «ان مولاتنا شجرة الدر قد برهنت بتنازلها عن الملك على انها مخلصة لمولانا امير المؤمنين وانها حريصة على حقوق المسلمين ، ونحن لم نولها هذا المنصب الا لانها والدة المرحوم خليل من سلالة الايوبيين • أما الان فما علينا الا اختيار احد أمراء تلك السلالة • واعلم ان منهم مولانا موسى بن صلاح الدين بن مسعود لكنه صغير السن» •

فقاطعه حامل الكتاب قائلا : «لا يضره صغره فانك وصيه وقائد جنده ومدبر أموره ، فما رأيكم ايها الامراء ؟»

فصاحوا جميعا : «هذا هو الصواب • لا نرى أصوب منه» •

فاستغرب عز الدين ذلك من صاحب الكتاب وهو قادم من بغداد ، وكيف عرفه ورشحه لهذا المنصب • فلما سمع مصادقة الجمهور وقف ساكتا ، فقال حامل الكتاب : «بما انكم قد أقررتم تولية موسى بن صلاح الدين فلنفعل ذلك الان ، وقد دفع الي مولانا امير المؤمنين شارات السلطنة لألبسه اياها» •

قال ذلك وأشار الى بعض رجاله فدفع اليه حقيبة كالصندوق ، فأمره ففتحها وفرش ملاءة وأخذ يستخرج ما في الصندوق ويضعه فوقها

والناس ينظرون ، فكان اول شيء استخرجه خلعة سوداء ، هي شارة بني العباس ، ثم عمامة سوداء ، وأخرج طوقا من ذهب للعنق وقيدا من ذهب للرجل . فلما صارت كلها على الملاءة قال : «هذه شارات السلطنة، فآتوني بالسلطان موسى بن صلاح الدين لنلبسه اياها فقد أوصاني امير المؤمنين ألا اخرج من مصر الا وعليها سلطان من آل أيوب» .

فسارع عز الدين الى احضار موسى ، ولم تمض مدة قصيرة حتى جيء به ، وهو طفل في الثامنة من عمره ، فألبسوه تلك الشارات على قدر الامكان ، ونادوا به سلطانا على ان يكون عز الدين أيبك وصيا عليه ومدبرا لأمور الدولة بالنيابة عنه .

كل ذلك وشجرة الدر على سريرها ترى وتسمع ، فلما فرغوا من تنصيب السلطان الجديد وأرخوا الستار عليها تنفست الصعداء وأكبت على كتف شوكار وأخذتا في البكاء ، وشوكار تتجلد وتقول : «هلمي يا سيدتي نذهب الى غرفتك لئلا تفتضح» .

فأطاعتها ، ومشتا نحو الغرفة ،ولما وصلتا الى هناك اخذت شوكار تخفف عن سيدتها وهذه تتأوه وتتنهد ، وأخيرا قالت : «لا أعلم سبب هذا التغيير ، ولكنني أحسنت بالتنازل من تلقاء نفسي . ولا تظني اني آسفة على اعتزال هذا المنصب الشاق وأنت أعلم الناس بما كنت اشكوه من ثقل أعبائه . ويكفيني اني اول امرأة تولت الملك في الاسلام ، وأنت الان تعزيتي الوحيدة» .

فلم يعجبها قولها لانها اصبحت تفضل ان تكون تعزية ركن الدين ، فسكتت ، فابتدرتها شجرة الدر قائلة : «انما اتأسف لاني لم أبق على كرسي الملك حتى ينال ركن الدين ما هو أهل له من الرتب العالية ، لكنه سينالها من سواي ، ولو كان هنا اليوم لنال شيئا ، وربما كان هو المختار للوصاية» .

فانقبضت نفس شوكار عند سماع ذلك ، وتأسفت لفوات الفرصة ، لكنها عادت الى اطراء سيدتها وقالت : «انما يهمني يا سيدتي ان تكوني بعيــدة» .

قالت : «اني سعيدة بك يا شوكار كما تعلمين والحمد لله على ان تخلصت من أعباء الملك . لقد ذقتها فلا أحسد احدا عليها ولا أتمنى ان اعود اليها» .

قالت شوكار : «صدقت يا سيدتي ، لاني رأيتك منذ توليت السلطنة قلقة الخاطر ، وكنت قبلها منشرحة الصدر ، فلنعد الى ذلك . متى يعود ركن الدين يا ترى ؟»

قالت : «سيعود قريبا . انه حالما يسمع بهذا التغيير يأتي ، ومتى اتى نلت ما وعدتك به» . فأطرقت وسكتت .

★ ★ ★

تولى الامر موسى بن صلاح الدين ، ولقبوه بالملك الاشرف ، وناب عنه في تدبير الامور عز الدين . وقد أحس هذا ان ما ناله في هذا اليوم كان الفضل فيه لسلافة . فلما انصرف القوم كان اول شيء عمله انــه ذهب الى منزل سلافة ، فرآها جالسة جلوس الملك الظافر وهي تضحك لنجاح مهمتها ، فلما دخل القى التحية فقالت : «كيف رأيت ايها الامير.. ألم تكن سلافة عاقلة تفهم سرائر الامور ؟»

قال : «صدقت والله انك جئت بالمعجزات . ألا تخبرينني كيـــف استطعت الاطلاع على هذه الامور قبل وقوعها ؟»

قالت : «أما وقد علمت صدق مودتي لك فلا أخفي عليك اني انــا السبب فيما رأيته من التغيير والتبديل بسبب صداقتي لقيمة قصر الخليفة المستعصم بالله ، فاني كتبت اليها كتابا ترتب عليه ما رأيت ، ولكنهــا

اشترطت علي امرا ضمنت لها تنفيذه ولم أحدثك عنه من قبل لعلمي انك لا ترى مانعا من امضائه» .

قال : «وما هو ؟» . قالت : «أتعدني انك فاعله ؟»

ففكر فيما عسى ان يكون طلبها ، وخاف ان يكون فيه ما يسوءه ، لكنه لم يسعه الا الطاعة فقال : «اني فاعل ما تريدين» .

قالت : «هذا كتاب قيِّمة القصر تقول فيه ان مولانا امير المؤمنين بلغه ان فتاة رخيمة الصوت تتمتع شجرة الدر بغنائها ، وقد طلب ان ترسل اليه حالا ، لان امير المؤمنين مغرم بالغناء ، وقد ضمنت لرسول الخليفة ان أرسل معه جارية شجرة الدر هدية للخليفة» .

قال : «لعلك تعنين المغنية شوكار ؟» . قالت : «نعم ، اياها أعني ، فماذا ترى ؟»

قال : «هذا هين علي . وأظنه يسر الجارية لانها ستنتقل من خدمة ملكة مخلوعة الى قصر خليفة عظيم» .

فأعجبها قوله : «ملكة مخلوعة» . وابتسمت وقالت : «ولا يخفى عليك ان ارضاء الخليفة لا بد لك منه الان ، وانك ستحتاج الى رضاه عنك اذا احسنت التدبير وصرت سلطانا مستقلا . أظنك فهمت مرادي» .

فأومأ برأسه انه فهم كل شيء ، وأسرع الى النهوض وأشار اليها مودعا وهو يقول : «ائذني لي في الانصراف للقيام بهذه المهمة» .

قالت : «سر يحرسك الله . ولا تنس ان الرسول سيسافر غدا ، ويجب ان تكون معه شوكار» .

وسار عز الدين الى القلعة متنكرا ، وكان في اثناء الطريق يفكرَ في سلافة واقتدارها ، وقد شعر بفضلها عليه ، ورأى انه لم يكن امينا في حب شجرة الدر ، ولكنه اغتفر لنفسه ذلك بما كان قد داخله من الشك في امرها مع ركن الدين بالامس ، وكان يحب ان يؤجل مقابلة شجرة

للدر الى الغد ريثما يهدأ روعها لكن الحاح سلافة بعثه على سرعة مقابلتها .

فلما دخل القلعة سار توا الى منزل شجرة الدر ، وكانت جالسة في غرفتها مع شوكار ، وقد اخذت هذه تعزف على العود وتغنيها لتخفيف ما بها . ولما أقبل عز الدين على باب الدار سمع صوت العود فأشار الى الحاجب ان يخبر شجرة الدر بقدومه .

ودخل الحاجب وأنبأها بذلك ، ولكن عز الدين لم ينتظر جوابها بالاذن ، بل دخل توا بما له من الصداقة ، فلما أقبل على الغرفة رأى شجرة الدر بثياب المنزل ، وقد عصبت رأسها بعصابة مزركشة ارادت بها تخفيف صداع ألم برأسها على أثر ما كابدته في ذلك اليوم ، فلما رأته داخلا تثاقلت في النهوض وهي تتألم من الصداع ، ولم يكن الصداع وحده سبب تثاقلها ، لكنها كانت قد شعرت بتغير قلبه وتحول محبته ، ولم يفتها امر سلافة وتردده اليها قبل خلعها ، وتأكدت تغيره في ذلك اليوم لانها كانت تراقب حركاته ، وعلمت انه ذهب اليها عقب انفضاض المجلس في حين كان ينبغي له ان يبادر الى لقائها هي لكي يؤانسها ويخفف عنها . وهذا ما كانت تتوقعه لو كان باقيا على عهده معها . فلما رأته داخلا انقبضت نفسها واختلج قلبها في صدرها عتبا وغيظا .

اما هو فأسرع اليها وهي تتحفز للوقوف وقال : «اجلسي يا سيدتي لا حاجة الى وقوفك ، اني اراك مريضة ، ماذا اصابك ؟»

فعادت الى مقعدها وهي تصلح العصابة وتلتف بالمطرف وتنكمش كأن البرد يتمشى في عروقها ، وظلت ساكتة ، فقعد عز الدين على كرسي بين يديها وقال : «أظنك مصابة بالصداع الذي كان يتردد عليك احيانا» .

فقالت : «انه صداع شديد لم أصب بمثله من قبل ، لا اراك الله مثله يا عز الدين وحماك من غوائله» .

فلم يعجبه قولها ، وأدرك انها تعني شيئا تضمره فقال : «لا ينجو احد من الصداع يا شجرة الدر . وليس هو مما يؤبه له ، ولا يلبث ان يزول» .

قالت : «انه يختلف عما تعودته قبلا ، وتغيير العادة صعب . أليس كذلك ؟» . وظهر العتب في عينيها .

فأدرك مرادها لكنه تجاهل وقال : «ان الانسان لا يتعود الاوجاع فاذا عاودته رآها في كل مرة جديدة كأنه لم يذقها من قبل . ولو علمت انك مصابة بالصداع لاسرعت اليك قبل هذه الساعة» .

قالت : «لا تشغل بالك بهذه الملكة المخلوعة ، وأنت الان في شاغل بأمور الدولة وغيرها» .

قال : «وهل تظنين أمور الدولة تشغلني عن شجرة الدر ، وقد كان يجب ان أبادر الى تهنئتك بالنجاة من أثقال هذه المهام . وأعجبني منك ما اظهرته في هذا الصباح من رباطة الجأش وسعة الصدر ، وقد احسنت في كل ما صدر منك فلم تتركي لامر الخليفة بالخلع قوة او اثرا» . وتنحنح وبلع ريقه وقال : «والحق يقال ان ذلك الامر اذا كان له اثر فانما يكون اثره موجها الينا ، او الي خاصة ، لاننا ألجأناك الى قبول السلطنة ، ولم يدر في خلدنا ان يكون ذلك مخالفا لارادة امير المؤمنين» .

فلم يعجبها منه ذلك المن عليها بأنه هو الذي جعلها ملكة فقالت : «انتم اخطأتم بالاقتراح وأنا اخطأت بالقبول . على ان نزولي عن عرش الملك لم يترك اثرا كبيرا في نفسي بقدر ما ترك ...» . وسكتت وهي تنظر اليه نظر العتاب .

فعلم انها تشير الى تغيره ، فبادرها وقال بلهفة : «اخاف ان يكون قد داخلك شك في صداقتي و ...»

فقطعت كلامه قائلة : «لا . لا . لم يداخلني شيء . ولكنني تعلمت ان الانسان لا ينبغي ان تغره ظواهر الامور دائما . والذي اراه

الان ان تترك العتاب ونروح خواطرنا بلحن نسمعـــــه من شوكار» •
والتفتت الى شوكار ، وكانت قد وضعت العود بجانبها ، فتناولته وأصغت لما تأمرها به سيدتها فاذا هي تقول لها : «انت يا شوكار تعزيتي الوحيدة الان • ولا اخاف تغيرك • غنني لحنا محزنا» • قالت ذلك وتلألأ الدمع في عينيها •

فتأثر عز الدين من منظرها ، خصوصا بعد ما رآه من تعلقهــــا بشوكار وهو قادم ليأخذها منها •• فظهرت البغتة في وجهه ، لكنــــه تشاغل بسماع الغناء ، وهو يظهر انه يسمع والحقيقة انه وقع في حيرة ، ولم يعد يعلم ماذا يفعل ، والوقت لا يساعده على تأجيل مهمته • وقضى برهة وهو يفكر في حيلة ينتحلها للدخول في الموضوع وطلب شوكار منها • فلما فرغت شوكار من الغناء التفت عز الدين الى شجرة الدر وهو يتبسم وقال : «يظهر انك انقطعت عن كل شيء الى شوكار • أليس في قصرك من يحسن الغناء سواها ؟»

قالت : «لا أعني الغناء فقط وانما أعني انها تؤانسني ، وأعتقد انها تحبني ، ولا اخاف ان تتحول عن محبتي» •

فأدرك عز الدين ما تعنيه من تغيره عليها ، لكنه صمم ان يصل الـى مراده فقال : «ولكن ليس من الحكمة ان تعلقي آمالك بها الى هـــذا الحد ، انا آتيك بمغنية أحسن منها متى شئت» •

فقالت : «لا • لا اريد سواها» •

فقال : «الافضل ان تطلبي سواها» •

فقالت وكأنها أحست بما يضمره : «هل تنوي ان تسلبني هـــذه التعزية ايضا ؟» • قال : «لم اكن أحسب لها هذا المركز لديك ، ولولا ذلك لما وافقت على اخذها» •

فأجفلت وصاحت : «اخذها ؟• من يأخذها مني ؟• لا • لا • انها

جاريتي وأعزها معزة البنين . لا أسمح بها لاحد ابدا» .

فتشاغل بحك عثنونه بسبابته وهو مطرق ثم قال : «صدقت ، يحق لك ان تحرصي عليها وألا تسمحي بها لاحد . ولكن الانسان لا يقدر ان يفعل ما يشاء دائما . ولاسيما اذا كان الطالب لا يمكن رد طلبه» .

فنهضت ونظرت اليه بدهشة وقالت : «من طلبها ؟ قل يا عز الدين» .

قال : «لا تغضبي يا سيدتي . ان طالبها اعظم رجل في المسلمين» .

فقعدت وقالت : «أظنك تعني المستعصم بالله امير المؤمنين ؟.. أما كفاه خلعي عن الملك حتى يطلب جاريتي ؟»

قال : «يسوءني اني لا ارى مندوحة عن اجابة طلبه وهو امير المؤمنين ونحن تحت رعايته وهو خليفة الرسول صلى الله عليه وسلم».

قالت : «وكيف طلبها ؟.. ومن جاء ليأخذها ؟»

قال : «رسول الخليفة حامل كتابه ، وقد رأيته بالامس» .

فتناثر الدمع من عينيها رغم ارادتها ، والتفتت الى شوكار فرأتها مطرقة ساكتة ودموعها تتدحرج على خديها فأثر منظرها في نفسها وهاج غضبها وقالت : «هل وافقته على ذلك يا عز الدين ؟»

قال : «وهل في الامكان رد طلبه ، وقد رأيت امره نافذا فيما هو اعظم من ذلك ؟»

فوقفت وأخذت تمسح عينيها بمنديلها وهي تكاد تتميز من الغيظ، ثم رفعت بصرها اليه وقالت : «ولكن هذه الفتاة مخطوبة» .

قال : «لا أعلم . وانما علي ان أنفذ طلب امير المؤمنين ، فاذا كانت لاحد حاجة فليطالب بها امير المؤمنين» . قال ذلك ونهض وقد ظهر الاصرار والجد في حركاته ثم قال : «فلتستعد شوكار للسفر غدا صباحا، واعلمي انها ستسافر معززة مكرمة لانها طلبة امير المؤمنين ولا خوف عليها» .

وخرج عز الدين ، ولم يكد يبلغ الممر حتى سمع بكاء شوكـــار وشهيقها لكنه تغافل وأوصى الحرس هناك ان يراقبوها لئلا تفر خلسة في اثناء الليل .

وقد أحسن عز الدين بهذه الوصية لان شجرة الدر كانت قد عزمت على ان تمهد لشوكار سبيل الفرار ، فلما رأت استحالة ذلك عظم الامـر عليها ، وتمكنت البغضاء من نفسها ، وأصبح همها التخفيف عن شوكار والتهوين عليها ، وتجلدت امامها وبينت لها ان ذلك الامر لا مناص من الطاعة فيه ، ولكنها ستبذل جهدها في انقاذها ، وأكدت لها ان ذهابها لا خوف منه .

أما شوكار فكان اكبر همها ان ترى ركن الدين وما يكون احساسه بعد ان يسمع ذلك الطلب ، وما الذي يبدو من غيرته او فتوره . ولكن لا سبيل اليه وهو بعيد ، والوقت لا يساعد على استقدامه في ذلك الليل، فاستسلمت وتوكلت ، ولم يكن ذلك في عرف تلك الايام شيئا عظيما لما تمكن في نفوس الناس من امتياز الخلفاء والامراء ، وان اولئك الجواري مثل سائر المتاع لا ارادة لهن ولا رأي ، وعليهن الاستسلام لما يطـــرأ عليهن في الانتقال من سيد الى سيد . ولولا خوف شوكار من ان تخسر ركن الدين لكان انتقالها الى بيت الخليفة مما يحسدها عليه كثيرات ، ومع ذلك لم يكن لها ان تختار .

وفي صباح اليوم التالي حملها بعض الخصيان الى معسكر رسول الخليفة بعد ان ودعت مولاتها وداعا مؤثرا . لكن شجرة الدر أكدت لها انها لن تنساها ، ولا بد من ان تقترن بركن الدين ، فسافرت الى بغداد وقلبها في مصر .

اما شجرة الدر فقد شق عليها فراق شوكار كثيرا ، لكن غضبها من عز الدين انما كان سببه الغيرة من سلافة . وحدثتها نفسها ان تلـــك

الجارية هي سبب مصائبها . وقد نقمت على عز الدين خيانته المضاعفة ، فقد خانها في قلبها وأحب سواها ، وخانها في منصبها فلم يبد اعتراضا على خلعها وهو قائد الجند وصاحب القوة الفعالة ، فاضطرت الى الاذعان لحكم الزمان ، اذ لم تر وسيلة الى غير ذلك .

على انها تذكرت ركن الدين وهو آت عما قليل الى القاهرة ، فكيف تقابله وماذا تقول له ؟. وكان هو حين بلغه ما حدث من الانقلاب في القاهرة قد سارع اليها ، فوصل عقب سفر شوكار ، وجاء الى شجرة الدر قبل مقابلته عز الدين ، فأخبرته بما جرى ولاسيما في شأن شوكار، وأكدت له انها بذلت جهدها في اقناع عز الدين ليبقيها فأبى ، وبالغت في وصف قحته وفظاظته لكي توغر صدره عليه .

وكان ركن الدين ما زال بثياب السفر ، فعظم عليه الامر ، وقام في خاطره لاول وهلة ان عز الدين فعل ذلك نكاية فيه ليحرمه من شوكار ، لكنه كان رابط الجأش واسع الصدر حريصا على سره ، فلم يجب بكلمة واحدة مع ان الغضب بدا في عينيه ، وكانت شجرة الدر تلاحظ ذلك فيه فتعيد الشكوى وتتوقع ان يقول قولا يشفي غليلها ، ولا يشفيه الا ان يتوعد عز الدين بالقتل ، لان حبها له قد تحول الى كره بعد ظهور خيانته.

وبعد حديث طويل وهو ساكت ملت سكوته ، فقالت : «ما بالك يا ركن الدين ؟ لعلك سررت بذهاب شوكار من يدك كما سررت بذهاب الدولة مني ؟ وكلاهما من فعل ذلك الخليفة الخليع ؟!»

فعظم عليه ذلك التعبير الجريء عن الخليفة فقال لها : «وأي خليفة تعنين ؟ »

قالت : «أعني المستعصم ، صاحب بغداد ، الذي استعظم ان يتولى امر المسلمين امرأة.ولم يستعظم ان يتولاه رجل ساقط الهمة ضعيف الرأي مشتغل باللهو والقيان وسماع الغناء» . قالت ذلك وقد بان

الغضب في عينيها وتاقت نفسها الى معرفة وقع هذا القول في نفس ركن الدين ، فوجدته لم يزدد الا اطراقا وسكوتا .

ولو أوتيت قراءة الافكار لعلمت ان سكوت ذلك الامير أدل على غضبه من الكلام وأنفذ لغرضه من السهام . وقد تنازعته عوامل كثيرة كل واحد منها يقيمه ويقعده ، وقامت في نفسه أمور لو اطلعت عليها شجرة الدر لشفي غليلها وخفت نقمتها ، لانها كانت تستحثه على المسير ذراعا وهو يريد ان يمشي ميلا او فرسخا .

فلما رأته ما زال ساكتا أشكل عليها امره فقالت : «تكلم يا ركن الدين ، تكلم ، لقد ضاق صدري من سكوتك . لعلك لم تصدق قولي؟ تمهل اني سآتيك برجل يعرف هذا الخليفة حق المعرفة ، وقد جاء من بغداد امس ، اسأله ينبئك عن أفعال ذلك الخليع . اجلس وأنا أبعث اليه الساعة» .

فقعد وهو يلاعب شاربيه ولحيته بيده ويوشك ان يقتلع شعرهما بأنامله من فرط التأثر وهو لا يشعر . وبعد قليل دخل البغدادي ، وحالما رآه ركن الدين عرفه وناداه قائلا : «سحبان» .

فصاحت شجرة الدر : «قد أنطقك الله بعد طول السكوت ، الحمد لله . الفضل في ذلك لسحبان ـ حفظه الله ـ قل يا سحبان ، ما الذي تعرفه عن المستعصم صاحب بغداد ؟ ولا تخف من التصريح فان ركن الدين صديقنا ، قل ما قلته لي البارحة» .

* ★ *

وكان سحبان قد عاد من المهمة التي بعثته فيها سلافة وقضاها كما تريد ، فلما جاءها وقص عليها ما فعله لم يجد منها اقبالا ، ثم لحظ تردد عز الدين عليها ورأى الجفاء منه ايضا فتحول حبه لسلافة الى بغض ،

ونقم عليها وعلى عز الدين . وهو ناقم على تلك الدولة برمتها لانه شيعي من اهل بغداد ، وقد برحها فرارا من ظلم العباسيين واضطهادهم الشيعة بحيث لم يعد في امكانه الصبر على الضيم هناك ، فجاء القاهرة منـــذ بضعة أعوام ، واجتمع بمن فيها من الشيعة ، فتشاكوا فيما بينهم وهم صابرون مرتقبون سنوح الفرصة لعلهم يستطيعون ان يستعيدوا الامـر للعلويين كما حدث في ايام الفاطميين . وكان سحبان ذا ثروة وتجارة واسعة ، وقد احب سلافة فكلفته بتلك المهمة ، فلما عاد شق عليه تغيرها، ولم يجد خيرا من ان يثير غضب شجرة الدر عليها وعلى العباسيين وعلى سلطانهم بمصر جملة ، وهو يعلم انها قريبة الاصغاء اليه لما هي فيه بسبب زوال منصبها وخيانة عز الدين لها . فقابلها بصفة تاجر ، وكانت تعرفه كما تعرفه سلافة ، وأظهر انه قادم من بغداد بسلع جديدة تليق بها ، وتطرق في الحديث حتى هاجها على الخليفة ، وآكد لها خيانة عز الدين ، فكتمت ذلك حتى جاء ركن الدين فقصت عليه ما عرفته ، ولاجل التثبت استقدمت سحبان ، فلما رآه ركن الدين بش له ودعاه الى الجلوس ، فقالت شجرة الدر وهي تضحك : «كيف فارقت امير المؤمنين يـــا سحبان ؟ »

فقال : «فارقت رجلا لا هم له الا سماع الغناء والاشتغال بالطعـام والشراب والنساء» .

قالت : «وكيف ترى دولته ؟»

قال : «اني اخاف على دولته من اهلها ، ان لم أخف عليها من المغول، فانهم اوشكوا ان يحملوا عليها والناس خائفون . اما الخليفة فلا يهمه غير الطرب واللهو ، واذا ظل على هذه الحال فالدولة ذاهبة لا محالة» .

فضحك ركن الدين وقال : «هل تذهب دولة العباسيين ؟.. قد سمعت اصحاب الاخبار يؤكدون انها تبقى أبد الدهر ولا يمكن ان تخلـــو

الارض منها» .

قال : «لكن الواقع انها ذاهبة لا محالة» .

قال : «وهل تخلو الدنيا من خلافة ؟»

قال : «كلا يا مولاي» .

قال : «فمن اين تأتي بالخليفة ؟ ومن يثبت سلاطيننا على مصر ؟»

قال : «ألا يصح التثبيت الا اذا كان من العراق ؟ ألا يصح ان يكون من مصر ؟ ألم تكن مصر هذه خلافة زاهية منذ أقل من مائة سنة ؟ ألـم تكن أحسن حالا وأوسع جاها ؟ و ...»

فلم يصبر عليه ركن الدين حتى يتم كلامه فقال له : «أظنك تعنـي دولة الفاطميين ولكن اولئك من الشيعة» .

فقال : «وما ضر انهم شيعة ؟ أليسوا مسلمين من قريش ؟ وانما الفرق ان الخلافة يكون مركزها في هذه البلاد فيزداد عمرانها وتتسع تجارتها وتعمر اساطيلها وتمتد فتوحها وتصير العراق امارة من اماراتها بدلا من ان تكون صاحبة الامر عليها» .

وكان سحبان يتكلم وركن الدين شاخص اليه مستغرق في تتبع كلامه ليستطلع حقيقة ما يكنه ضميره ، وهو يعلم غرض الشيعة ، فصدق من كلامه ما يوافق غرضه ، ولم يبد ملاحظة ولا صرح بما جال في خاطره وما زاد على قوله : «لقد أفدتنا يا سحبان جزاك الله خيرا» . ونهض يريد الانصراف . فنهض سحبان واستأذن وانصرف ، وقد أدهشه سكوت ركن الدين وتكتمه ، وقال في نفسه : «انه رجل لا يؤمن جانبه» .

أما شجرة الدر فلم تكن أقل دهشة من سحبان ، فلما خرج قالت : «يا ركن الدين قد آن لك ان تتكلم ، ولا أزيدك شيئا على ما سمعته عن تضعضع العباسيين في بغداد ولا عن حال السلطنة المصرية ، فان سلطانها غلام سنه ثمان سنوات ، والحكومة كلها في يد الوصي عليه عز الدين» .

قالت ذلك وهي تتميز من الغيظ .

قال : «اراك غاضبة على عز الدين ، لعلك غضبت لانه سمح بارسال شوكار الى الخليفة لتكون عنده في جملة المغنيات .

قالت : «نعم ، هذا هو سبب غضبي الرئيسي ، ولي على عز الدين أمور اخرى تخصني» .

فقال : «وهل ذهبت شوكار راضية ؟»

قالت : «كلا ، انها ودعتني باكية وهي تذكر ركن الدين ، وأوصتني ان اقول لك انها باقية على حبك لا ترضى عنك بديلا ولو كان الخليفة نفسه ، وأنا أكدت لها انك لن تتخلى عنها . ان البطل ركن الدين سيكون ركنا قويا لنا ، أعني انا وهي ، لاني اصبحت الان وحيدة ، وهذا عز الدين قد شغل بسواي وبمنصبه ونسي الصداقة . ولكن لا بأس ليكن كما يشاء والله مع الصابرين» .

فقال ركن الدين : «اذن شوكار ما زالت على حبها لي ؟»

قالت : «نعم ، ولا شك عندي انك ستتفانى في سبيل انقاذها والانتقام لها . لكن قل لي ما رأيك فيما ذكره سحبان من حيث الخلافة الفاطمية ؟ »

قال : «لم يعجبني قوله . ان الرجل يطلب خلافة شيعية ، وهذا لا يصح ولا يليق بنا . ولكنني لم اجبه سلبا ولا ايجابا . ولا اقول شيئا الان على كل حال بل اترك ذلك الى حينه والامور مرهونة بأوقاتها . أستأذنك يا سيدتي» . قال ذلك ونهض خارجا فشيعته شجرة الدر قائلة: «في حراسة الله» .

- ٦ -

ركن الدين

خرج ركن الدين من بين يدي شجرة الدر مخلفا اثرا عميقا فـي قلبها . رأت منه في ذلك الموقف ما لم تره من قبل ، وعظم امره في نظرها ، وقد زادها تهيبا منه تكتمه ما يجول بخاطره ، فما هدد ولا توعد ولا نقم ، ولكنها كانت تقرأ ذلك كله على اساريره وفي عينيه .

اما هو فسار توا الى غرفته في القلعة ، ولم ينبه احدا الى مجيئه ، وأجل مقابلة الامير عز الدين الى الغد . دخل غرفته وأقفل بابها وآخذ في نزع ثيابه وهو غارق في التفكير فيما سمعه في ذلك اليوم من الامور الغريبة ، وهو لا يزال في مقتبل العمر قليل الاختبار . وتلك اول مرة انتبه فيها الى مطامع الرجال الكبار على أثر ما سمعه عن قلب السلطنة بمصر ، وما هي عليه الخلافة في بغداد ، ولم يفته غرض سحبان مـن تقبيح الخلافة العباسية وتحسين الخلافة الفاطمية ، ولا غاب عنه قصـد شجرة الدر من المبالغة في سيئات المستعصم والتحريض عليه ، وأدرك ما في نفسها من النقمة على عز الدين ، وانها اذا ارادت فوز ركن الدين فانما تريده انتقاما من الذين اساءوا اليها . مر كل ذلك في خاطره وهو يبدل ثيابه ، ثم قعد على فراشه وهو لا يزال في التفكير ، فرسخ فـي ذهنه ان شجرة الدر وسحبان انما حرضاه على طلب السيادة لا حبا فيه بل انتقاما لنفسيهما . ولم يكره ذلك ولا رآه غريبا ولا عدهخداعا . لانه كان عاقلا حكيما ينظر الى الامور من حيث حقيقتها ، فلم يكن يرجو من سحبان مساعدة ليس له من ورائها مصلحة ، لعلمه ان الناس لا يأتون عملا بلا قصد ، ولا يقدمون على امر ان لم يتوسموا من ورائه نفعا لهم . ومن

زعم انه يفعل الخير مجانا لكي ينفع الاخرين فقد اخطأ وكذب . فاذا علمنا هذه الحقيقة سهل علينا ان نعامل اصدقاءنا معاملة حقة ، فلا نتوقع منهم فوق المستطاع ، ولا نستقبح منهم ان ينظروا الى مصلحتهم فيما يخدمون به مصلحتنا .

كان ركن الدين على بينة من هذه الحقائق ، وأدرك غرض صاحبه من ذلك التحريض ، فقبله شاكرا ، وعزم على الانتفاع به ، لكنه فضل كتمان مقاصده الى حين الحاجة . فلما قعد على فراشه وهو وحيد في تلك الغرفة طفق يحدث نفسه قائلا : «اخذوا شوكار مني . اخذهـــا الخليفة اليه في بغداد ليسمع غناءها ، وهي نعمة قل من ينالها مـــن الجواري الحسان . ارادت شجرة الدر ان تهيج غضبي على المستعصم لانه فعل ذلك ، وهل يلام لانه طلبها وقد رفع قدرها وزادها نعما ؟. لا يحق لي ان أنقم عليه او أعد عمله اساءة لي لانه لم يتعمد اخذ شوكار وهو يعلم انها خطيبتي او امرأتي . وقد يقال ان هذا الخليفة ضعيف او محب للهو ، يجب قتله او خلعه لاجل ذلك ، وهذا معقول ، ولكن من يضمن ان خلفه لا يكون اكثر ضعفا منه ؟ ومن يخاطر بنفسه في خلعه او قتله وهو لا يرجو ان ينال حظا لنفسه من السيادة ؟. وقد اضحكني ما رأى ذلك الشيعي من احياء الدولة الفاطمية او غيرها من العلويين بمصر . وما الفائدة لنا من احيائها ؟. متى صارت مصر خلافة لا يبقى مجـــال لطلاب السلطنة ، اي لا يبقى حاجة الى السلاطين . اما اذا بقيت الخلافة العباسية في بغداد تثبت السلاطين في مصر ، فان سلطان مصر يشبه ان يكون مستقلا ، غير ان ذلك لا يمنع مجاراة الرجل ومصانعته لعل في سعيه نفعا يأتي عن غير قصد منه . واذا لم تنجح فلا خسارة مـــن مسايرته » .

ولما بلغ الي ذكر سلطنة مصر نهض من الفراش وقد هاجت مطامعه ،

وتمشى في الغرفة لحظة وهو مطرق ، ثم قال : «سلطنة مصر ؟ انهـــا افضل من خلافة بغداد . هل أطمع فيها انا ؟ نعم ، ولكن لو قلت ذلك للناس لاستجهلوني . وقد اكون مبالغا في مطامعي ولكن يجب ان اسعى منذ الان . احذر يا ركن الدين ان تجعل احدا يشعر بذلك» .

وسمع وقع حوافر جواد مار امام غرفته فانتبه لنفسه وتذكر سفـر شوكار فقال : «هل أتغافل عن شوكار لا اطلبها ؟» اني احبها ، وان كان ذلك الحب جاءني في اول الامر تكلفا لكنه تمكن من قلبي ، ويكفي انها تحبني وتتوقع مني انقاذها . هذا اذا ظلت هي على ودادي بعد دخولها قصر الخليفة» .

***

كانت الشمس قد مالت الى الغروب ، فاعتزم ان يقضي بقية يومـه مستريحا ، على ان يبكر في الصباح ليقابل عز الدين ثم السلطان الجديد لتهنئته بما ناله ، وانتظار ما يفعله . فتناول العشاء واستراح قليلا فلم يشعر بحاجة الى الرقاد لعظم ما جاش في صدره واستولى عليه الارق .

فلما أسدل الليل نقابه تزمل بعباءته وخرج يتمشى في فناء القلعـــة نحو الجبل ، والجو صاح والقمر قد تكبد السماء ، وظهرت الطبيعـــة بأبهى ما يكون من الجلال والهيبة ، ويحلو للمفكر في مثل تلك الليلة ان يقف على جبل او في واد او حديقة يناجي نفسه بهدوء وسكينة كأنه يعهد في سره الى القمر او يخاطب الطبيعة ويباحثها .

وقد علمت ما كان فيه ركن الدين من الهواجس على أثر ما تزاحم في افكاره من الاماني والمطامع . فسار وهو ملتف بالعباءة فلم يعترضه الحرس ، وتسلق الجبل في ضوء القمر حتى بلغ الى سطحه ، فوقـف والتفت الى القاهرة وما بها من الحدائق ، ووراءها النيل ، ينعكس ضوء

القمر على مائه ، ووراء ذلك الاهرام وقممها تناطح السحاب ، وحولها بساتين النخيل والجميز لا يظهر منها الا أشباحها كالظلال ، فقعد على صخرة وراءها بناء خرب اصله مسجد او قلعة ، ولبث هادئا ساكنا كأنه يتأمل مناظر الطبيعة ، وأفكاره تنتقل به من موضوع الى موضوع ، ونصب عينيه شوكار وأين هي ؟ ويسترض تفكيره فيها مطامعه في السلطنة وهل ينالها ؟ وضوء القمر يكبر أشباح الفكر فتتعاظم الاوهام حتى تظهر كالحقيقة .

وبينما هو ساكت مطرق اذ سمع حفيفا يشبه انسياب الثعبان على التراب فلم يخفه ذلك ، لكنه تنبه الى انفراده واستغراقه في هواجسه، فهم بالنهوض واذا هو يسمع قهقهة على مقربة منه ، فالتفت فلم ير احداء فأوشك ان يتوهم ذلك الصوت من اصوات الجان ــ وكانت هذه الخرافات رائجة في تلك الايام ــ لكنه ما لبث ان سمع وقع أقدام وراء تلك الخربة من الجهة الاخرى ، فسكت لا خوفا ولا تلصصا ، لكنه لم يكن يريد ان يشعر احد بخروجه في تلك الليلة من القلعة .

وأصاخ بسمعه فاستنتج من مجمل ما سمعه ان هناك اناسا يتسامرون ، فساقه حب الاستطلاع الى التسمع ، وان يكن ذلك مخالفا لما فطر عليه من البسالة والانفة ، لكن حب الاطلاع على المخبآت من جملة طبائع الانسان وهو لم يسع الى التجسس وانما سيق اليه مصادفة.

وقد زاده رغبة في التسمع انه سمع صوتا يشبه صوت سحبان ، وهو حديث العهد بسماعه في ذلك اليوم . سمع ذلك الرجل يقول لمخاطبه : «ان سلافة هذه قد أدهشتني بدهائها ومكرها» .

فأجابه الآخر : «أظنك تعني قيمة قصر الملك الصالح .. هل هي من دهاة النساء ؟»

فقال سحبان : «مهما قلت فيها لا يمكن ان تحيط بوصفها ، اما انا

فقد خبرتها بنفسي . أرأيت هذا الانقلاب الذي جرى امس والتبديل الذي حصل في السلاطين ؟ أرأيت خلع شجرة الدر وتنصيب الملـــــك الاشرف ؟ انها هي وحدها السبب في ذلك كله » .

فقال الاخر : «هذه مبالغة منك يا سيدي . كيف يتأتى لها ذلك وهي هنا والخليفة في بغداد ؟» لعلك توهمت هذا فيها لما رأيت عز الدين ايبك يتردد عليها حتى افسدت ما بينه وبين شجرة الدر ولكن هذا» .

فقطع سحبان كلامه قائلا : «انا اقول لك عن ثقة ، ان سلافة وهي في القاهرة قلبت الحكومة وبدلت السلاطين» . فقال : «وكيف ذلك ؟» قال : «يظهر ان نفوذها هناك عظيم جدا وان كلامها مسموع في قصور الخلافة » .

فقاطعه الاخر قائلا : «صدقت لانها هي في الاصل من جواري ذلك الخليفة وقد أهديت للملك الصالح ، ولكن قد يكون في قولك مبالغة» .

قال سحبان : «اني اقول لك شيئا خبرته بنفسي» . وخفت صوته وقال : «انا اخذت كتابها بيدي الى بغداد ، فلم يكن الا مسافة الطريق حتى جاء الجواب بخلع شجرة الدر» .

فضحك الرجل وقال : «ما الذي أدخلك في هذه المهمة ؟ وما هـــو شأنك مع هؤلاء الاتراك يا سحبان ؟»

قال : «لا يهمك ان تعرف تفصيل ذلك ، ولكني وجدت هذه المهمة قد تساعدنا في مشروعنا ، وكنت احسب خلع شجرة الدر على هـــــذه الصورة يفضي الى ثورة تهيىء لنا الاسباب المعلومة» .

★ ★ ★

فلما سمع ركن الدين هذا الحديث رأى فيه فائدة له فاغتنم لنفسه

تنصته ، ومكث لسماع بقيته ، فسمع رجلا اخر يقول : «لقد اسأت يا سيدي بأداء هذه المهمة ، فانك اخرجت الدولة من يد امرأة ضعيفة الى يد رجل شديد ، فلا يلبث ان يخلع ذلك السلطان الغلام ويقبض هو على الدولة بيد من حديد والحقيقة على ما ارى انك قمت بهذه الخدمة طمعا في رضا سلافة .. انها في الحقيقة بارعة الجمال» .

قال سحبان : «صدقت ، انها لجميلة ، وربما خطر لي ان أنال رضاها، لكن المهمة في اصلها خدمة للغرض المعلوم» .

فقال الآخر : «وهل نلت ما كنت تؤمله من رضاها ؟»

قال : «لا أدري ، ان هذه المرأة سر من الاسرار او هي لغز معمي لا يمكن حله ، يلوح لي انها بلا قلب ، او هي ذات خلق خاص ، أعترف لكم اني كدت انال رضاها ورأيت من تقربها وتلطفها ما أكد لي حبها ، ثم ما لبثت ان رأيتها وقد تغيرت بعد رجوعي من بغداد اذ اختصت الامير عز الدين بحبها ، وقد ملكت قلبه ولبه حتى شعرت شجرة الدر بذلك وغضبت عليه ، لكن هذه اصبحت بعد خروج الملك من يدها لا تستطيع غير العتاب والشكوى» .

فتصدى رجل للسؤال قائلا : «كل ما تقوله صحيح ، وأزيد عليه ان السبب في اهتمام المرأة بخلع شجرة الدر وتنصيب غيرها ليس الا غيرة منها ، لان شجرة الدر صارت ملكة ، وهي تحسب نفسها أحق منهـــا بذلك لانها كردية من قبيلة الملك الصالح ، ففعلت ما فعلته انتقاما ، وليس فيه شيء من الدهاء لانها نقلت الدولة الى يد اخرى ، واذا صدقنا انها فعلت ذلك بدهائها ، فما الذي عاد عليها من هذا العمل ؟. ثم اني لم أفهم كيف توصل الخليفة في بغداد الى خبر شوكار المغنية حتى يطلبها ؟»

فقال سحبان : «هي التي اوعزت اليه بأن يطلبها نكاية في شجرة الدر لانها مغنيتها» .

فلما سمع ركن الدين اسم شوكار خفق قلبه وزاد ميلا الى السماع، وحمد الله على تلك المصادفة التي اسمعته هذا الحديث وهو في أشد الحاجة الى معرفته لانه كان غائبا عن مصر في اثناء تلك الحوادث فأنصت فسمع رجلا يقول : «وهذا لا شيء فيه من الدهاء لان شجرة الدر يمكنها الاستعاضة عن شوكار بعشرات مثلها ، ولكن السر الحقيقي في نجاح هذه المرأة ان لها صداقة متينة مع قيّمة قصر المستعصم ، ولها عليها حقوق مختلفة ، فكتبت اليها بما رأته ، وتلك صاحبة النفوذ هناك فأنفذته . دعنا منها انها امرأة متلونة منافقة والسلام» .

فضحك سحبان وقال : «صدقت انها منافقة لانها خدعتني ، وأظنها ستخدع سواي ، ولكن لا شك انها صاحبة نفوذ عظيم في قصر الخليفة.. ما لنا ولها .. هيا بنا» .

فقال اخر : «لا تطاوعني قدماي على الابتعاد عن ضوء القمر الجميل، ولكن قد آن وقت الرقاد فلا حول ولا ..»

وسمع ركن الدين وقع خطواتهم وهم خارجون من تلك الخربة ، فانزوى ريثما ابتعدوا ، وعاد الى التفكير فيما سمعه عن سلافة وعن سر الانقلاب الذي جرى ، فانجلت له أمور كثيرة يؤمل الانتفاع بها .

عاد الى غرفته يطلب الرقاد وقد أنهكه التفكير في هذه الامور ، فتوسد الفراش على ان ينهض في الصباح لمقابلة الملك الاشرف وعز الدين مدبر المملكة . فلما اصبح لبس ثيابه وذهب الى الايوان فلقي عز الدين، فأخبره انه وصل امس لكن التعب منعه من القيام بهذا الواجب ، فقدمه عز الدين الى الملك الاشرف ، فقص عليهما نتيجة مهمته في دمياط وقد انتهت باخراج الافرنج من هناك بشروط موافقة .

فأثنى عز الدين على همته وبسالته ووعده بالمكافأة ، فشكر له تلطفه، ولم ير فيه ما كان يعلمه من غيرته منه ، او لعله أحس بذلك بسبب ما

خامره من المطامع وما سمعه من الاقوال ، وعلى كل حال فانه بالغ في الكتمان ولبث يتوقع سنوح الفرص .

★ ★ ★

ثم عاد الى التفكير في شوكار وهو لا يدري هـل يبحث عنها او ينتظر ريثما يتأكد بقاءها على حبه لانه كان كثير الشك في ذلك لمـــا ستلاقيه في قصر الخليفة من النعم . ولم يكن من ذوي العواطف القوية الذين يضحون بمصالحهم المادية في سبيل الحب ، ولكنه كان قــوي العقل كبير المطامع ، ويغلب في أمثاله ان ينظروا الى كل شيء من الناحية التي تنيلهم مطامعهم ، ولذلك لم يصدق ان شوكار ستبقى على وده بعد ذلك الانتقال ، على انه كان يشعر بميل شديد اليها وعطف عظيم عليها ، وكان يعزيه انها هناك في نعيم لا خوف عليها من الاهانة ولا يمس شرفها بما يبعث على غيرته لانها جارية مغنية فقط . قضى برهة وهو يفكر فيما يعمل : أيسافر الى بغداد للبحث عنها ام يبعث احدا في طلبها ؟ وشغـل ايضا بمهام منصبه ، لكنه لم يستطع الصبر على الفراق ، وهو لا يعلم ما يكون من حال شوكار هناك .

فأصبح ذات يوم وقلبه قلق على شوكار ، وقد رآها في نومه على غير ما يريد . وهو غير قادر على السفر اليها ، فخطر له ان يكلف سحبان بذلك ، وان يطمئنه ويظهر له المسايرة في رأيه . فبعث اليه فجاءه وهو مستبشر طمعا فيما يرجوه ، فلما لقيه قال ركن الدين : «صدقت يـــا سحبان ، ان هؤلاء القوم لا يصلحون للخلافة وهم في هذا الفساد» .

قال : «ألم اقل ذلك يا سيدي ؟»

قال : «نعم وأنا اعرفه ، وقد خبرته بالامس مما فعلوه معي .. لا أعلم

اذا كنت قد سمعت بأخذهم شوكار» .

قال : «كيف لا ؟. سمعت ، نعم سمعت ، وهذا لا يفعله الخلفاء العلويون و ..»

فقطع ركن الدين كلامه قائلا : «ولكن هل تعلم من هي شوكار ؟»

قال : «نعم انها جارية شجرة الدر ومغنيتها» .

قال : «وهي فوق ذلك خطيبتي ..»

فأظهر الدهشة وقال : «خطيبتك ! وأخذوها منك ؟. يا لله من هؤلاء القوم الظالمين ؟»

قال : «لم يأخذوها وهم عالمون بذلك .. مالنا ولهم ، وانما يهمني الان ان أعرف حال شوكار هناك ، وأنا لا أقدر على السفر ، وأنت تسافر دائما في تجارتك ، فهل تقضي هذه المهمة لصاحبك ركن الدين ؟»

فاستأنس سحبان بذلك التلطف وقال : «اقضيها على الرأس والعين، وأسافر في الغد لاجلها .. قبحهم الله .. انهم مضيعون هذا الملك عن قريب» .

فقال ركن الدين : «أشكر لك سعيك يا سحبان ، والايام بيننا» .

فقال : «ان خدمتك يا مولاي واجبة علي .. اني مسافر غدا ولا اسألك عما تطلبه فاني أعرف كل شيء ، كن في راحة» . قال ذلك وخرج بعد ان ودع .

وعاد ركن الدين الى شؤونه وقد اطمأن باله نوعا ، وصبر نفسه ريثما تنقضي المدة اللازمة لذهاب سحبان الى بغداد ورجوعه منها ، وهي اكثر من شهر . لكن لم يمض اسبوعان على سفر سحبان حتى جاءه رسول بكتاب من بغداد وصل في المساء فلم يصبر على تبليغ رسالته الى الصباح . وكان ركن الدين في تلك الليلة عند شجرة الدر وقد أكثر من تردداه اليها ليسليها على ما اصابها من الوحشة بعد وقوع الفتور بينهما

وبين عز الدين ، ولم يدر ان ترداده يزيد تلك الوحشة .

كان تلك الليلة عند شجرة الدر وجاء الحاجب وقال : «ان بالباب رسولا يحمل كتابا الى الامير ركن الدين ولا يريد ان يسلمه الا بيده».

فقال ركن الدين : «ليدخل» ولم يطاوعه قلبه على الصبر ، فوثب كالسهم حتى لقي الرسول وصاح فيه : «ما وراءك ؟»

فقال : «وهل الذي يكلمني الامير ركن الدين بيبرس ؟» . قال : «نعم ، من انت ؟ ومن اين اتيت ؟»

قال : «انا رسول الى الامير من فتاة تريد ان يصل كتابها اليه سرا». فخفق قلبه وقال : «هاته» . فمد الرجل يده الى جيبه وأخرج الكتاب ودفعه اليه ، فتناول ركن الدين الكتاب ودخل الى القاعة وأخذ يقرأه ، وشجرة الدر تنظر اليه وتراقب حركاته وما يبدو في وجهه من التغير . ولم يفرغ من قراءته حتى بلغ الغضب منه مبلغا عظيما ، وشجرة الدر قلبها يخفق وعيناها شاخصتان اليه . فلما فرغ من تلاوة الكتاب صاحت فيه : «ماذا قرأت ؟ ماذا جرى ؟»

فرمى الكتاب اليها ، فتناولته وقرأته فاذا فيه :

«من المسكينة شوكار الى سيدها وحبيبها ركن الدين . اختطفوني من بين ذراعي شجرة الدر وأنت غائب ، ولم تجد مولاتي حيلة لاستبقائي حتى حضورك . فبرحت القاهرة وقلبي فيها ، ولم ازل منذ برحتها وأنا أندب حياتي لا اجد لي سلوى برغم ما كان يبذله صاحب الركب من اسباب الراحة لي . وهم يستغربون البكاء من جارية طلبها امير المؤمنين لتكون في مجلسه ، على اني ما لبثت ان وجدت بكائي كان في محله لاني حين اشرفت على بغداد تغيرت حالي اذ أسلموني الى قوم جاءوا من قصر الخليفة وكنت أحسبهم جاءوا ليستقبلوني ، وعزمت على ان اطلب اليهم ان يعيدوني الى مصر او أوسط احدا للخليفة ليأمر

بارجاعي بعد ان أقص عليه خبري . لكنني لم اكد اقع في ايديهم حتى عاملوني معاملة الاسيرة ، وساقوني الى حيث لا ادري . هذا وقد كان في الركب الذي حملني من مصر الخصي عابد البصري حامل هذا الكتاب اليك . وكنت قد استأنست به وأحسست بعطفه علي فاغتنمت فرصة كتبت فيها هذا الكتاب على عجل ورجوته ان يوسله اليك . فأكرمه ما استطعت ، وأستودعك الله ، ولا أظننا نلتقي في هذه الدنيا ، وقد ختمت هذا الكتاب بدموعي» .

وكانت شجرة الدر تقرأ وركن الدين يخاطب حامل الكتاب .

وسأله : «ماذا تعرف من التفاصيل ؟»

فقال : «لا ادري يا سيدي سوى اني كنت في خدمة الركب الذي اتى بكتاب الخليفة ، ولما عاد ومعه هذه الجارية رأيت فيها لطفا ، وكنت انا المكلف بخدمتها . والمفهوم بيننا انها محمولة الى امير المؤمنين لتكون مغنية في قصره ، وكنا نبذل جهدنا في خدمتها وراحتها ، فلما وصلنا الى ضواحي بغداد جاءنا وفد من الجند قالوا انهم قادمون من قصر الخليفة ، وطلبوا الينا ان نسلمهم شوكار ، فلم يسعنا الا الطاعة ، لكننا لحظنا انهم ذاهبون بها الى غير قصر الخليفة ، فأشفقت عليها وأخذت في تعزيتها وسألتها عما تريد ان اصنعه فقالت : (لا أريد شيئا سوى ان توصل هذا الكتاب الى الامير ركن الدين ، وتسلمه اليه بيده ، وقد فعلت) .. »

فقال : «وأين هي الان ؟ وماذا تظن انهم يفعلون بها ؟ وما غرضهم من اخذها على هذه الصورة وهي لا تعرفهم ولا علاقة لها بهم ؟»

قال : «لا ادري يا سيدي ، وأنا ايضا مستغرب هذه المعاملة» .

فأطرق ركن الدين ، وأخذ يفكر فيما عسى ان يكون سبب ذلك فلم يوفق الى رأي فقال : «والآن يا عابد اذا دفعت اليك كتابا هل توصله

اليها ؟ وأين تجدها ؟»

قال : «أبحث عنها جهدي ، ولا أنفك حتى اجدها وأكون طـــوع ارادتها فيما تريده وأفديها بروحي .. انها يا مولاي تفدى بالروح للطفها وأدبها » .

فأثنى ركن الدين على مروءته وقال : «تعال في صباح الغد فأدفع اليك بالكتاب . تجدني في غرفتي بالقلعة ، هل تعرفها ؟» . فأجاب باحناء الرأس ان «نعم» وانصرف .

***

وقف ركن الدين مطرقا وقد اخذته الدهشة ، ثم انتبه لشجرة الدر فتحول نحوها فرآها قد فرغت من تلاوة الكتاب وتغير وجهها وظهرت امارات الغضب في عينيها ، فلما التفت بيبرس اليها بادرته قائلة : «تلك هي اعمال الخلفاء الذين لم يعجبهم ان تتولى السلطنة امرأة ! هـــذا المستعصم امير المؤمنين . ووالله لو ان امرأة سليطة تولت هذا الملـــك لدبرته احسن من تدبيره ، شغل نفسه بالغناء واللهو ، ثم يأخذ نساءنا من بين أيدينا ونحن صابرون !»

فأدرك ركن الدين انها تستثير غيرته على شوكار للانتقام مـــــن المستعصم فقال : «ولكن ما اصاب شوكار ليس من المستعصم» .

قالت : «ممن اذن ؟ ألم يكن هو الذي بعث في طلبها اليه . وهب ان الذين اختطفوها الان لم يفعلوا ذلك بأمر الخليفة ، ألا يدل وقوع ذلك على ضعف الرجل وقلة هيبته حتى يجرؤ الناس على اختطاف مغنية آتية اليه في موكب حافل ؟ على انني اضع اكثر الحق علي» .

فقطع كلامها قائلا : «الحق كله على عز الدين ، هذه هي الحقيقة ،

ولو شاء هو لاحتال في استبقاء شوكار» .

فقالت : «صدقت ، وهذا هو رأيي . لا ادري ما غير هذا الامير ؟ ان مطامع الدنيا تغير الناس . طمع عز الدين في السلطنة فضحى كل شيء في سبيلها ، ضحى اصدقاءه وخلانه و ..» . وغصت بريقها وسكتت .

لم يكن ركن الدين يجهل ما في خاطر شجرة الدر على حبيبها من الغيرة والنقمة ، فأراد ان يخالفها لاكتشاف ما يكنه ضميرها فقال : «.لا أظنه فعل ما فعله طمعا في الملك لانه كان في نفس هذا المنصب وأنت سلطانة . بل كان معك اقرب الى السيادة والنفوذ منه الان ، ويظهر انه لم ير بدا من اطاعة أمر الخليفة فيما يتعلق بشوكار» .

فضحكت ضحكة اغتصابية وقد امتقع لونها من شدة التألم والغضب وقالت : «لعله اطاع بذلك غير امر الخليفة» . وبلعت ريقها وتشاغلت بمنديلها تمسح به فمها وجبينها .

فلحظ ركن الدين انها تعني سلافة فقال : «وهل تلومينه لانه يبحث عن مصلحته ؟ ليس في الدنيا احد لا ..»

فقطعت كلامه قائلة : «كلا . لا ألومه لذلك ، ولكنني ألوم غيره لانه لا ينظر الى مصلحته ايضا ، ان هذا الامير ضحى بشوكار وركن الدين وشجرة الدر في سبيل مطامعه ولم يبال ، ونحن ما زلنا نحافظ على عهده ونلتمس وده» . وتزحزحت من مجلسها وفي ملامح وجهها انها لم تتم حديثها بعد .

فأراد ركن الدين ان يستزيدها بيانا فقال : «انا ناقم على هذا الامير كما تعلمين ، لكنني لا اراه يستحق هذا الغضب منك . لان ما جرى لك ولشوكار لم يكن هو فاعله ، ولم ينل من فعله شيئا جديدا لم يكن له وأنت سلطانة» .

قالت : «قد أحرجتني يا ركن الدين ، فأستأذنك في كشف ما فـي

قلبي . قد يتبادر الى ذهنك اني كرهت عز الدين لانه أحب تلك الجارية الكردية (سلافة) وهي التي ساعدته على ما فعل ، وكنت احسبها فعلت ذلك حبا فيه ، ولكنني عرفت الان انه لم يكن يحبها ، ولكنه خدعها كما خدعني ، فلما نال مرامه منها تخلى عنها . هل علمت بما عول عليـــه وأوشك ان يفعله بمشورتها ومساعدتها ؟» . قال : «كلا» . قالت : «قد عزم عزما أكيدا على ان يستقل بالسلطنة» .

قال : «أليس هو مستقلا بها الان ؟ أليس الملك الاشرف صورة لا معنى لها » . قالت : «صحيح ، ولكنه سيخلعه ويطلب من الامراء ان يبايعوه سلطانا بدله» .

فهز رأسه هزة الانكار وقال : «هذا لا يكون ، وكيف يتأتى له ذلك والناس يحتجون ؟ انهم لا يخضعون لملك ليس من آل أيوب» .

فقالت وهي تضحك ضحك الاستهزاء : «انك ما زلت قليل الاختبار يا ركن الدين ، لكنك لا تلبث ان تعلم ان هؤلاء القوم لا رأي لهم ولا صوت ، ينقضون اليوم ما قرروه بالامس . والظاهر ان عز الدين تمكن من اغراء المقربين له وأنت غائب وقبلوا مبايعته ، وبلغني انهم اختاروا له احد ألقاب الخلفاء الفاطميين بمصر وهو (المعز) فهل بعد ذلك شك ؟ ولعله لو طال مكثك في دمياط لأمضي هذا الامر في غيابك .. او أظنه أمضاه من ذلك الحين .. ألا تشعر انه تغير معك عما كان عليه من قبل ؟»

فثارت الغيرة في نفس ركن الدين ، وأوشك ان يبوح بما في خاطره، لكنه تجلد وتماسك . وقد فتح امامه بعد هذا الحديث باب جديد ، فهو لم يكن بالامس يتصور انه يمكن لغير الايوبيين ان يستقلوا بالسيادة فاذا هو يرى عز الدين استطاع ذلك ووافقه عليه الامراء . فازداد رغبة في السلطة ، لكنه ما زال حريصا على كتمان ذلك المطمع خوف الفشل عملا بالحديث الشريف : «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان» . لكنه

غلب على ظنه بعد ان سمع من حديث القوم عن سلافة في تلك الليلة ان عز الدين لم يفعل ذلك الا بنفوذها فأراد ان يستطلع رأي شجرة الدر في ذلك فقال : «ألا تظنين ان لسلافة دخلا في هذا الامر ؟»

قالت : «لا ريب عندي انها ساعدته في ذلك نظرا لنسبها الكردي وعلاقتها الودية مع بعض الامراء اصحاب النفوذ من آل أيوب وغيرهم. ولعلها ارتكبت أمورا دنيئة في هذا السبيل ظنا منها انها اختطفت عز الدين من شجرة الدر . ولكن خاب ظنها لان هذا الرجل ليس لاحـــد منا ، وسوف ترى» . قالت ذلك وابتسمت وعيناها تلمعان .

ولحظ ركن الدين في عينيها معنى لم يكن فيهما من قبـــل . رأى الغيرة والنقمة والغيظ تتزاحم فيهما ، فقال : «لمن هو اذن يا مولاتي ؟»

قالت : «أتريد ان أبوح لك بكل ما أعرفه عن هذا الخائن مرة واحدة؟ سألتني لمن هو ؟. فأجيبك انه يزعم انه لامرأة ثالثة» . قال : «من هي ؟». قالت : «امرأة لا تعرفها ، ليست في مصر» .

فاستغرب قولها وقال : «أظنك تمزحين ؟» . قالت : «كلا ، أنـــي اقول الصدق ، ان عز الدين يزعم انه ساع في خطبة بنت بدر الديـــن لؤلؤ صاحب الموصل» .

قال وقد بدا الاستغراب في عينيه : «ان صاحب الموصل له مقام رفيع عند الخليفة ، وهل تظنينه يفوز بها ؟»

وكان التأثر والغضب قد ملكا عليها أمرها ، فقالت وهي تشير بيدها اشارة الانكار : «لا . لا . لن يفوز بها . انه ليس لاحدى هـــؤلاء النسوة ، بل هو نصيب الرابعة» . وأشارت بيدها اشارة رجل بيده خنجر يطعن به اخر الى جانبه . ففهم ركن الدين انها تنوي قتله ، وتأكد ذلك مما بدا في عينيها من الاحمرار ، فضحك وأظهر الاستخفاف بهذا الرأي ، ونهض يريد الانصراف وهو يقول : «لا اظن الامر يبلغ بك الى هـــذا

الحد ، قد انتصف الليل وآن لي الانصراف ، أستودعك الله» .

فصاحت به : «ويلك يا ركن الدين ، تذهب على هذه الصـــورة وتتركني على هذه الحالة ؟ ماذا جرى لك ؟» . قال : «ماذا أصنع يــا مولاتي ؟» . قالت : «قد رأيت من امرك عجبا . تكلمنا في ابواب كثيرة وصرحت لك بأمور كثيرة كنت أكتمها عن كل انسان وأنت جامـــد كالصخر الأصم لا تقول شيئا .. اذا كنت تفعل ذلك عن دهاء فنعـــم الفعل ، والا فانك صلب بارد . وفي كل حال كنت أتوقع منك ان تقول كلمة عن شوكار المسكينة التي ذهبت ضحية حبك ، وهي تقاســـي العذاب ، وقد تفطر قلبي من كتابها . ولو كنت خطيبها لركبت الساعة الى بغداد ولم أرجع الا وأنا منتقمة لها من ذلك الخليفة الظالم الذي لا يهمه الا التمتع بملذاته» . قالت ذلك وهي تتفرس في عينيه .

فكان لكلامها وقع السهام في قلبه وأوشكت ان تخرجه الى التصريح بما في ضميره ، لكنه تراجع وتمالك وتشاغل بالضحك وقال : «لله انت من خطيب غيور شجاع . اما انا فأظن عندي مثل ذلك . ولكنني سأنظر فيه وأعمل ما يسرك وان لم أقل شيئا» . قال ذلك وبرقت عيناه ، وبان الحزم والجد في جبينه ، فتقدمت اليه ووضعت يدها على كتفه ، وقالت: «هذا عهدي فيك ، وقد فهمت من هذه العبارة كل شيء . واعلم انــي فاعلة ما يتمم عملك هنا .. اقتل المستعصم وأنا أقتل عز الدين ، وأنت السلطان صاحب الامر والنهي» .

فتجاهل ما سمعه وقال : «أتأذنين لي في الانصراف الان ؟»

فأشارت اليه مودعة ، فخرج وهو ينتفض من الغضب ، وقد تضاربت الافكار في خاطره ، ولم يعجبه تصريح شجرة الدر بقتل المستعصـــم لاعتقاده ان مثل هذا الامر الخطير لا ينجح الا اذا ظل مكتوما فـــي

خاطر صاحبه .

★ ★ ★

مشى ركن الدين وقد انتصف الليل وأخذ منه التأثر مأخذا عظيما حتى اصبح لا يرى طريقه من فرط ما تجاذبه من الهواجس ، وأسرع في خطاه رغبة في الاختلاء بغرفته لمناجاة نفسه ، لكنه لم يكد يصل الى باب منزله في القلعة حتى تصدى له احد الحراس وحياه ، فرد التحية ومشى ، فتقدم اليه الحارس قائلا : «ان خادما في انتظار مولاي هنا منذ ساعتين» . وأشار الى رجل واقف بجانبه .

والتفت نحوه وقال : «من الرجل؟» . وظنه لاول وهلة رسول شوكار جاء يأخذ جوابه اليها ، فاذا هو سواه .

فتقدم الرجل ودفع الى ركن الدين كتابا مختوما ، فتناوله وأمر خادمه ان يسرع الى غرفته ويضيء فيها المصباح ففعل.

فدخل ركن الدين وحده وفض الكتاب امام المصباح ، وقد أدهشه ما فاح من رائحة الطيب ، فترجح لديه انه من امرأة ، فأخذ يقرأ فاذا هو من سلافة جارية الملك الصالح ، فاستغرب ذلك وقرأ فيه : «سلافة جارية الملك الصالح وقيّمة قصوره ترغب في مقابلة الامير ركن الدين بيبرس ساعة وصول كتابها هذا اليه ، وحامل الكتاب يرشده الى المكان» .

فوقع في حيرة ، وتولته الدهشة ، وأخذ يسأل نفسه ماذا عسى ان يكون غرضها من تلك المقابلة وليس بينها وبينه سوى معرفة بسيطة . وتذكر ما سمعه عنها من سحبان ، وما جرى من ذكرها بين يدي شجرة الدر ، وعلاقتها بعز الدين أيبك ، فأصبح شديد الميل الى تعرف هذه المرأة ، ولعل التعرف بها ينفعه في مشروعه .

ورآها تطلب اليه مقابلتها ساعة وصول كتابها فقال في نفسه : «ما عسى ان يكون سبب هذه السرعة ؟» . وبرغـــم ما كان فيه من التعب والقلق عزم على اجابة الدعوة حالا ، فنادى الرسول اليه فدخل فقال له: «هل المكان بعيد من هنا ؟» . قال : «كلا يا سيدي انه قريب جدا» . قال : «وهل انت هنا من زمن طويل ؟» . قال : «منذ نحو ساعتين» . قال : «ولماذا انتظرت كل هذه المدة ؟» . قال : «لان مولاتي صاحبـــة الكتاب امرتني ألا اعود الا بالجواب» .

فازداد ركن الدين دهشة واستغرابا وصمم على الذهـــاب ، فلبس ثيابه وخرج ، والرسول يمشي بين يديه ، وقد اخذ القلق منه مأخـــذا عظيما . ومر بباب القلعة فعرفه الحراس ولم يعترضوا سيره .

خرج الى القاهرة والطريق مظلم الا من بعض المصابيح بأبـــواب المنازل ، وما زال ماشيا والرسول معه حتى وصل الى باب كبير وقـــف الرسول عنده واستوقف الامير ريثما طرق الباب ، ففتحت طاقة فيه وأطل منها عبد خصي يسأل عن الطارق فأومأ اليه الرسول فوسع له ولرفيقه ، فدخل ركن الدين الى حديقة مظلمة ، لولا شموع مضيئة لكان الظلام حالكا . على ان ذلك النور الضعيف زاد المكان وحشة لانه جعل ظلال الاشجار تظهر متكاثفة متلبدة . فلما رأى نفسه في ذلك المكان ندم على مجيئه ، وتوهم اشياء كثيرة بعضها يوجب القلق ، ولكنه تجلد ومشى بقدم ثابتة لا يبالي ما قد يتهدده ، وهو لم يتعود الخوف ، لكنه خاف الفضيحة لعلمه بما بين صاحبة هذا المنزل وعز الدين من العلائق .

وكان الرسول قد تقدمه لينبىء بوصوله ، فما كاد ركن الديـــن يتوسط الحديقة حتى عاد الرسول وأشار اليه ان يتبعه ، فتحول به الى قاعة منفردة قد أضيئت فيها الشموع على منائر فـــي وسطها ، وفرشت ارضها بالبسط والوسائد ، وأدهشه ما شاهده بين الاثاث من الآنية التي

كان يراها في قصور الملك الصالح قبل هدمها وتخريبها ، وتأكـــد ان عز الدين جاء سلافة بهذا الرياش ، لانه هو الذي خرب تلك القصور واستأثر بأنقاضها ورياشها .

استقبلته سلافة بباب القاعة وقد لبست أثمن ما عندها من الحلـــي والثياب ولم تتنقب الا قليلا ، وكان قد تنسم رائحة الطيب قبل ان يراها فلما تلاقت عيناهما زاد ندمه لمجيئه لانه توهم شركا يخاف الوقوع فيه .

أما هي فاستقبلته بالسلام والترحيب قائلة : «قد أزعجناك ايهـــا الامـــير» .

قال : «العفو يا سيدتي ، اني مسرور من هذه الفرصة فعســـى ان استطيع اداء خدمة او قضاء طلب» .

فمدت يدها للسلام عليه فمد يده وصافحها فوجد اناملها باردة كالثلج وفيها رعشة أثرت فيه ، لكنه تشاغل بالثناء على ترحابها ، ثم مشت به وهي قابضة على يده حتى وصلت الى مقعد في صدر القاعة ، فأشارت اليه ان يجلس فجلس وقد اقشعر بدنه من لمسها ، فأفلتت يده وجلست بين يديه على وسادة ، وهي تنظر اليه وترحب به ، وهو ينتظر ان تفاتحه بما دعته من اجله ، فلم تزد على الترحيب والمؤانسة . فلما ابطأت عليـــه قال : «جئت طوعا لأمرك ، فهل من خدمة اقضيها لك ؟»

قالت : «بل انا في خدمتك يا ركن الدين ، ولعلك لم تكن عالمـــا بوجودي قبل هذه الليلة ولم أخطر ببالك . وأما انت فلم تبرح مـــن فكري لحظة ، وأنا أتتبع خطواتك منذ أعوام» . قالت ذلك واحمـــرت وجنتاها وبرقت عيناها ، وكانت جميلة فزادها ذلك جمالا .

أما ركن الدين فلم تعجبه هذه الفاتحة لانه في شاغل عن المغازلة ، وكان يسمع بجمال هذه المرأة ويعرف عنها بعض الشيء في حياة الملـــك الصالح ، ولم يكن امرها يهمه ، ولاسيما في تلك الليلة وهو في ذلك

الاضطراب . فلما سمع قولها اطرق وقال : «العفو يا مولاتي ، كنت أسمع بمنزلتك الرفيعة عند مولانا الملك الصالح ، ولكن الاحوال لم تأذن بالتعارف» .

قالت وهي تتظاهر بالخجل والحياء : «هذا صحيح بالنظر اليك وحدك ؛ اما انا فقد عرفتك جيدا ، وطالما راقبت دخولك قصر الروضة وخروجك منه ، وكثيرا ما كنت أسهر الليل بطوله أنتظر مرورك في الحديقة لأراك من وراء الستائر» .

فاستغرب ركن الدين هذه المشاكاة وتجاهلها وقال : «ان ذلك فضل منك يا سيدتي ، وأتأسف لاني لم اكن أعلم به» .

فقالت : «ألم تعلمه الان ؟ ارجو الاغضاء عن جسارتي يا ركن الدين ولا تكن قاسيا» .

فلما سمع هذا التعريض أجفل وأسف لمجيئه وقال : «العفو يا سيدتي، لم اكن أتوقع ان أسمع هذا وأنا أعلم ان مولانا الامير عز الدين يتردد الى هذا المكان وهو صاحبه» .

فتنهدت وقالت : «مولاك، او مولاي الامير ، لا يستحق هذه الحظوة، دعه وشأنه ؛ مالنا وله ؟»

نظن ركن الدين انها تريد ان توقعه في الفخ لتستخدمه في مهمة لها كما فعلت بسحبان ، فصمم على الرفض وسرعة التخلص فقال : «ألهذا دعوتني يا سلافة في هذا الليل ؟»

فأجابته وعيناها ذابلتان وقالت : «وهل هذا امر قليل الاهمية في نظرك يا حبيبي ؟»

فنهض وهو يقول : «ليس قليل الاهمية ، ولكنني في شاغل عنه الان يا سيدتي» . وهم بالاستئذان في الانصراف .

فنهضت ووقفت في طريقه وقالت : «ما الذي يشغلك عني . لم يبق

الان ما يشغلك يا قاسي القلب ، لين القاهرة من بغداد ؟»

فأدرك انها تشير الى شوكار وأخذها الى بغداد ، فنفرت نفسه منها وقال : «ما زلت في شاغل ، ارجو يا سيدتي ان تأذني في انصرافي ناشدتك الله» .

فأمسكت يديه بكلتا يديها وقالت : «تمهل يا ركن الدين ، لا تسرع في الرفض واتنبه لنفسك ، واعلم ان سلافة وحدها تقدر ان تنيلك مرامك . مالك وللعناء ؟ انت في حاجة الى من يضع يده بيدك ، واذا القيت الوقود في النار نفخ فيها وأشعلها حتى ينضج الطعام» . ونظرت في عينيه وابتسمت . فعلم انها تشير الى تفضيل نفسها على شوكار فقال: «بالله دعيني أنصرف لاني في شاغل ذي بال» .

قالت : «انا أعلم بشواغلك ، اما شوكار فلا سبيل اليها ابدا و ..»

فلما سمع تصريحها فجأة اجتذب يديه من يديها وقد غضب وقال : «ما الذي حملك على ذكر هذه الفتاة الان ، مالنا ولها ؟»

قالت : «كيف لا أذكرها وهي سبب قلقي وعلة شقائي ؟ لكنها الان بعيدة عنا» .

فقال : «اذا كانت بعيدة الان فانها ستكون بعد قليل قريبة باذن الله» .

قالت : «من قال لك ذلك فقد خدعك . ان شوكار اصبحت في غير هذا العالم يا ركن الدين ، وقد نصحتك فانتصح» .

فاقشعر بدنه عند سماع هذا الكلام وحملق فيها وقال : «اطلب اليك ان تكفي عن هذا القول وتدعيني وشأني ، دعيني أذهب بسلام» . قال ذلك وقد مال الى تصديق قولها لكثرة ما عرفه من دهائها وعلاقاتها ببغداد ونفوذها هناك ، وبخاصة لانها لم تستقدمه اليها الا في الليلة التي جاء فيها ذلك الكتاب من شوكار تشكو فيه الخطر ، فقام في ذهنه ان سلافة تعرف حقيقة حال شوكار ، فقعد وأشار الى سلافة ان تقعد وأظهر

الجد وقال : «يا سيدتي ارجو ان تصغي لما اقوله لك ، وقد علمت من كثيرين بما لك من المنزلة العالية والكلمة النافذة في قصور امير المؤمنين ببغداد ، فأرغب اليك ان تساعديني في امر يهمني هناك» .

فقطعت كلامه وقالت : «اني طوع ارادتك في كل ما تريد ، ولا أنكر عليك ما لي من الكلمة النافذة ، ولعلك تعلم ان ما حدث من العزل والتنصيب بمصر انما كان على يدي» .

فلم يخامره شك فيما تقوله ، واعتقد انها تقدر ان تفعل كل ما ادعته وهو طامع في السيادة ، لكنه أحس بشيء حال بينه وبين تلك المطامع ، وأصبح همه انقاذ شوكار فقال : «اشكر لك تفضلك ، ولا ريب عندي في صدق ما تقولين ، ولا أظنني أستغني عن يدك في بعض هذه الامور لكنني اطلب الآن امرا واحدا فهل تقضينه لي ؟»

قالت : «أقضيه على الرأس والعين» .

فقال : «أريد ان أسترجع شوكار من بغداد الى هنا» .

فتغيرت سحنتها وقطبت حاجبيها ونظرت اليه شزرا وصاحت : «لله انت من امير عاقل ! أبعد ما ذكرته لك تعود فتسألني استرجاع هذه المغنية من بغداد ، وقد قلت لك انها ليست هناك ؟»

فقال : «اين هي ؟ في مصر ؟» . قالت : «ولا في مصر انها غير موجودة في مكان . ألم يأتك خبرها ؟»

فلما سمع سؤالها أجفل وتحقق انها عالمة بما اصابها فصاح فيها : «لم يجئني خبر بسوء اصابها كما تقولين» .

قالت : «انها لن ترجع اليك ابدا ، ولو علمت انها ترجع لأعدتها على أعقابها بيدي ، وهل قذف بها الى تلك الديار غيري ؟»

فاعتدل في مجلسه واستغرب تصريحها وقال : «انت أرسلتها الى هناك ؟ ما الذي كان يضرك لو بقيت هنا ؟ انها لا تزاحمك في نعمة» .

فنهضت وهي تشير باصبعها اليه وقالت : «انها تزاحمني عليك يا ركن الدين !» . وغصت بريقها وبان الهيام في عينيها .

فظنها تتقرب اليه تزلفا لغرض تريد ان يقضيه لها فقال : «بالله يا سلافة لا تطيلي تعذيبي . اذا كنت تريدين مني خدمة أقضيها لك قضيتها حبا وكرامة ، وانما اطلب منك ان تساعديني في استرجاع شوكار» .

فنظرت في وجه نظر المتفرس وقالت : «ويلي منك يا رجل ويـــا لشقائي ! أترامى عليك وأصرح لك بما في قلبي وأنت تنصم أذنيك عني ، مع علمك ان اكبر أمرائكم يتمنى رضاي ؟» . ثم امسكت عن الكلام لان الدموع اوشكت ان تغلبها وحولت وجهها عنه خجلا .

فأشفق عليها وقال : «اني مقدر تنازلك حق قدره ، وأشكرك عليه شكرا جزيلا ، لكنني طلبت منك خدمة انت قادرة عليها و ..»

فقطعت كلامه قائلة : «اني رهينة امرك في كل شيء الا في هذا . يهون علي ان اجعلك سلطانا على مصر ، وأما استرجاع تلك المرأة فــلا يمكن ، ألم تفهم بعد ؟»

وكان ركن الدين صاحب مطامع ، ولم يكن شديد التعلق بشوكار ، فكان المتوقع فيما تعرضه عليه سلافة ان ينصاع لها ويستعين بها فـــي تحقيق مطامعه ، لكنه بعد ما سمعه منها ضد شوكار أحس بميل جديد الى هذه سيما ان ارسالها الى بغداد انما كان بسببه ، كما صرحت له الان سلافة ، فأصبح في حيرة ، وأطرق يفكر فيما رآه وسمعه وفيما مر به في ذلك الليل من الغرائب ، واستعظم ما سمعه من تصريح سلافة وتحببها له ، وحدثته نفسه لحظة ان يسايرها لانها قد تساعده في نيل مطامعه ، لكنه تذكر كتاب شوكار الذي جاءه في ذلك المساء وما فيه من دلائل التعلق به ، فأبت نفسه ان يساير عدوتها اللدودة .

وبقي مطرقا يفكر وسلافة تنظر اليه وتراعي حركاته وتكاد تلتهمـــه

ببصرها ، ورفع نظره اليها فرأى في عينيها معنى لا يعبر عنه بالكلام ، وأحس بحرج الموقف ، ولم ير بدا من تأجيل الكلام الى فرصة اخرى لانه لفرط ما انتابه من التأثيرات المتضاربة أحس ان عقله قد أصيب بالكلال ، فأحب ان يؤجل الحديث ريثما يستريح وينظر بماذا يجيب .

فنهض وقد بانت الحيرة في عينيه ونظر الى سلافة وابتسم لها ابتسامة شكر وقال : «أشكر لسيدتي حسن ظنها بي فاني لا أستحق شيئا من هذا الالتفات ، وأستأذنها في الانصراف» . قال ذلك وانحنى مودعا ومد يده ليصافحها .

فأبعدت يدها عنه ، وخبأتها وراء ظهرها ، وتراجعت ولم تجب بفيها، لكنها اجابت بنظرة أفصح من الخطاب انها عاتبة آسفة لسوء حظها معه، وان قلبها لا يطاوعها على الفراق . فخطا خطوة اخرى نحوها وقـــال كالمستعطف : «بالله يا مولاتي ائذني في انصرافي الساعـــة فقد تعبت وأصبحت في حاجة الى الرقاد ..»

قالت وهي تهز رأسها : «لله ما اسوأ حظي !. أشكو لك غرامـــي وأنت تشكو حاجتك الى النعاس ؟!» . قالت ذلك وتحولت عنه ومشت خطوة ، ثم التفتت نحوه ورمته بنظرة كالسهم اصاب صدره ، وان لم يؤثر فيه كثيرا وقالت : «سر يحرسك الله ، سر الى فراشك ايها الامير، ولا تظن فشلي هذا يذهب هدرا» . ودخلت مخدعها مسرعة .

وانصرف ركن الدين ، وقضى معظم الطريق وهو يردد كلامها ويفسر نظراتها ويعلل حركاتها ، وقد عظم امرها في عينيه ولاسيما بعد ان تذكر ما سمعه عن نفوذها في بغداد ، وأصبح في خوف على شوكار منها ، ولم يبق عنده شك ان شوكار انما اصابها ما اصابها في سبيله فهو السبب في شقائها ، وان وجودها في بغداد اصبح بعد هذه المقابلة اكثر خطرا . وخيل اليه ان سلافة لا تلبث ان تبذل جهدها في ايصال الاذى اليهـــا

بسببه ، فأحس بالتبعة التي تحملها بمجافاة سلافة لانه سيبعثها على تعمد الاذى لشوكار ، وشعر بقشعريرة وقف لها شعره .

وكان قد دخل باب القلعة ودنا من غرفته ، ففتحها له الخادم وأضاء المصباح فأخذ في خلع ثيابه ، ثم وقع نظره على كتاب شوكار فأعاد قراءته فكان تأثيره في هذه المرة أشد من تأثيره الاول كثيرا ، وغلبه العطف على شوكار ، وأيقن انه لا يرتاح باله الا اذا نجاها من ذلك الضيق ، وهو لا يقدر ان يعهد في هذا الامر الى احد ، ولاسيما بعد تهديد سلافة ، فأخذ يفكر في السفر الى بغداد .

وبينما هو في ذلك اذ سمع أذان الفجر فتوسد الفراش التماسا للراحة ، وكان نومه مضطربا متقطعا ، ولم تبرح صورة شوكار من خاطره لحظة . ولما نام رآها في الحلم حزينة باكية تعاتبه لانه شغل عنها بسلافة ، فأثر هذا الحلم في خاطره تأثيرا شديدا . ولما أفاق من نومه وطن عزيمته على الاخذ بناصرها .

وأصبح في اليوم التالي ورسولها ببابه يطلب جوابه على كتابها ، فأدخله اليه وسأله عن سفره الى بغداد وكيف يكون ؟ وكان ركن الدين قد سافر اليها مرة وعرف اهم طرقها وأحيائها ، ثم زوده بكتابه الى شوكار وبالغ في اكرامه وملاطفته . فسأله الرسول اذا كان عازما على السفر الى بغداد .

فقال : «سأنظر في ذلك» . وصرفه بعد ان عرف منه المكان الذي يجده فيه اذا سافر الى هناك .

اما سلافة فلا تسل عن غضبها لما لقيته من تردد ركن الدين لانها كانت تحبه من كل قلبها ، وكانت تحسب مكاشفتها اياه بحبها كافية لتجعله أسير هواها ، فاذا هو يتردد ويظهر ميله الى شوكار ، وهي لا تستطيع ان تتصور وجودها لانها تزاحمها على حبه ، وكانت قد علقت به

وهو لا يعلم ، وتحينت فرصة لمفاتحته في امرها ولكنها رأت شجرة الدر اجتذبته لنفسها ، فكان ذلك في جملة ما حملها على مقاومتها ، وبلغها امر خطبته شوكار فجعلت رسائلها الى بغداد تتضمن التخلص من الاثنتين معا ، فأنزلت شجرة الدر عن العرش ، وأبعدت شوكار الى بغداد . وتقربت الى عز الدين لتفسد ما بينه وبين شجرة الدر عدوتها ومناظرتها وأفلحت في ذلك ، ولم يبق لاتمام سعادتها الا ان تسترضي ركن الدين ليكون لها .

وكانت الاخبار تأتيها من بغداد متواصلة ، فوصلها في صباح ذلك اليوم خبر ما اصاب شوكار في بغداد ، فتسلحت به بحيث يقطع ركن الدين كل امل في بقائها فيتحول اليها ، وعزمت على بذل جهدها في اسعاده وتقديمه ، ووطنت نفسها على الاكتفاء به ، فلما رأت منه ما رأته غضبت وانقلب حبها الى حقد ، وعزمت على مناوأته ان لم يرجع الى صوابه ويسترضيها !

فلنترك القوم في مشاغلهم بمصر وننتقل الى بغداد .

- ٧ -

في بغداد

بلغت بغداد اقصى عمرانها في ايام المأمون ، حتى امتدت ابنيتها وبساتينها الى نحو ١٦٠٠٠ فدان . وقد كانت مدنا متلاصقة .

وهي واقعة في الجانب الغربي لنهر دجلة ولا تزال المدينة التي بناها

المنصور هناك باقية بشكلها المستدير .

اما في زمن روايتنا ، في القرن السابع للهجرة ، فقد تبدل حالهـــا وانتقلت اكثر عمارتها الى الجانب الشرقي من حيث قصـــور الخلافة . وأمحت مدينة المنصور ، وتدهورت حالتها الاجتماعية بعد ان كانت في القرون الاولى من بنائها أم المدائن ومهبط التجارة ومجتمع العلمـــاء والشعراء وموئل طلاب الثروة والجمال ، على انها بعد ان ضعف شأن الخفة فيها تسربت اليها الدسائس وقامت الفتن بين اهلها ، وأهمها الشقاق بين اهل السنة والشيعة ، فلم تكن تمضي سنة لا يقع فيها بين الطائفتين قتال تتوسط الحكومة في شأنه . وكانت هذه سنية فكان الضغط يقع غالبا على الشيعة ، وكانوا يقيمون في الكرخ والكاظمية وهم صابرون على ما يكابدونه من الاضطهاد ، والحكومة مع ذلك توليهم مصالحهـــا وتعهد اليهم في تدبير شؤونها .

وكان هذا الشقاق سببا في سقوط بغداد ودخولها في حوزة التتر على يد هولاكو ، وذلك طبيعي في تاريخ الدول . واذا تدبرت اسبـــاب الانقلابات السياسية التي تنتقل بها السيادة من دولة الى دولة . وجدت معظمها يرجع الى انقسام ابناء البلاد فيما بينهم بالمشاحنـــات الدينية او الاغراض السياسية حتى يستولي القنوط على الفئة الضعيفة اذا غلبت على امرها فتستنجد بالغرباء ليأخذوا بناصرها . ثم لا يزالون يتحينون الفرص حتى تصير الدولة اليهم . وتكاد لا تجد انقلابا سياسيا في تلك العصور يخرج سببه عن نحو ما تقدم .



وكان على دجلة جسران موصلان بين شرقي المدينة وغربيها ، وكل

منهما مبني من أخشاب مفروشة على سفن مستديرة الشكل ، وأهمهما منصوب بين حي قصر عيسى والرصافة ، ينتقل عليه الناس والدواب .

وكان على ضفاف دجلة في البر الشرقي قصور الخلفاء وأهم ابنية بغداد ، وأشهرها قصر التاج والقصر الحسني ، والمدرسة المستنصرية التي بناها المستنصر بالله والد المستعصم بالله الذي تدور في زمانه حوادث هذه القصة ، والمدرسة النظامية ، وقصر الريحانية ، وقصر الفردوس .

وأقربها من طرف الجسر الشرقي قصر لا اسم له كان يقيم فيه مؤيد الدين ابن العلقمي وزير المستعصم ، وكان من اهل الكفاءة والدهاء ، ولكنه كان نصوحا مخلصا يرى ما في الدولة من الاضطراب ويبذل جهده في النصح للخليفة وتنبيهه الى ما يعود بالصلاح عليه وعلى الدولة . وكان المستعصم ضعيف الرأي لكنه حسن الظن بوزيره فكان يصغي لنصائحه في اكثر الاحيان .

غير ان ذلك لم يكن ضامنا للخير منقذا من الخطر ، لان الرأس اذا كان مختلا اضطربت سائر الاعضاء ، ويغلب في مثل هذه الحال ان ينقاد الى المتملقين وذوي الاغراض من اهل الدولة او العصبية ، فيغتنموا فرصة ضعفه ويعيثوا في الارض فسادا لارواء مطامعهم ، وهو لا يسمع فيهم لوما ولا يصغي الى انتقاد .

تلك كانت حال المستعصم في ذلك الحين ، حتى اصبح ألعوبة بين أيدي أعوانه ورؤساء قصوره ، لانه كان منغمسا في الترف شديد الكلف باللهو واللعب وسماع الاغاني ، لا يكاد مجلسه يخلو من ذلك ساعة . وكان ندماؤه وأعوانه منهمكين معه في الملاذ لا يرجون له صلاحا .

وزاد الطين بلة ان هولاكو التتري حفيد جنكيزخان كان قد أسس دولة عرفت بدولة ايلخان او مغول الفرس ، فلما استقر له الامر في فارس طمع في بغداد وأخذ يستعد للحملة عليها ، فاتفق انه وهو يحارب

الاسماعيلية في فارس ويحاصر قلاعهم كتب الى المستعصم يستنجده ، وأراد هذا ان ينجده فمنعه أمراؤه من ذلك مخافة ان يكون قصد هولاكو الخديعة لتخلو بغداد من الرجال فيملكها بسهولة . ثم فتح هولاكو تلك القلاع وبعث الى المستعصم يعاتبه فأشار عليه الوزير ابن العلقمي ان يسترضيه بالهدايا والاموال فأطاعه وأخذ في تجهيز هدية من الجواهر والمماليك والجواري ، فاعترض الداودار (قائد الجند) وطعن في نيـة الوزير وقال : «انه يروم تسليم الدولة الى التتر» . فكف الخليفة وأرسل هدية يسيرة . فغضب هولاكو وبعث الى الخليفة انه لا يرضيه الا اذا اتى هو بنفسه للاعتذار او ان ينيب عنه الوزير او الداودار ، فأرسل اليه أناسا لم يقبل هولاكو نيابتهم واتخذ ذلك ذريعة للحملة على بغداد .

ولم يدرك المستعصم حقيقة غرضه ، ووقع ابن العلقمي في حيرة من امره فكان يكثر التفكير في مصير هذه الحال ، ويرى الخطر محدقـــا بالدولة فينصح ويحذر بلا جدوى . وكانت رسل هولاكو تأتيه سرا تحمل اليه كتب التحريض على الخروج اليه او مطاوعته في تسليم بغداد ويعده الوعود الكثيرة . وهو يتردد ويصبر لعل الخليفة يصغي لنصحه، وكان اذا لقي المستعصم وخاطبه في ذلك وعده ان يعمل برأيه ثم لا يلبث بعد ان يفارقه حتى يرجع عن وعوده بما يدسه بعض الاعوان مـــن الدسائس على ابن العلقمي ويتهمونه بالخيانة لانه شيعي .

وكان كبار الشيعة من الجهة الثانية يحومون حول ابن العلقمـــي يشكون اليه ما يقاسونه من الاضطهاد والعسف من ابن الخليفة ، حتى اصبحوا لا يأمنون على اموالهم ولا على أعراضهم ، وهم يقيمون فـــي الجانب الغربي من بغداد وأكثرهم في الكرخ والكاظمية ، وابن العلقمي يخفف عنهم ويعدهم خيرا ، لكنه كان يتجنب الاجتماع بهم جهارا خوفا من وقوع الشبهة عليه ، فلم يكن يأذن لاحد منهم ان يزوره الا خلسة،

لان جواسيس المستعصم مبثوثون حوله يعدون عليه أنفاسه .

★ ★ ★

أصبح ابن العلقمي ذات يوم وقد عظم الامر على نفسه ، ونفر من العمل وهو لا يرى فيه مصلحة له ولا للدولة ، فاعتكف في منزله ، وكان في قصره شرفة مرتفعة تطل على دجلة والجسر والرصافة والكرخ جميعا ، كان قد بناها لهذا الغرض ، فصعد اليها وأمر الخدم ألا يزعجوه كأنـــه مريض لا يقدر ان يقابل احدا .

صعد الى الشرفة وقد التف بعباءة خفيفة واعتم بعمامة صغيرة، وكانت الشرفة كالمصطبة او المنظرة عليها الوسائد والطنافس وبعـــض ادوات التسلية لمن شاء من زائريه ، وبينها رقعة من شطرنج موضوعة علـــى وسادة فجلس بجانبها . وكانت هذه اللعبة كثيرة الشيوع في بغداد تلذ لاصحاب العقول المفكرة ، ولاسيما الذين يهتمون بالسياسة ويحتاجون الى الحيل العقلية ، وهو يومئذ في تردد واضطراب ، فأخذ ينظر في تلك الرقعة ويتسلى بنقل أحجارها على سبيل التجربة، فلم تجد نفسه راحـة في ذلك .

فانتقل الى دكة في صدر المنظرة تطل على بغداد ، وكان الجو صافيا فألقى نظره على تلك المدينة التاريخية يخترقها نهر دجلة المبارك ، وعلـى ضفتيه العمائر من القصور والمدارس والمستشفيات والمساجد والحمامات والبساتين والترع والجسور والطرق والدروب والاسواق مما يشغـــل الخاطر ، واستحضرت ذاكرته تاريخ بناء هذه المدينة وسبب بنائها منـذ خمسمائة سنة ونيف ، ومن توالوا عليها من الخلفاء ، وما تقلب عليهم من الاحوال ، وما بلغت اليه في ايام الرشيد من اسباب الحضارة ، يوم

كانت عاصمة الاسلام في أقطار الارض ، تجبى اليها الاموال من معظم العالم المعمور ، من تركستان الى المحيط الاطلانطي ، ويتوافد اليها ملوك الارض يخطبون ود صاحبها ويتزلفون اليه .

ثم صدمته فجأة نكبة البرامكة وما كان من ذلهم بعد عزهم وهم اصحاب الفضل الاول في تلك الحضارة ، وما عقب ذلك من الفتنة بين الامين والمأمون ومن قتل في سبيلها من الانفس .. الى اخر ما حدث من تقلبات السياسة حتى صارت الدولة العباسية الى التقهقر .

وبينما هو يفكر في كل هذا اذ سمع لغطا في داره كأنه لجاج وجدال، فأصغى فسمع رجلا يطلب ان يقابله والخدم يقولون له : «ان مولانا الوزير في شاغل عن المقابلة» .

فاستأنس بذلك الصوت وظن انه يعرف صاحبه ، فجذب حبلا بجانبه متصلا بالطبقة السفلى من القصر فدق جرسا هناك ـ وهي اشارة الاستدعاء عندهم ـ فجاءه غلام من غلمانه ، فسأله سبب الضوضاء فقال : «ان رجلا غريبا يطلب ان يرى مولانا ، ولم يصغ الى قولنا» .

فقال : «قد سمعت صوته وأظنني عرفته ، لا بأس من ادخاله» .

فعاد الغلام بعد قليل ووراءه رجل عليه ثياب الفرس ووجهه فارسي ، فحالما رآه مؤيد الدين عرفه فرحب به وقال : «مرحبا بسحبان» .

فأكب سحبان على يد الوزير يهم بتقبيلها فمنعه الوزير من ذلك وصافحه وأجلسه بجانبه وأمر الخادم بالانصراف وقال : «منذ متى جئت ؟» . قال : «جئت بغداد مساء امس يا سيدي» .

قال : «من اين اتيت ؟» . قال : «من القاهرة» . قال : «أذكر انى رأيتك هنا من عهد غير بعيد» .

قال : «نعم يا مولاي كنت هنا وسافرت ثم عدت ، حين نفدت بضاعتي لاشتري سواها ، وتعب السفر لا يهمني كثيرا» .

فابتسم مؤيد الدين وقال : «انقطعت للتجارة يا سحبان ؟»
فضحك ضحكة اغتصابية وقال : «وهل ترى فائدة من سواها ايها الوزير ؟ »

فأدرك ابن العلقمي انه يشير الى الوزارة التي هي عمله فقال : «صدقت ، لا فائدة من سواها ، ولا خير في اعمال الحكومة ، حتى الوزارة فان صاحبها متعب القلب بلا فائدة ، مضت ايام الوزارة الحقيقية و ...» . وسكت كأنه خاف التصريح بما في خاطره ، فقال سحبان : «الوزارة ارقى مناصب الدولة ، والوزير هو صاحب الحل والعقد ، لكن يشترط ان ...» . وبلع ريقه وسكت وهو يخرج منديله ليتشاغل به .

فقال مؤيد الدين : «ماذا يشترط يا صاحبي ؟ هل تحسب وزير اليوم كما كان في صدر هذه الدولة ؟» . فقطع سحبان كلامه قائلا : «بل ينبغي ان يكون اليوم أقدر منه في تلك الايام لضعف الخلفاء» .

فهز مؤيد الدين رأسه وقال : «ولكن هؤلاء الضعفاء لا يسمعون نصيحة ، لانهم يصغون الى خدمهم وخصيانهم» .

قال : «أليس عندك علاج لهذا الضعف يا سيدي ؟» . قال ذلك وبان الجد في عينيه . فقال مؤيد الدين : «وأي علاج تعني ؟» . قال : «أعني علاج هذا الضعف ، هذا الرجل عضو فاسد ، والجراح يشير بقطع العضو الفاسد لئلا يجر الفساد الى سائر البدن» . وحدق في وجه الوزير يستطلع رأيه .

فأكبر ابن العلقمي هذه الجسارة بين يديه ، فنظر اليه نظر المنكر العاتب . وقبل ان يقول كلمة تصدى سحبان وقال : «انك تعد قولي جسارة او وقاحة سمه كما تشاء ، ولكنني اقول ما اشعر به ، ونحن مشتركان في الامر ، وبيدنا مفاتيح النصر لا ينقصنا غير الحزم .. تشبه اذا شئت بخلفاء صدر هذه الدولة وكفى» .

فالتفت مؤيد الدين الى ما حوله كأنه يحاذر ان يسمعهما احد ، ثم نظر الى سحبان قائلا : «لا أوافقك على ما تقول ، ولم افهم ما تشير اليـه » .

قال : «أجلك عن ان يفوتك مرادي ، ولكنك ترى من السياسة ان تتجاهل . اني أشير الى ما فعله الرشيد بجعفر ، ألم يقتله ويقتل البرامكة لانهم شيعة ، ولانه خاف ان يكون منهم سوء على سلطانه ، وقد اساء بقتلهم الى دولته والى نفسه . اما انت فاذا انتقمت للشيعة بهذا الحزم فانك تنجي هذه البلاد من الخراب» .

فاستعظم مؤيد الدين هذا التصريح وقال : «دعنا من هذا الكلام يا صاحبي اذ لا فائدة منه ، وأرى انك متألم من امير المؤمنين او بعض اهله فأردت ... »

فقطع سحبان كلامه قائلا في تأثر ظاهر : «كلا . لا اقول ما اقوله عن غضب او نقمة ، وليس بيني وبين هؤلاء علاقة شخصية ، لكنني غضبت لقومي وملتي ، غضبت للنفوس التي تقتل والاعراض التي تمزق لا لشيء سوى حبها للامام علي وسائر اهل البيت» .

ولم يكن مؤيد الدين أقل منه غضبا ونقمة لكنه كان حذرا متأنيا فقال: «خفف من حدتك يا سحبان ، ودعنا الان من هذا الحديث . ان الامور مرهونة بأوقاتها» .

قال : «لا ارى وقتا أنسب من هذا ، ان هذا الامر اذا كان مرهونا بوقت فهذا هو وقته .. اسألني وأنا اجيبك » .

قال : «لا أجهل ما يجول في خاطرك ، لكنني لا ارى هذا وقته» .

قال : «لا أظنك فهمت مرادي تماما ، عندي مشروع اخر غير الذي تعرفه ، غير هولاكو ..»

فلما سمع الوزير هذا الاسم أجفل لانه ما برح نصب عينيه منـــذ

اشهر ، وهو سبب تردده ، فقال : «ما هو ؟»

قال : «أشكر لك اصغاءك يا سيدي ، الامر الذي عندي يوصلنا الى المطلوب رأسا ، أعني اننا نحيي الدولة العلوية في بلد ظل مقر العلويين نحو مائتي سنة» .

فقال : «أظنك تعني مصر ، اين نحن منها ؟ وقد تسلط عليهـــا الاتراك و ...»

قال : «انا أعلم منك بحالها لاني جئت من هناك امس ، وأنا لا أسافر وأجيء للتجارة ، لكنني أريد حياة قومي ونصرة الأئمة المظلومين ، انا في مصر منذ أعوام ، وقد عرفت دخائلها ، وهي في يدي كما اشاء» .

فضحك ابن العلقمي وقال : «ما أوسع احلامك وما اكثر أوهامك ! كيف خيل لك الغرور هذا ، حتى توهمت مصر في قبضة يدك ، وهـي فوق ذلك سنية المذهب ورجال دولتها كلهم من الاتراك السنيين ؟»

قال : «انا اعلم ذلك يا سيدي . ولكنهم منقسمون على السيادة ، وطالب السيادة الآن رجل حازم ناقم على السلطان الحاضر في مصر لانه ساءه بأمر له ارتباط بقلبه فهو يبذل جهده في غرضنا ، وهو ناقم ايضا على خليفتك هذا لانه اخذ خطيبته منه ، ولا يلبث ان يأتي للانتقام ، فاذا ساعدناه على قتل هذا الخليفة وبايعناه سلطانا على مصر أطاعنا في اعلان الخلافة الفاطمية بمصر ، فنعود الى عزنا ونتخلص من هؤلاء الظالمين» .

وأبرقت أسرته كأنه نال ذلك فعلا ، فقد كان من اهل الخيال وأصحاب الاوهام الذين يستسهلون الصعب ويتوهمون وقوع المحال ، اذا تصور احدهم امرا يتمنى حدوثه تذرع الى تصديقه بأوهى الاسباب وأغضـى عما يعترضه من العقبات او يحول دون الحصول عليه من الموانـــع الطبيعية ، وهذه الفئة من الوهميين كثيرة ، وبخاصة في بلاد المشرق . ولعل الفرق بين النجاح والفشل انما هو في تقدير الحقيقة حق قدرهـا

والاحتياط للحوادث قبل وقوعها .

اما مؤيد الدين فانه كان من اهل التدبير والحزم ، ينظر في العواقب ويتدبرها ولا تأخذه الاوهام ، ولولا ذلك لم يصل الى منصب الوزارة في دولة مذهبها غير مذهبه وبين قوم يكرهون الشيعة ويفتكون بهم . فلما سمع كلام سحبان استخف برأيه ، وبخاصة لان ابن العلقمي لم يتطوح بمطامعه الى هذا الحد لعلمه بعجز الشيعة عن النهوض ، ولكنه كان يكتفي بأن يبدل خليفة بخليفة ، فلم يشأ ان يفاتح سحبان بهذا الامر وعمد الى الاختصار في الحديث فقال : «سننظر في ذلك في وقت اخر».

فأحس سحبان بما يضمره من احتقار رأيه فقال : «يظهر انك لم تكترث لقولي ، او لعلك استبعدته ، ولو عرفت الاسباب التي عندي لوافقتني » .

قال : «نعم يا صديقي ، رأيت مطمعك بعيدا يكاد يكون محالا» .

وكان سحبان يحترم رأي مؤيد الدين فقال : «اذا كان رأيي ضعيفا فأسمعني رأيا خيرا منه ، ام انت ترى ان نبقى في هذا الذل الى الموت ونحن سكوت ؟»

قال : «كلا . لا ينبغي ان نبقى كذلك ، لكن علينا ان نفكر ونقيس ونحتاط لا ان نرمي الكلام على عواهنه ونطلب المحال» .

قال : «اذن يا سيدي ما هو المُمكن من ذلك ، وما هي الطريقة للنجاة ؟ »

قال : «لقد احرجتني واضطررتني للكلام يا سحبان ولم اكن احب التصريح بما في خاطري الان ، فاعلم اننا نحن الشيعة لا ينبغي لنا ان نطمع في اعادة دولتنا اليوم لان الاسباب لا تساعدنا على ذلك ، ولكن لا بد من ان يأتي يوم يتمكن فيه ابناؤنا منه . اما الان فيكفينا تغيير هذا الخليفة الضعيف المشتغل باللهو والغناء بخليفة عاقل حازم ينصفنا . هذه

هي الخطة التي يجب ان نضعها نصب أعيننا» .

فأطرق سحبان وهو يعمل فكرته ، وقد استصغر نفسه واستضعف رأيه ، وكان مع قربه من التوهم سريع التقلب سهل الانقياد ، فاستصوب رأي ابن العلقمي وقال : «صدقت يا سيدي انك في الحقيقة وزير مدبر عاقل . قل لي ما هي المعدات التي أعددتها لتنفيذ هذا المشروع ؟»

فنهض مؤيد الدين وهو يظهر انه مل الحديث ، او انه لا يريد التصريح بأفكاره لسحبان ، ووجه التفاتة الى جسر بغداد القائم على السفن المستديرة فاذا هو يعج عجيجا بالناس على غير المعتاد ، وقد تزاحمت عليه الاقدام ، وأكثر المشاة يركضون كالهاربين من حرب ، فلم يستطع ان يتبين الوجوه ، لكنه توسم في الامر شيئا مهما ، والتفت نحو سحبان فرآه اكثر منه دهشة ، وكان احد منه بصرا فصاح : «ألا ترى يا مولاي ؟ ألا ترى ؟ هؤلاء أجناد الخليفة لعلهم عائدون من حرب يجرون وراءهم الاسرى والسبايا» .

فقال وقد أجفل : «وأي حرب ؟»

قال : «لا أدري ، ولكنني ارى جندا وهذه راياتهم امامهم ، واذا صدق ظني فاني ارى راية الداودار في مقدمتها ، وقد أذكرني ذلك بما كنت اراه من تعدي هؤلاء الاجناد على قومنا في الكرخ والكاظمية» .

فحدق مؤيد الدين في المازة فلم يستطع ان يتحقق شيئا ، واذا هو يسمع ضوضاء في داره أشبه بالعويل منها بالصياح ، فأطل من نافذة تشرف على فناء الدار فرأى جماعة من النساء يبكين ويعولن وقد تلطخت أثوابهن بالدماء والتراب ، ومعهن شيخ أحنى ظهره الكبر وهو يتوكأ على عكاز ويبكي ، فتفطر قلبه لهذا المنظر ، ولكنه لم يعرف القوم ، وكان سحبان واقفا بجانبه ينظر الى الدار ، ولم يكد يتفرس قليلا حتى صاح: «وا أبتاه !»

فأجفل ابن العلقمي وقال : «من هذا ؟ لعله ابوك ؟»

قال : «هو ابي يا سيدي ، أعهده مقيما في الكرخ بسلام وأمان ، ماذا جرى له ؟» . قال ذلك واستأذن في النزول ، فنزل ومؤيد الديـــــن في أثره .

ولم يكد سحبان يصل الى الدار حتى سمع أباه يقول : «اين الوزير، اين مؤيد الدين ؟» . ولما وقع بصره على مؤيد الدين صاح فيه : «انت وزيرنا ويصيبنا ما اصابنا ؟ اذا كان ذنبنا اننا نحب اهل البيت الكرام فقد قبلنا العقاب على الرأس والعين ، والله يجزي كل نفس بما فعلت» .

وكان سحبان قد وصل الى ابيه وقال له : «ابي ماذا جرى ، مـــاذا اصابكم ؟.. كيف خرجتم من البيوت على هذه الصورة ؟»

فالتفت الشيخ الى ابنه ، ولما تبينه القى عصاه وأكب عليه وقبله وأخذ في الشهيق والبكاء وقال : «ولدي سحبان ؟ انت هنا ؟ متى جئت ؟ آه يا ليتك جئت عندنا قبل مجيئك الى هنا . لا بل اراك أحسنت بابتعادك عنا لئلا تصاب بما أصيب به اخوتك» .

فاقشعر بدنه وقال : «اخوتك ؟ ماذا اصابهم ؟ من فعل بكم ذلك؟»
قال : «ألا تعلم ممن تأتي مصائبنا ؟ انها تأتي من ..» . والتفت حوله وهو خائف وعيناه يغشاهما الدمع وقال : «انت تعلم ممن ..»

فقال : «لعل هؤلاء الجنود المارين على الجسر كانوا عندكم» .

فصاح : «اننا هاربون منهم ، وجئنا الى هنا نلتجيء الى مولانـــا مؤيد الدين» . والتفت الى الوزير وقال : «آه يا سيدي ، انقذنا مـــن هذا العذاب . أخرجنا من هذا البلد» . والتفت الى سحبان وقال : «انك تفر من هذه المصائب كل سنة وتنجو بنفسك وتتركنا واخوتك في هذا الخطر . يا الهي متى نخلص من هذا العذاب ؟»

فأجابه سحبان وهو يرتعد من الغضب : «عن قريب ان شاء الله» .

والتفت الى مؤيد الدين فرآه واقفا يسمع ويتجلد ، وقد اومأ الى النساء ان يدخلن دار الحريم ، ونظر الى الشيخ وتلطف في خطابـــه وقال : «تفضل يا عماه واجلس هنا ، خفف ما بك وقص علي ما جرى» .

قال ذلك وقعد وأقعد الشيخ بين يديه ، وسحبان واقف لا يريد ان يجلس من شدة الغضب ، فأخذ الشيخ يقص حديثه فقال : «انت تعلم يا مولاي حالنا مع هؤلاء القوم ، وكيف يناوئوننا ويعذبوننا ونحن صابرون ننتظر الفرج . لكنهم لم يرتكبوا مثل ما ارتكبوه هذه المرة من القتـل والسبي ، فانهم لم يبقوا على الاموال والاعراض» . وغص بريقه وشفتاه ترتعشان فتشاغل بالبحث عن عصاه .

فتأثر مؤيد الدين من منظره ، ونظر الى سحبان فرآه يمسح عينيـه ويخجل ان يراه الناس باكيا ، فتجلد وأخذ يخفف عن الشيخ فقال : «يا عماه ، هون عليك لكل شيء نهاية والله مع الصابرين . ثم ماذا جرى ؟» . قال : «لا تسألني يا بني عما جرى فانه يفتت الاكباد ، يكفي ما ترونه» . وجعل يمسح عينيه ، وأنامله ترتجف ، فأجابه سحبان : «قد تعودنا هذه الشدائد منهم ولكن ..» . فقاطعه ابوه قائلا : «لا . لا . ها أنذا قد ادركت الشيخوخة في هذا البلد مع هؤلاء القوم ، وشاهدت نكبـات عديدة ليس فيها واحدة مثل هذه . كانوا يعتدون على بعض المارة او يتهمون بعض الرجال بأمر يسوغون به لانفسهم مصادرة ماله او اهانته ، اما الان فانهم دخلوا المنازل بلا حجة ولا سبب ، وداسوا مخادع النساء، وارتكبوا الفاحشة وقتلوا الاطفال . دعني لم أعد استطيع الكلام ، ولا أبا لي اذا مت . وانما اطلب من الله ان يبقيني حيا لأرى زوال هـذه الدولة» . ثم أسرع تنفسه وأوشك ان يغمى عليه ، فرشوه بالماء ، وبادر ابنه اليه فأعانه حتى أدخله غرفة استراح فيها ، وذهب توا الى دار الحريم وكلف بعض الخصيان ان يجمعه بأخته ، وكانت مع النساء . فجاءت

وهي تبكي وتندب وقد قطعت شعرها ، فقال لها : «اخبريني يا صفية ماذا جرى لكم ؟ هل أصيب احد منكم بسوء ؟ اين اخوتك ؟»

فضربت كفا بكف وقالت : «لا أدري هل هم أحياء ام اموات ؟. ويلاه اين كنت فلم تشاهد المذابح ؟ انهم دخلوا مخدعي وأوشكوا ان يمسوني أعوذ بالله ..»

فاقشعر بدنه من هذا التعبير ، ولم ير بدا من التجلد بين يديها فقال: «الله منتقم يا اخية ، وسوف ينتقم من القوم الظالمين» . وتحول الى الدار فلم يجد مؤيد الدين هناك ، فسأل الخدم عنه فقالوا انه في حجرته يلبس ثيابه ، فعلم انه عازم على الذهاب الى قصر الخليفة في هذا الشأن، فسره انه غضب وود ألا يفلح في مهمته لعله يعمل بمشورته ويعزم على التخلص من هذه الدولة .

وذهب الى ابيه فرآه قد صحا واستراح ، فجلس اليه وأخذ يخفف عنه ويسأله عن تفصيل ما جرى ، فلم يزدد الا دهشة وغضبا لما سمع . لكنه اخذ يهون على ابيه بأنه سينتقم له ، وان الله لا بد ان يبيد الظالمين، ونحو ذلك من عبارات التعزية ، وقد تعودها الشيعة في بغداد لكثرة ما توالى عليهم من الاحن .

★ ★ ★

لبس مؤيد الدين قلنسوته وقباءه الاسود ، ثم ركب بغلته الى قصر التاج ليرى الخليفة ويشكو اليه ما فعله جنده مما لا يحتمل ، والغلام يركض بين يديه . فمر بالمدرسة المستنصرية والقصر الحسني حتى وصل الى قصر التاج ، فدخل بساتينه والخدم يوسعون له . فلما وصل الى بابه الاكبر ترجل ودخل مسرعا ، والغضب باد في محياه ، حتى انه لم

يحسن رد التحية على من لقيه في طريقه من الخاصة .

فلما بلغ باب العامة مشى الحرس بين يديه ، فسأل صاحب الباب عن الخليفة فقال : «انه جالس في منظرة المسناة ، فهل استأذن لمولاي الوزير ؟» . قال : «هل هو وحده هناك ؟» . قال : «عنده بعض الخاصة والمغنين» . فشق عليه ذلك لانه طالما فكر فيه وتكدر منه فقال له : «أستأذن لي عليه ، او قل له اني احب لقاء امير المؤمنين حيثما يشاء» .

فذهب الغلام وعاد وهو يقول : «لا يرى امير المؤمنين بأسا من دخولك الى المنظرة» . فلم تعجبه هذه الدعوة لانه كان يحب ان يراه على حدة ، لكنه لم ير بدا من الطاعة ، فدخل من دهليز الى دهليز ، والخصيان يوسعون له حتى أطل على المنظرة ، وهي كالعريش او (الكشك) تشرف على دجلة ، فوقها قبة من الخشب مزخرفة بالنقوش والتذهيب الجميل . وأرض المنظرة مفروشة بالبسط الثمينة عليها الرسوم البديعة ، وفوق البسط الوسائد المطرزة ، وفي وسط المنظرة مائدة عليها ألوان الفاكهة والحلوى ، والمستعصم في صدر المكان قد اتكأ على مرتبة عالية كالسرير ، وعليه ثوب ابيض مذهب يشبه القباء ، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة مطوقة بوبر اسود من الاوبار الغالية القيمة المتخذة للباس الملوك ، وكأنه يتعمد بذلك تقليد زي الاتراك ، وكان المستعصم اسمر اللون مسترسل اللحية ربعة القوام لا بالطويل ولا القصير ظاهر الحياء لين الكلام سهل الاخلاق ، الا انه ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة مطموع فيه . وبين يدي المنظرة دجلة يجري وفيه الزوارق المعدة لركوب الخليفة متى شاء .

فاستعاذ مؤيد الدين من هذه المقابلة ، وود لو انه لم يأت في تلك الساعة ، لكنه لم يسعه الا القاء التحية بالاحترام اللائق ، فأشار اليه

المستعصم ان يجلس على وسادة بالقرب منه وقال : «مرحبا بوزيرنا الهمام » •

فتأدب في الجواب وتقديم الاحترام ، والتفت الى الحضور فلم يجد بينهم من يحترم مجلسه او يعتد بوجوده ، وانما هم طائفة من خاصة الخليفة العائشين في داره ، وقيِّم القصر ، وأستاذ الدار ، ويعرف بالصاحب ، وله قدر كبير عند الخليفة ويدعى له على المنابر بعد الدعاء للخليفة ، وقلما يظهر للعامة ، اشتغالا بما هو بسبيله من أمور تلك الديار ومراقبتها والتكفل بها وتفقدها ليلا ونهارا •

وما كاد الوزير يجلس حتى اشار الخليفة الى المغني ان يعيد ما غناه، وراح يظهر طربه الشديد ، متجاهلا ما يقتضيه منصب الخلافة من الوقار، وكان أعوانه يعرفون ذلك فيه فيعده بعضهم لطفا وظرفا ، ويعده الاخرون ضعفا وتهاونا ، وهذا هو رأي مؤيد الدين فيه ، على انهم أجمعوا على حسن طوية الخليفة، ولعل ذلك من اسباب ضعفه التي جعلت سبيلا لارباب الدسائس اليه •

★ ★ ★

كان مؤيد الدين يسمع الغناء وهو مطرق يفكر فيما جاء من اجله ، وينتظر ان يسأله الخليفة عن شأنه • فلما أتم المغني دوره التفت المستعصم الى الوزير وقال : «هل سمعت أشجى صوتا وأرق نغما ؟• ان هذا اللحن يطربني كثيرا ، وهناك لحن آخر قريب منه لم اجد من يجيده في بغداد ، وقد بلغني عن مغنية في دار سلطان مصر تجيده فبعثت في استقدامها لكنها لم تصل الي» • قال ذلك وسكت وقد انقبض وجهه ، ثم استطرد قائلا : «وكنت معتزما ان أبعث اليك منذ ايام لاخبرك بذلك ، وأستعينك

في البحث عن هذه المغنية لاني على ثقة من انها وصلت الى بغداد ، لكن بعض اللصوص اخذوها من الركب الآتي بها من مصر ، فهل تبحث عنهم؟»

فأشار مؤيد الدين مطيعا وقال : «لا بد من البحث عن كل لـــــص ومعاقبته ، اذ لا يليق ان يتجرأ احد على جريمة في ايام مولانا امـــير المؤمنين أيده الله» . وأحب ان يتطرق الى ما جاء من اجله ، فتصدى له أستاذ الدار وقال : «ان تجرؤ اللصوص على خطف مغنية محمولة لمولانا امير المؤمنين لامر لم يسمع بمثله ، وهو يدل على ضعف سلطة الحكومة وقلة هيبتها في عيون الناس ، وكان المرجو من الوزير حفظه الله ألا يترك سبيلا الى مثل ذلك» .

فوقع هذا الكلام وقوع السهم في قلب مؤيد الدين ، ولم يطق صبرا على السكوت عنه ، وعلم ان الاستاذ الخصي يريد ان يظهر لدى مولاه في مظهر الغيور على مصالح الدولة ، فاستثقل ذلك منه ، وعده جسارة خارجة عن حدود اللياقة في مجالس الخلفاء ، فالتفت اليه وقال : «صدقت يا استاذ ، لا ينبغي ان يقع مثل ذلك ، وتبعته تلقى على الوزير اذا كان الامر راجعا اليه ، فان أرواحنا فداء امير المؤمنين في الذب عن الدولة وبذل الجهد في طاعته ، ولكن هذه الامور وأمثالها تقع احيانا ولا حيلة للوزير في دفعها» . ثم حول بصره الى المستعصم وقال : «وكثيرا ما يقع هذا وتتلافاه بدون ان يبلغ الى سمع مولانا امير المؤمنين ، حتى الجند فانهم يرتكبون أمورا لا يليق بهم ارتكابها ، ولا ادري هل يفعلون ذلك من تلقاء انفسهم» . قال ذلك وتغير وجهه ، وظهر للخليفة انه يحمل شكاية يريد ايصالها فقال له : «لا ينبغي ان يقع شيء من ذلك الا باذن منا او من وزيرنا او من استاذ دارنا . وهل وقع شيء من هذا القبيل قريبا ؟»

قال الوزير : «ارفع الى سمع مولاي امير المؤمنين ان جماعة من اهل الكرخ اتوني الساعة وفيهم الشيوخ والنساء يبكون ويندبون ، وقالوا

ان شرذمة من الجند نزلوا عليهم ونهبوا منازلهم وقتلوا من وقف فـــي طريقهم وارتكبوا الفاحشة وغير ذلك» .

فتصدى استاذ الدار وقال وهو يهز رأسه هز الاستهزاء : «اهـــل الكرخ ؟ اهل الكرخ تعودوا هذه الشكاية فلا يمضي عام او شهـــر الا سمعناها منهم» .

فاستقبح مؤيد الدين تعرضه ووقاحته واستغرب اعتراضه فقال وهو يخاطبه : «تعود اهل الكرخ الشكوى لان الجند تعودوا ان يؤذوهم و...»

فقطع الاستاذ كلامه وقال : «وان لم يؤذوهم، انهم يحبون الشكوى. هذه عادة الشيعة» . ونظر الى الحضور وضحك ضحك الاستخفاف .

فأثر ذلك في خاطر ابن العلقمي تأثيرا سيئا جدا ، وحول وجهه عن الرجل وهو يقول : «لم اكن أظن احدا يجسر على هذا القول في حضرة مولانا امير المؤمنين» . وسكت .

فتصدى المستعصم للكلام وقال : «لا أستحسن ما جرى بينكما ، ولا حق للاستاذ ان يتكلم بهذه اللهجة ، فاذا اشتكى اهل الكرخ او غيرهم فعلينا ان ننظر في شكواهم وننصفهم» . ووجه خطابه الى مؤيد الدين وقال : «ماذا جرى ايها الوزير ؟»

فاتجه هذا نحو الخليفة وقال : «بلغني يا مولاي ان شرذمة مـــن الجند سطت على الكرخ في هذا الصباح وأمعنت في اهله قتلا ونهبا . وقد رأيت جماعة من المصابين وفيهم الشيوخ والنساء والاطفال فلم اشأ ان أفعل شيئا قبل ان أستطلع رأي مولاي» .

فقال الخليفة وهو يظهر الاهتمام : «ان هذا منوط بالداودار قائـــد الجند ، فينبغي ان نسأله عما بعثه على ذلك ، لعل له عذرا» . وصفـــق فجاء الحاجب فأمره ان يستقدم الداودار حالا .

وعاد الخليفة فأشار الى المغني ان يعود لغنائه ، واقترح عليه لحنا غناه

وهو يعزف على العود ، فطرب الجميع ، الا ابن العلقمي فانه كان يغلي من الغضب وهو يتجلد •

وبعد قليل جاء غلام وقال ان الداودار بالباب ، فأمره الخليفة ان يذهب به الى دار العامة ينتظر حضوره • ثم نهض وأشار الى الحضور بالانصراف ، وأومأ الى الوزير ان يتبعه ، فسار في اثره نحو دار العامة، وهي قاعة الاستقبال الخاصة بالاعمال •

ودخل الخليفة اولا غرفة الالبسة ، وجاء صاحب الثياب فألبسه ما تعود لبسه اذا جلس لمقابلة الناس : العمامة الكبرى والجبة وغيرهما • ثم أقبل على دار العامة من باب داخلي ، وهي مفروشـــة أحسن فرش بالستائر والنمارق والارائك ، يقلدون بها ما كان من اسباب البذخ في صدر الدولة العباسية • فلما دخل الخليفة القاعة جلس على سريره ، وأومأ الى ابن العلقمي ان يقعد ، ثم أمر الحاجب ان يدخل الداودار • وكان ابن العلقمي قد سرى عنه ، فدخل الداودار وألقى التحية ووقـف متأدبا فقال له الخليفة : «يقول وزيرنا حفظه الله ان الجند سطوا على الكرخ وقتلوا ونهبوا • هل انت عالم بذلك ؟» • قال : «نعم يا مولاي»• قال : «وتقول نعم ؟ وكيف أذنت بوقوعه ؟»

قال : «فعلته بأمر من مولاي الامير ابي بكر نجل مولانا امـــير المؤمنين » •

قال : «اذا قال لكم احمد (ابو بكر) اقتلوا الناس قتلتموهم بـــلا سبب » •

قال : «لم أسمع بارسال الجند الى الكرخ بلا سبب ، لكن مولاي أبا بكر قال ان جماعة من اهل الكرخ خطفوا جارية من جواريه وخبأوها عندهم ، فذهبت للبحث عنها عند صاحب الشأن فمنعونا من الدخـــول وجردوا علينا السلاح ، فأمرني الامير بالدفاع والتفتيش ، وقد فعلت»•

فقال الخليفة : «ذهبتم للتفتيش عن جارية أخذت من بيت احمد فقتل بسببها عشرات من الناس ، فلو فعلت مثل فعلكم بسبب الجارية المغنية التي أخذت مني لحدث مثل هذا وأعظم منه . ان هذا لا يليق بنا . اين احمد ؟ »

فأجابه الداودار : «أظنه في قصره يا مولاي» . فقال : «ادعه الــي حــالا » .

فلما شاهد مؤيد الدين غضب الخليفة على ابنه استبشر بنجاته مــن تطاوله وتدخله في أمور الدولة ، ونظر الى المستعصم فرآه مطرقـــــا والغضب يتجلى في وجهه ، لكنه لم يتبين من ذلك الغضب حزمـــــا وعزيمة ــ وتلك كانت علة الخليفة ــ لم يكن ينقصه حسن القصد وانما كان ينقصه الحزم . فظل مؤيد الدين صامتا مطرقا حتى دخل الحاجب وأنبأ بمجيء الامير احمد فأمر الخليفة بدخوله .

* * *

دخل ابو بكر ، وهو شاب في مقتبل العمر ، قد اخذه الغرور ، تمازج حركاته خيلاء لا تظهر الا على الادمغة الفارغة . ولاسيما في اوائـــل الشباب فقد كان في حوالي السنة العشرين من العمر ــ وتلك هي سن الغرور في كل شاب اذ يتوهم صاحبها انه بلغ الكمال في كل شيء . اذا مشى حسب الناس ينظرون اليه اعجابا بجماله او بسالته ، واذا قال قولا توقع ان يكون له وقع الوحي على القلوب ، فاذا آنس منهم فتورا او احتقارا غضب وأنحى عليهم باللائمة ورماهم بالجهل او الحسد لانهـــم بخسوه حقه ، وبأنهم انما فعلوا ذلك تقليلا من فضله . ونحو ذلك من غرور الشباب .

فاذا كان ذلك شأن الشباب على اختلاف طبقاتهم فكيف بأبناء الملوك والخلفاء الذين لا يسمعون الا التحبيذ والاطراء ؟ وبخاصة اذا كان في الشاب خفة وصغار مثل احمد هذا الذي زاده غرورا ان أباه أطلق سراحه من محبسه على غير المعتاد عند الخلفاء قبله ، فأصبح لذلك لا يحسب للعواقب حسابا ، بل هو لا يدرك حقائق الامور ، وانما يهمه ان تنفذ كلمته وينال مشتهاه مهما يكلفه ذلك .

دخل ابو بكر وألقى التحية ، وتلفت يمينا وشمالا فوقع بصره على مؤيد الدين فنظر اليه باحتقار ، ومؤيد الدين لا يبدي ملاحظة . وقعد ابو بكر قبل ان يأذن له ابوه في القعود فقال له المستعصم : «يا احمد انت أمرت الداودار بالهجوم على اهل الكرخ ؟»

فأجاب وهو يبتسم نكاية في مؤيد الدين : «نعم يا ابي» . قال : «وكيف ذلك ؟ ولماذا ؟» . قال : «لان جارية من جواري هربت من قصري واختبأت في منزل احدهم ، ولا شك انهم حملوها على الفرار وخبأوها ، فبعثت من يأتي بها فشتموا رسولي وضربوه ، فأمرت الداودار ان يؤدبهم فتمردوا عليه ، فاضطر — للدفاع عن نفسه — ان يضربهم وقد فعل ، وما المانع من ذلك ؟»

فقال المستعصم : «المانع انه لا يليق ان تحدث مذبحة يقتل فيها عدة رجال من اجل جارية ، وأنت تعلم ان في قصورنا ألوفا من الجواري فلو طابت مني عشر جوار بدل الجارية لكان ذلك أهون علي مما أسمعه، والجواري كلهن سواء» .

فاعتدل في مجلسه وهو يصلح منطقته بدلال وانفة وقال : «اذا كانت الجواري سواء ، وفي قصورنا ألوف منهن ، فما الذي حمل امير المؤمنين على ان يبعث في طلب جارية من سلطان مصر» .

وكان مؤيد الدين يلاحظ ما يتقلب على وجه المستعصم من الملامح

ليرى ما يكون تأثير قول ذلك الغلام فيه ، فاذا به لما سمع اعتراض ابنه غلب عليه ضعف العزيمة وعمد الى الاسترضاء وقال : «انا لم أطلب تلك الجارية من سلطان مصر الا لتنفردها بغناء اصوات لا يستطيعها سواها ، وأما ... »

فقطع احمد كلام ابيه بكل وقاحة واستخفاف وقال : «وما أدراك ان تكون جاريتي هذه غير ممتازة بمناقب لا توجد في سواها ؟ ومـــا أجدرني ان أقتدي بوالدي وهو امير المؤمنين ، قدوة سائر المسلمين» .

فحمل المستعصم هذا القول محمل التهكم ، وخجل من ان يسمعه امام مؤيد الدين والداودار ولا يرد عليه فقال : «أهكذا تجيبني يا احمد؟ وهل يحق لكل واحد ان ينال ما يناله امير المؤمنين ؟ ان عملك هذا لا يرضيني » .

فهز احمد رأسه وقال : «يكفي ان يرضيني انا . وهل اعمال ابـــي ترضي كل انسان ؟ لا يطلب من المرء ان ترضي اعماله كل الناس» .

وبعد ان كان المستعصم قد صرح بانكاره تهكم ابنه حمله ضعفه على المغالطة ، وتناسى تهكمه فابتسم وقال : «وبعد تلك المقتلة هل ظفرت بالجارية ؟ »

قال : «كلا .. ما زالت مختبئة ، ولا بد من العود الى البحث عنها» .

قال : «لا يا ولدي ، لا تبحث عنها هكذا ، وسأكلف انا وزيرنـــا مؤيد الدين ان يتحرى عنها حتى يقف على مكانها ويعيدها اليك» .

فنظر ابو بكر الى مؤيد الدين لحظة ثم حول وجهه عنه نحو الداودار وقال : «اذا لم يقف على مكانها فنحن نقدر على اخراجها من مخبئها ولو كانت في جيب الوزير او بين اهله» . ثم نهض وقال : «أستأذن سيدي الوالد في الانصراف الان لاني على موعد مع بعض القواد للخروج الى الصيد» . وخرج ولم ينتظر اذن والده وأومأ الى الداودار ان يتبعه فتبعه .

والمستعصم ينظر الى ابنه وهو خارج وقد بان اليأس في وجهه ، ثم حول بصره الى مؤيد الدين وتنهد وقال : «صدق القائل : (وانما اولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الارض) ..» . ودمعت عيناه .

فاطرق مؤيد الدين وهو يتعجب من ذلك الضعف . ولبث في انتظار خطاب الخليفة حتى سمعه يقول : «يا مؤيد الدين ، انك وزيري وموضع ثقتي .. وقد رأيت ما أظهره احمد من الاستخفاف بقولي .. وأظنني اخطأت باطلاق سراح اولادي ، فخالفت بذلك تقاليد أجدادي .. لو كان احمد كما كان ابناء الخلفاء قبله لكنا في غنى عما نحن فيه» . وتشاغل باصلاح لحيته ، فلم يشأ مؤيد الدين ان يخوض في هذا الموضوع خوفا من تغلب عاطفة الحنو في نفس الخليفة مما قد يحول غضبه اليه وبخاصة انه يعلم ضعفه من جهة ابنه هذا . فقال المستعصم : «نطلب من الله ان يهدي هذا الغلام الى صوابه . انت اب تعرف قلوب الآباء ، فأتقدم اليك ان تساعدني في البحث عن جارية احمد وأن تعوض على اهل الكرخ خسائرهم ، واني آسف لما وقع وعسى ان لا يتكرر» . ثم تنحنح وهم بالنهوض وهو يقول : «لا يبرح من بالك ايضا ان تبحث عن الجاريـــة شوكار المغنية التي استقدمناها من مصر وخطفها اللصوص قرب بغداد» .

فنهض مؤيد الدين وطأطأ رأسه طائعا وقال : «اني عبد امير المؤمنين ، وفقني الله في خدمته ولكنني» .

فقطع الخليفة كلامه قائلا : «انا أعلم ان احمد لم يكن ينبغي له ان يقول ما قاله .. لكنه لا يزال شابا قليل الاختبار ولا يلبث ان يهتدي الى الصواب» . وتحول كل منهما في طريقه .

* * *

خرج مؤيد الدين بن العلقمي من قصر التاج وركب بغلته عائدا الى

قصره وهو غارق في التفكير ، تتنازعه عوامل مختلفة ، لكن الخـــوف متغلب عليها كلها .

ولما دنا من قصره رأى في موقف الدواب بغلتين احداهما بغلـــــة سحبان ، وقد عرفها ، والثانية لم يكن قد رآها من قبل فتقدم غلامه الى الباب وقرعه ففتح على سمته ودخل مؤيد الدين ببغلته الى مدخل الباب وترجل هناك ، فتناول الغلام زمام البغلة وساقها الى مكانها ، ومشـــى مؤيد الدين وكان البواب يسرع بين يديه . فقال له : «من هو صاحب البغلة الاخرى المربوطة هنا ؟»

قال : «ان صاحبتها امرأة جاء بها سحبان من وقت قريب ، وهو في انتظار مولانا الوزير في الشرفة» .

قال : «قل له يأتي الى غرفتي ، من هي المرأة التي معه ؟»

قال : «لا ادري يا سيدي ، لكنه بعد خروجك اخذ أباه وأخته الى الكرخ ثم عاد الساعة ومعه هذه المرأة وأظنها جارية» .

وكان مؤيد الدين قد دخل غرفته وأهل بيته يعلمون انه اذا دخلها لا يدخل عليه احد الا باذن خاص ، وسأله الطاهي : هل يريد الطعام فقال : «هيىء لي مائدة مختصرة أدخلها الى هنا ، وليأت سحبان للاكل معي» .

ودخل فبدل ثيابه ، ولم يكد يفرغ من اللبس حتى جاء سحبان وفي وجهه امارات البشر ، وكان قد فارقه واليأس غالب عليه ، فاطمـــــأن مؤيد الدين بعض الشيء ، وابتسم ابتساما لم يتعد شفتيه وقال : «ما وراءك يا صاحبي ؟» . قال : «يظهر انك غضبت مما شاهدته في قصر التاج ، ليس عند القوم ما يفرح» . وابتسم .

فقال مؤيد الدين : «وهل عندك شيء يفرح يا سحبان ؟ بالله قل ان صدري قد ضاق مما اراه وأسمعه . تقدم كل معي» .

فأتى على دعوته وتناول سكباجة وتشاغل بتقطيعها وهو ينظر الـــى

وجه الوزير ويقول : «لدي خبر يسرك ويوجب استغرابك ودهشتك» .
ومال مؤيد الدين الى استطلاع ذلك الخبر ، فتوقف عن المضغ وقال: «ما ذلك ؟ قيل لي انك جئت ومعك امرأة . من هي ؟» . ثم عاد الى المضـــغ .

فضحك سحبان وبادر الى قطعة من السكباجة ادناها من فيه وهو يقول : «هي طلبة الامير احمد وهي الجارية التي فتك بأهل الكرخ من اجلها » .

فقال : «كيف ظفرت بها ؟ الحمد لله على ذلك قد خلصنا من شر هذا الغلام ، اين كانت ؟»

قال : «كانت مخبأة عند جيراننا ، وأختي عالمة بذلك ، لكنها كتمته واحتملت الخطر من اجل كتمانه كما علمت ، لانها رأت الجارية تكره ان تعود الى احمد هذا ، فلما جرى ما جرى وعدت امس مع اهلي قصت علي أختي خبر هذه الجارية وأرتني اياها فأتيت بها الى هنا» .

قال : «حسنا فعلت لان الخليفة ألح في التوصية بأن نبحث عن هذه الجارية ونعيدها الى ابنه حذر طيشه ، وقد حيرني هذا الوالد بضعفـه وحنـــوه » .

فقال سحبان : «لكن الجارية لا تريد ان تعود اليه» .

قال : «هي وشأنها ، نحن ندفعها الى الخليفة ونتخلص من تبعـــة امرها » .

قال : «انها أشد كرها للخليفة ، ولا تريد ان يعرف بوجودها هنا».

قال : «وكيف ذلك ؟ لم أسمع ان الجواري يرفضن التقرب مـــن الخلفاء » .

قال : «لهذه الجارية شأن خاص لا يعرفه احد في بغداد سواي» .

قال : «لله انت ! ما اكثر ما تعرفه !..»

قال : «لا أعرف ذلك لذكاء خاص او لكرامة او ولاية ، ولكـــن الاسفار تعلم الانسان اشياء كثيرة» . قال : «وما علاقة ذلك بالاسفار؟» قال : «اني رأيت هذه الجارية بمصر وعرفت حديثها ، وهو ذو شجون ، لو عرفته لتولتك الدهشة من غرائب الاتفاق» .

فازداد رغبة في الاستطلاع وقال : «قل يا سحبان ، لا صبر لي على الاطالة» . قال : «ألم تسمع شكوى الخليفة من جارية طلبها من سلطان مصر وخطفت قبل وصولها الى قصره ؟ انها هي هذه الجارية نفسها» .

قال بدهشة : «هي نفسها الجارية التي فرت من ابنه الى الكرخ ؟» . قال : «نعم يا سيدي هي بعينها ، هي شوكار جارية شجرة الدر التـــي سمع الخليفة برخيم صوتها وجودة صنعتها على العود فبعث الى سلطان مصر يطلبها منه . وقبل دخولها بغداد سطا عليها بعض الناس بحجة انهم قادمون من قصر الخليفة لحملها اليه وفروا بها . وتحدث اهل بغـــداد بذلك زمنا ثم سكتوا ، وكان الباعث على ذلك السطو ان ابا بكر لما سمع بالجارية القادمة الى ابيه رأى انه أولي بها ، فبعث من قبله أناسا اخذوها من القادمين بها بدعوى انهم آتون من قصر التاج لاستقبال مغنية امير المؤمنين ، فلما صارت في ايديهم اخذوها الى قصر أعده هذا الشاب لمثل هذه الحاجة ، وكان اهل قصر التاج في انتظارها . ثم علموا انها أخذت خلسة لكنهم لم يعلموا اين هي ، وما زالوا يجهلون ذلك الى الان» .

فاستغرب مؤيد الدين وقاحة ذلك الشاب وقال : «وماذا فعلت شوكار بعد ذلك ؟ ألم تستطب مقامها عند هذا الشاب ؟»

قال : «ان هذه الفتاة لا يطيب لها المقام في غير مصر لانها مخطوبة لامير من أمراء المماليك» .

قال : «مخطوبة ؟ وبعث الخليفة يأخذها من خطيبها ؟»

قال : «لم يعلم الخليفة انها مخطوبة وانما يعلم انها جارية شجرة الدر

الملكة السابقة وانها تحسن الغناء فطلبها من السلطان الجديد فلم يسعه مخالفة الامر» .

قال : «من هو خطيبها ؟» . قال : «هــــو ركن الديـــن بيبرس البندقداري» . قال : «ركن الدين بيبرس ؟ انه بطل باسل ورجل حكيم اجتمعت به مرة في مصر ونحن شابان وتكاتبنا غير مرة ، اني اعرفــــه شجاعا لا يصبر على الضيم ، فماذا هو فاعل ؟»

قال : «انه يكاد يتقد غيظا ، ولا اخفي على مولاي انه أسر الي امر هذه الجارية وأنا في مصر ، وقد تعجلت السفر الى بغداد في سبيـــــل خدمته ، لعلي اقف على خبر خطبته ، وكان قد جاءه كتاب منها تنبئه فيه باختطافها من رجال الخليفة ، ولم تكن تعرف من اختطفها ، وربما جاء هو بنفسه للبحث عنها» .

فأطرق مؤيد الدين مدة وهو يفكر في حال ذلك الخليفة وابنه ، وفي اشتغالهما باللهو عن الملك وقال : «هل تظن ركن الدين يأتي الى بغداد ؟»

قال : «لا يبعد ان يأتي ، والآن اذا أذنت فلتبق شوكار عندنا ريثما يأتي هو او نكتب اليه عن نجاتها وننتظر رأيه فيها» .

قال : «وكيف استطاعت الفرار من قصر ابي بكر وهي غريبة هنا ؟»

قال : «ساعدها على ذلك خصي كان في خدمتها يعرف اهل المنزل المجاور لمنزلنا فحملها اليه بحيلة ، ولما علم ابو بكر بذلك جاء الكرخ كما علمت ، لكنه لم يستطع الوقوف على خبرها ، ولما علمت اليوم بوجودها اتيت بها الى هنا لارى رأيك فيها» .

فأخذ مؤيد الدين يفكر فيما سمعه وهو حذر يقظ ، فخاف ان يكون في بقاء تلك الفتاة عنده باعث على سوء الظن به ، لعلمه بوجود الجواسيس حوله فقال : «انظر يا صاحبي ، ان امر هذه الفتاة أهمني كثيرا ، وقد فرحت بنجاتها من الاسر ، وأحب استبقاءها ، لكنني لا ارى ان تبقــى

في منزلي» •

فبادره سحبان قائلا : «صدقت ، وأنا لا اطلب ذلك وانما أستشيرك في الامر ، وأحب ان يعلم بيبرس ان نجاتها كانت على يدك ، وهو قائد عظيم ننتفع برأيه وحزمه في الامر الذي تكلمنا فيه ، ولا بد من الوصول اليه •• ان هذا القائد وعدني وأنا في مصر انه يستطيع ان يقلب هـذه الحكومة ويقتل الخليفة ويقيم لنا الدولة العلوية الشريكـــة بمصر وعند ذلك » •

فأسكته مؤيد الدين بالاشارة وهمس في اذنه قائلا : «لا تتطرف في افكارك يا اخي • دعنا من التخيلات الى الممكنات» •

فتعجب سحبان من انكاره ذلك عليه لانه كان يعتقد امكانه ، ويعتقد ان ركن الدين وعده به ، مع ان ركن الدين لم يبد في هذا الشأن غير السكوت • ولكن سحبان كان كثير التعويل على الاوهام فيبني مـن الحبة قبة ، بينما مؤيد الدين كان على عكس ذلك • فلما أنكر عليه قوله اضطر سحبان الى السكوت والتظاهر بالاقتناع وقال : هب ان أملـــي بعيد ، ألا ترى في مجيء ركن الدين نفعا لنا ؟

قال : «قد يكون حضوره نافعا لنا اذا أحسنا استخدامه ، ولا محل للكلام في ذلك الان» •

فقاطعه قائلا : «ما لي اراك لا تجد محلا للكلام ، هب انك وافقتك على رأيك واكتفيت بابدال خليفة بخليفة ألا يجوز ان نبحث في هذا ؟»

قال : «يجوز يا صاحبي ، وتراني في حيرة من امر هذا الخليفة • تارة اراه معتدلا يمكن اصلاحه ، وآونة اقطع الامل في اصلاحه • سنفكر في ذلك » •

قال : «افرض ان المستعصم هذا يمكن اصلاحه ، أترى الامام احمد ابن الظاهر اهلا ليقوم مقامه ؟»

فبغت مؤيد الدين لهذا الاقتراح لانه طالما فكر فيه ولم يخطر له احد سوى الامام احمد اهلا له ، لكنه لم يكن ليبوح به لاحد ، فلما سمع اقتراح سحبان أجفل وظهرت البغتة في عينيه وزادتا لمعانا وقال : «لا بأس به ، لكنه محبوس في قصر الفردوس كما تعلم ولا سبيل اليه» •

قال : «متى تم رأينا على امر لا يقف الحبس في طريقنا • وانما اطلب اليك ان تصرح لي برأيك • يكفيني منك تكتما ، ان التكتم حسن لكنه اذا زاد على حده يفشل صاحبه • قل لي ألا ترى الامام احمد اهلا ليقوم مقام المستعصم ؟»

قال : «انه نعم الخلف ، ولكن دون الوصول اليه خـــرط القتاد ، وسننظر في الخطوة الاولى • وأفضل اصلاح حال المستعصم لان ذلك يغنينا عن التغيير والتبديل» •

قال : «وأنا ادعوك الى اصلاحه» • وتحفز للنهوض وقال : «أما تريد ان ترى شوكار وتأذن لها في تقبيل يدك ؟»

قال : «لا بأس من ذلك وان كنت ارى ان تسرع باخراجها من هذا المنزل » •

قال : «تقبل يدك وتذهب حالا» • ونهض ومشى ثم عاد ومعـــه شوكار ، وكانت قد تغيرت سحنتها من فرط ما قاسته من العذاب والهموم، فلم يفرج همها الا في ذلك اليوم لما رأت سحبان وطمأنها على ركن الدين وانه بعثه للتفتيش عنها ، وأصبحت تتوقع سرعة الرجوع الى مصر او وصول ركن الدين الى بغداد • فلما دخلت على مؤيد الدين أكبت على يده تقبلها ، وقد غلبها البكاء وبللت كفه بالدموع ، فاجتذب يده من يدها وقال : «لا بأس عليك يا بنية لا تخافي ان امير المؤمنين لا يظلم احدا ، وان الله لا يتخلى عن احد» •

فأطرقت برأسها حياء وهي واقفة وقالت : «احمد الله الذي وسط هذا

الشهم في ايصالي اليك ، وأنا لا اطلب شيئا غير ارجاعي الى مصر» . وغصت بريقها .

فقال مؤيد الدين : «ستعودين في خير ان شاء الله» . وتحرك من مقعده ونهض ، وأومأ سحبان الى شوكار ان تتبعه ، وودع مؤيد الدين شاكرا ومشى ، فتبعته شوكار فأسرع الى اخفائها في منزل لبعض اهله في الكاظمية .

- ٨ -

مؤيد الدين وهولاكو

اما ابن العلقمي فما كاد يخلو بنفسه حتى صعـــد الى الشرفة ، والشمس قد مالت الى المغيب ، وتوسد فراشا على مقعد يطل على دجلة، وقد تاقت نفسه الى الوحدة والتفكير فيما هو فيه من مشاغل . فلمـــا سمع أذان المغرب نهض للصلاة في مسجد بالقرب من منزله ، وهو يتوقع ان يرى في الصلاة راحة . وليس للمؤمنين في ساعة القلق سبيل الى الراحة والطمأنينة خيرا من الصلاة والدعاء الى الله ان يهديهم ســواء السبيل وينقذهم من المخاطر .

أحس مؤيد الدين حاجته الى الراحة فأسرع الى المسجد وأخذ يصلي، فلما فرغ رأى شيخا من الصوفية راكعا بالقرب منه وسمعه يتمتـــم بالصلاة فلم يهتم به ، ثم رآه يزحف نحوه ، وكدرته وقاحة ذلك الصوفي وظنه مصابا في عقله ، فالتفت اليه شزرا وزجره بلطف ، فازدجر الرجل

هنيهة وأظهر انه يصلي • فعاد مؤيد الدين الى صلاته ودعائه ، واستغرق في التوسل الى الله ان يهديه سبيل الرشاد •

ولما فرغ نهض وتحول نحو الباب فوجد أناسا واقفين للسلام عليه فحياهم ومشى ، ولما وصل الى المنزل اذا بذلك الصوفي واقف بجانب الطريق وبيده مسبحة وهو يتمتم كأنه يدعو ، فلما دنا مؤيد الدين منه تقدم الصوفي والمسبحة في يده وهو يبتسم وقال : «اني أستطلع الغيب وأنبئك بما تفعله يا مؤيد الدين» •

فلما سمع ذلك أجفل لانه قيل له بلحن الامر وفيه صيغة العجمة ، فعلم ان مخاطبه غير عربي وأنه ليس من الفقراء المتسولين ، وانه لأمر ذي بال تعرض له في الطريق على هذه الصورة ، فألقى الرجل نظرة متفرس ، وتأمل لباسه ووجهه ، فرأى عليه قلنسوة الصوفية وجبة الصوفية وفي يده مسبحة الصوفية ، لكن سحنته غير سحنتهم ، ولحيته غير لحيتهم ، فأجاب قائلا : «من انت يا رجل ؟»

قال : «اني بصير بخفايا القلوب قادر على تفريج الهموم اكشف لك ما خفي عليك وأرشدك الى الطريق السوي ، وان لم تصدقني فجرب» •

فأومأ اليه ان يتبعه ، وأشار الى البواب ان يدخله الى غرفته الخاصة ، ودخل هو وقد شغل خاطره بهذا الدرويش ، ومال كل الميل الى الاسترشاد برأيه ، وهو يعتقد الكرامة بأصحاب الكرامات ، وتمنى ان يكون هذا منهم • وبعد قليل دخل الدرويش وقد أدخل احدى يديه بكم الاخرى وقبض بالانامل المطلقة على مسبحة اخذ يعد حباتها ، فأشار اليه مؤيد الدين ان يقعد ، وسأله اذا كان يحتاج الى طعام فقال : «لا» • فأومأ الى الخادم ان يخرج ويغلق الباب وراءه ففعل • ثم نظر الى الدرويش وتفرس في وجهه فلم يذكر انه يعرفه ، ولم ير في وجهه سحنة التصوف فقال له : «ارشدنا بعلمك يا شيخ» •

قال : «أرني يدك مفتوحة» •

ففتحها وأراه باطنها فنظر فيها مليا ثم قال : «انت تفكر في امر عظيم الاهمية شديد الخطر عليك وعلى اهلك وسائر عشيرتك» • فأشـــــار مؤيد الدين برأسه ان : «نعم» •

فأعاد الدرويش النظر الى كف الوزير كأنه يقرأ كتابا مخطوطا ، ثم رفع بصره الى مؤيد الدين وقال : «ان المشكلة التي انت واقع فيهـــا يسهل التخلص منها اذا شئت» •

فقال : «وكيف ذلك ؟» • قال : «ينبغي اولا ان تنظر الى مصلحة نفسك وقومك ، ولا تتقيد باعتبارات وهمية لا قيمة لها الا عند ضعفاء القلوب • فهل انت من هؤلاء ؟»

فاستغرب مؤيد الدين اقترابه من الحقيقة بهـــذه السرعة ، وأحب زيادة الايضاح فاستل يده من بين انامل الصوفي وقال : «قل قبل كل شيء ما اسمك ؟» • قال : «اسمي رسول الى مؤيد الدين» • ففرح لان ظنه كان في محله ، اي ان الرجل ليس صوفيا فقال له : «من ارسلك ؟» قال: «صديق نصوح يريد بك وبأهلك خيرا ، لكنك لا تعرف كيف تنتفع بالفرص التي تقع لك» •

فعلم مؤيد الدين ان الرجل رسول متنكر فقال : «افصح يا رسول الخير ، من اين انت آت ؟ لا تتهيب» • فقال : «اني رسول من خاقان عظيم لا يلبث ان يأتي بلادكم ويفتحها عنوة ولا قبل لكم بدفعه» •

فعلم مؤيد الدين انه يشير الى هولاكو التتري ، لانه جاءه منه غير كتاب من قبل يدعوه الى مشايعته على الخليفة المستعصم ويعده ويمنيه، ولكنه هو يتردد ، فتجاهل وقال : «من تعني ؟» • قال : «أعني مولاي الخاقان هولاكو ، ألا تعرفه ؟•• قد كتب اليك مرارا يدعوك الـــــى التخلص من هذا الخليفة الضعيف عشير النساء والمغنين وأنت لا تجيب،

فأمرني ان آتيك مرشدا ناصحا . ولا يخفى عليك ان مثلي لا يدخل هذا المدخل ، ويتعرض لهذا الخطر ، الا اذا كان قد باع نفسه في سبيل الحق. فأنا ادعوك باسم مولاي اكبر السلاطين ان تكون معه على هذا الطاغية فتخلص انت وقومك الشيعة من الظلم والعسف ، وتكون لك المنزلة الاولى عند صاحب هذا البلد حينئذ ، لا تكن ضعيفا ، ما لي اراك مطرقا كأن نفسك تحدثك باعتبارات تقدر لها قيمة لا تستحقها ، وكأنك تقول في سرك لا يليق بك ان تخلف ظن مولاك الخليفة فيك . لعله لم يخلف ظنك فيه ؟ انا هنا منذ ايام ، وقد اطلعت على ما جرى بينك وبينه وبين ابنه ، ورأيتك تتململ وتتذمر ، وانما ينقصك الحزم فتنقذ نفسك وأهلك وعشيرتك ، والا فأنتم هالكون لا محالة» .

فأكبر مؤيد الدين هذا التهديد من رسول غريب ولكنه رأى في وجه ذلك الرسول هيبة وجرأة لا توجدان في عامة الناس . فقال : «اهد مولاك شكري لما عرضه علي ، وقل له ان طلبه لا سبيل الى اجابته ، وقد رأيته يعرض بعجز هذه الدولة عن مقاومته ، لقد اخطأ كل الخطأ لان جندنا لا يغلب من قلة ولا من ضعف ، ونحن على ثقة من الفوز اذا نشبت الحرب بيننا وبينه» .

فضحك الرجل وقال : «اتيت اليك على اني منجم يقرأ الافكار ، وها انذا اقرأ فكرك الان من وراء ما تقول ، انك تقول غير ما تعتقد ، انا أعرف كل ما تحاول اخفاءه من اضطراب الجند وفساده ، فأصغ لهذا النصح . واعلم اننا لا نكلفك تعبا ولا خطرا ، ولا نطلب منك امرا عظيما. ان البلد نحن فاتحوه لا محالة . فاذا توسطت معنا قللت من القتل والفتك ، لاننا نحب ان ينحصر الاذى في صاحبه المسبب لهذه الشرور، ولا ذنب لرعايا ، وبخاصة الشيعة الذين قضوا الاجيال المتوالية وهم يتحملون انواع العذاب من هؤلاء الخلفاء ، ومن هذا المهذار . وقد

يصعب عليك ان ترجع عما قلته الان وزعمته في الدفاع عن مـــولاك المستعصم ، فأنا لا أكلفك الرجوع الساعة ، ولكنني أرشدك الـــى الصواب وأترك لك الوقت الكافي للتفكير. وأما مولاي الخاقان هولاكو فانه فاعل ما يريده ، ولا يلبث ان يأتيكم كتابه بالانذار والتهديد ، فان لم تصغوا الى مطالبه حمل عليكم وفعل ما يشاء . وثق انه الغالب الظافر، فاذا كنت تحب بلدك وأهلك فابعث الى مولاي الخاقان كلمة بأنك على ولائه فتنجو وتكون لك الكلمة النافذة والصوت الاعلى .. أظننـــي أطلت الكلام عليك فاعذرني» . قال ذلك ووقف ومد يده الى جنبـــه واستخراج لفافة في أسطوانة من القصب وقدمها له وهو يقول : «وهذه رسالة من مولاي اليك لا تفتحها الا بعد خروجي» . قال ذلك وخرج .

فدهش مؤيد الدين لما شاهده من ذلك الرسول ، وظل ينظر اليه حتى رآه خارجا من باب الدار ، وقد أثر كلامه فيه تأثيرا شديدا ، وعاد الى غرفته وفض الرسالة وأخذ يقرأ فيها :

«اعلم يا مؤيد الدين ان الرسول الذي خاطبك هو الخاقان هولاكو نفسه ، وقد بذل لك النصيحة فانتصح ، ولا تطمع في تعقبه فانك لا تجد الى ذلك سبيلا . وكان في وسعي ان تبقى على اعتقادك ولا تعرف من هو مخاطبك ، لكنني احببت نصحك فانظر في امرك . وابعث برسالتى الي كما قلت لك قبلا» .

فأعاد مؤيد الدين قراءة تلك الورقة وقد تولته الدهشة وأوشك ان يكذب بصره وسمعه لغرابة ما شاهده ، وأطرق هنيهة وهو يخاطب نفسه قائلا : «هولاكو نفسه خاقان التتر ، وفي خدمته مئات الالوف من الرجال لا يثق بأحد منهم في مهماته فيأتي بنفسه متنكرا تحت هذا الخطر لكي يخاطبني ، وكان في امكانه ان يبعث رسولا ولكن الهمة العالية والحرص على الملك يدعوانه الى ذلك . لا ريب ان هولاكو يعرف اسرارنا كمـــا

نعرفها نحن ، ويعرف عدد جندنا وعلاقة قوادنا بخليفتنا . يعرف كل شيء . اين ذلك من خليفتنا المشتغل باللهو والغناء عن أمور الدولة ، ويهمه العثور على شوكار المغنية اكثر من دفع العدو عن بغداد ؟. هذه علامات الزوال . هكذا كان حال الروم لما قام العرب لفتح بلادهم ، كان خلفاؤنا وقوادنا العظام من الصحابة وغيرهم يتولون أمورهم بأنفسهم ، لا يعولون على احد ولا يشتغلون بغير الجهاد ، وكانوا قليلين فغلبوا جيوش القياصرة والاكاسرة» .

ثم أطرق وتراجع وندم على ما خطر له وقال لنفسه : «لا . لا . ان الدولة العباسية باقية أبد الدهر ، لا تزول من الارض ، وانما هي في حاجة الى الاصلاح ، الى خليفة آخر» .

وكان الليل قد أسدل نقابه ، فوضع تلك الورقة تحت الوسادة وطلب العشاء ، ثم ذهب الى الفراش مبكرا ليرتاح مما مر به في ذلك اليوم ، وتوالت عليه الخواطر المتضاربة لكن ولاءه للخليفة ظل غالبا على عقله . وكان ليله مأهولا بالاحلام ، ولم يفق في اليوم التالي الا على ضوضاء طلبة المستنصرية وهم خارجون لصلاة الضحى .

وأحب البقاء في الفراش لاعمال الفكر فيما شغل خاطره . والانسان في الصباح قادر على التفكير ، وتفكيره اقرب الى الصواب من سائر الاوقات ، فلم يزدد الا ثباتا على الولاء للخليفة والرغبة في اصلاحه ، فارتاح باله لانه استقر على رأي ــ وليس أتعب للانسان من التردد بين رأيين ، فنهض من فراشه وأخذ في لبس ثيابه ، ولم يبق في ذهنه الا مسألة شوكار . وكان يود ان يسلمها الى الخليفة ويتخلص من القيل والقال لو لم يحل سحبان دون ذلك ، وعذره مقبول . فخطر له ان يبعث في طلب سحبان ليكرر له الوصية باخفاء مكان تلك الفتاة ، لكنه توقع مجيئه من تلقاء نفسه .

مضى ذلك النهار ولم يبرح مؤيد الدين منزله التماسا للراحة وقضاء بعض المهام الخاصة ، وجاء الغروب وأقبل العشاء ولم يأته سحبان فهـــم بالذهاب الى الفراش ، وقبل ان ينزع ثيابه تذكر الكتاب الذي دفعه اليه درويش الامس ، ورأى ان يعدمه لئلا يقع في يد احد فيجعله وسيلـة للايقاع به ، فتذكر انه وضعه تحت الوسادة ، فافتقده هناك فلم يجده ، فأخذ يبحث عنه في جيوبه فلم يقف له على اثر ، فخفق قلبه لئلا يكون قد سمع حديثهما امس جاسوس وسرق الكتاب وأخذه الى الخليفة .



وبينما هو في ذلك اذ سمع قارعا يقرع الباب الخارجي بعنف ، فأجفل ومكث ينتظر الخبر واذا بالبواب يدخل وهو يقول : «ان سحبان بالباب ومعه رفيق ، هل يدخلان ؟»

فاطمأن باله وارتاح الى قدوم سحبان في تلك الساعة لعله يخفف عنه بعض الشيء ، وأحب ان يعرف من هو رفيقه ، ولم تمض لحظة حتى أقبل سحبان وهو يبتسم وألقى التحية ، ثم تنحى وقدم رفيقه باحترام وأشار اليه ان يدخل ، فنظر مؤيد الدين الى ذلك الرفيق فاذا هو ملثم لا يظهر من وجهه الا عيناه وما يحيط بهما ، ورأى السواد غالبا على لونه كأنه عبد حبشي ملثم ، ورآه يمشي الهوينى ، وسحبان واقف باحترام ، فاستغرب مؤيد الدين ذلك فقال : «من هو رفيقك يا سحبان ؟»

قال : «ستعرفه الساعة يا سيدي» . وتقدم حتى أقعد ذلك القادم على كرسي في صدر الغرفة ،وأشار اليه ان يتفضل بازاحة اللثام ، ومؤيـد الدين ينظر اليه من جانب المصباح ، فأزاح الرجل اللثام ، وحالما وقع نظر مؤيد الدين عليه اختلج قلبه في صدره وصاح : «مولاي الامام احمد بن الظاهر ؟ من اين اتيت به يا سحبان ؟» . وأكب على يده يقبلها ، وكان

الامام احمد اسمر اللون لان أمه حبشية .

فضحك سحبان وقال : «اتيت به طوعا لامرك» .

فصاح مؤيد الدين : «ويلك ! متى طلبت اليك احضار مولانا الـى هنا ؟ كيف تأتى لك ذلك وهو محبوس وعلى قصره الحراس والجواسيس؟ ان شؤونك كلها غريبة يا سحبان !»

قال : «انك لم تطلب الي احضاره ، لانه لم يخطر لك استطاعتي ذلك. لكن الحديث الذي دار بيننا امس يدل على انك تحب ان تراه وتستوثق من رضاه» .

فقال : «صدقت ، لم يخطر لي انك تستطيع ذلك ، وكيف اقدمت على هذا الخطر؟ لله انت من شجاع مقدام ! وانما ينقصك التؤدة والتبصر».

فقال : «ما ينقصني تكمله انت بحكمتك ودهائك !»

وتوجه مؤيد الدين نحو الامام احمد ، وكان يومئذ في ابـــان الكهولة وقد ظهرت السكينة عليه ، وقعد بين يديه على وسادة باحترام ووقار وأخذ يرحب به . فتقدم سحبان وقال : «اني رجل متسرع ، ولا احب المطاولة او التسويف ، وأكره التردد ، وقد اعجبني منك امس ثقتك بمولانا الامام احمد ، وان رأيك فيه وافق رأيي وهذا دليل الصواب ، والآن ها هو ذا صاحب الشأن لم أكلمه في شيء بعد ، وانما سعيت في انقاذه من السجن» .

فقال : «وكيف استطعت ذلك ، ما هذه الجرأة ؟»

قال : «استطعته بمعونة الله ، وعسى ان استطيع ما هو اهم منه ، وأرى هذا الامام العاقل العادل خليفة يتولى أمورنا بدلا من ذلك الـ ..»

فتصدى الامام احمد للكلام قائلا : «لا تقل شيئا يا بني ، ان الخليفة المستعصم بالله لا بأس به لولا تسلط ابنه على رأيه ورغبته في اللهو ، وهذا ما يمكن ملافاته فلا تحولوا قلوبكم عنه ..»

فقال سحبان : «نعم الرجل انت يا سيدي •• اما خليفتنا فلا امل لنا في اصلاحه ، ولا بد من تغييره ، ومولانا الامام احمد أولى بالخلافة منه لانه اهل لها من كل وجه ، وهو اخو المستنصر رحمه الله ، ولا يخفى عليك ما اتاه المستنصر من الاعمال الشاهدة بحسن السيرة والتقـــوى والرغبة في العمران ••»

فقاطعه الامام قائلا : «لو علمت انك جئت بي لأسمع منك ما سمعته لفضلت البقاء في سجني ، اننا في طاعة ابي احمد المستعصم ابن اخي • واذا اخطأ فعلينا نصحه وكفى» •

فلم يستغرب مؤيد الدين حذر الامام وانكاره وما ظهر مــن تسرع سحبان ، وان كان يعتقد رغبته في الخلافة اكثر من رغبتهما ، وانما هي التؤدة والدهاء وحسن السياسة لا بد منها في مثل هذه الحال • فالتفت الى الامام وقال : «ان صديقي سحبان يعبر بعمله عن شعور كل مسلم ، ولاسيما قومنا الشيعة العلوية ، فانهم قاسوا في ايام ابن اخيك هذا مر العذاب مما لا يمكن اخفاؤه ، وان كنت لا ارى التسرع في الامر الى هذا الحد وعلى هذا الشكل لاننا لم نخط خطوة واحدة في سبيل ما نحن فيه» • والتفت الى سحبان وقال : «اخرجنا مولانا الامام من قصره فأين نضعه الان ؟ واذا عرف الخليفة غدا انه ليس في قصر الفردوس فلا يتهم به سوانا والجند في يده يفتك كما يشاء» •

فقطع سحبان كلامه قائلا : «لا تخف اني اعود به الى قصره الليلة ، وقد دبرت ذلك بحيث لا يشعر به احد، وانما جئت به لتطلعه على غرضنا بناء على قولك انه يكفينا الان ابدال خليفة بخليفة ، واتفق رأينا على ان مولانا الامام احمد أولى العباسيين بذلك» • والتفت نحو الامام وقال : «وأرغب الى مولانا ان يرفع كل حجاب بيننا وبينه ويكفينا مؤونة المجاملة والحذر فاني لا احب الا الصراحة • ونحن الان نطلب من مولانا ان يجيبنا

عن هذا السؤال . (اذا استطعنا قلب الحكومة وأردنا تنصيب خليفة فهل يقبل الامام احمد ان تكون الخلافة اليه ؟ وهل يمدنا خيرا ، ولاسيما من جهة الشيعة ومعاملتهم ؟) ..»

وبرغم ما رآه مؤيد الدين من التسرع في عمل سحبان ، فانه وافقه على هذا الاقتراح ورأب الصواب فيه ، وعلم ان المشروعات الكبرى تفتقر الى الاقدام والحزم مثل حاجتها الى التروي والتؤدة . فأطرق وهو ينتظر ما يقوله الامام فاذا به يقول : «ان الخلافة يا اولادي اذا اتتني لا يمكنني التخلف عنها خوفا على مصالح المسلمين . واذا ابيت فاني أرتكب خطأ او معصية ، واذا صرت خليفة فأول واجب علي اجداء العـــــدل وانصاف المظلومين من آل بيت الرسول صلوات الله وسلامه عليه» .

فقال مؤيد الدين : «بارك الله في مولانا ، واذا وفقنا الله الى ما نبغيه فانما يكون لصالح المسلمين ، ونشكر لمولانا قبوله القيام بتلك المهمة ، وانما آسف لان صديقي سحبان كلفك مشقة الخروج الينا فضلا عن الخطر» .

فتصدى سحبان قائلا : «لا مشقة هناك ولا خطر ، ويمكن بقاء الامام خارج قصره عدة ايام ولا يشعر احد بغيابه ، لاني وضعت في مكانه رجلا كثير الشبه به . استطعت ذلك بما بيني وبين قيّم ذلك القصر مـــــن الصداقة ، وهو راغب في قلب هذه الخلافة اكثر من رغبتنا .لان هــذا الخليفة وابنه لم ينج احد من اذاهما . كن مطمئنا يا صاحبي ، واذا كنت خائفا من التجسس عليك فها نحن اولاء ذاهبون عنك الساعة» . وتحفز للوقوف ، وهم الامام احمد بأن ينهض ، فنهض مؤيد الدين باحترام وقال: «ان مولانا الامام قد شرف منزل مملوكه ، وأطلب الى الله ان يمن علينا بصيرورة الامر اليه ويوفقنا الى القيام بخدمته» .

* * *

خرج الضيفان وخرج مؤيد الدين لوداعهما ، ولما عاد الى غرفته عاد الى التفكير في كتاب هولاكو وكيف اضاعه ، وعاد الى التفتيش عنه في كل مكان حتى كل دماغه وتوالت عليه الاوهام والمخاوف ، لعلمه ان عيون الجواسيس لا تنام عن استطلاع أخباره والوشاية به ، فتولاه القلق ، وذهب الى فراشه فلم يستطع الرقاد وعاد يفكر في ذلك الكتاب وأين هو؟ وكان يعترض هذه الهواجس تفكيره في الامام احمد وسحبان وهولاكو وما هو فيه من القلق على قومه وعلى نفسه ، وتعاظمت مخاوفه وهو تحت الغطاء لان الظلام يكبر الاوهام ويعظم الاشباح ، وأفاق في الصباح وقد اخذ التعب منه مأخذا عظيما .

وليس على الانسان أشد وطأة من التردد بين امرين مهمين لا يدري أيهما يتبع ، ويغلب ان يكون سبب التردد تنازعا بين العقل والقلب ، فمتى غلب احدهما انتهت الازمة واستقر الرأي وهدأ الخاطر . وكان مؤيد الدين يتنازعه عاملان : احدهما يدعوه اليه عقله وهو ان فساد الحكومة ذاهب بالدولة الى الخراب ولا يرجى صلاحها الا بابدال الخليفة ، ولا يستطاع ذلك الا بيد قوية قاهرة مثل يد هولاكو ، ويخامر هذا الحكم العقلي شعور قلبي فيه انتقام من ابن الخليفة وثأر للعلويين من اهل السنة . والثاني يدعوه اليه قلبه او ضميره اذ يبكته على هذا العمل لانه خيانة لمولاه الذي أقسم على طاعته .

على ان ضياع كتاب هولاكو أحدث عاملا اخر شديد الوطأة على قلب مؤيد الدين ، اذ ترجح لديه ان يدا اخذت ذلك الكتاب عمدا ، ولا يلبث ان يصل الى عدوه الذي يتجسس عليه فيجعله حجة ضده ويتهمه بالمؤامرة مع اعدائه . ثم تذكر فحوى الكتاب فلم يجد فيه ما يبعث على تهمة المؤامرة لكنه يدل على مخابرة جارية بين عدو البلاد ووزيرها .

فلما تصور ذلك خيل له ان الخليفة اذا علم به يأمر بالقبض عليه او

يقتله ؛ ولاسيما اذا دخل ابنه ابو بكر في ذلك ، فلا تبقى له حيلة في النجاة ، فمن الحزم ان يتدبر الامر ويتلافى الشر قبل وقوعه او يستعد له على الاقل . وتذكر ما وعده به هولاكو من الحسنات اذا هو اطاعه وكتب اليه بالمجيء ، فخطر له ان يبعث اليه في ذلك ، فاشمأزت نفسه من هذا الخاطر ، ثم اعترضه ما يهدده من الخطر اذا ظل ساكتا فاشتد تحيره، فنهض من فراشه وأخذ يتشاغل بلبس ثيابه وهو غارق في التفكير، فغلب عليه الدفاع عن حياته وهم بالكتابة الى هولاكو ، فأمر قيّم الدار ان يأتيه بغلام من عبيده ، فأتاه بشاب اصله من رقيق تركستان وقد دخل قصر الوزير من عهد غير بعيد وليس فيه نباهة . فلما وقف الغلام بين يديه تفرس فيه ، ثم أمر القيّم ان يحلق له شعر رأسه ففعل . وجاء الغلام ورأسه كأنه صفحة بيضاء . وكان ذلك القيّم قد ربي في بيت مؤيد الدين وله اطلاع على مكنونات قلبه ، وهو شديد الغيرة عليه ، وقد ادرك غرضه من طلب ذلك الغلام على هذه الصورة . فلما عاد به ناداه مؤيد الدين قائلا : «ألم تفهم مرادي ؟» . قال : «نعم يا مولاي . اني رهين الاشارة» . قال : «الي بالابر والكحل واغلق الباب وراءك».

فذهب وعاد بالابر والكحل وأغلق الباب ، وقعد على مقعد وأمر الغلام ان يجثو امامه بحيث يصبح رأسه بين يديه . ثم تقدم مؤيد الدين وبيده ورقة قد كتب عليها كلمات قليلة ، وأومأ الى القيّم ان ينقشها على رأس الغلام بالابر وبذر عليها الكحل كما يفعل الوشامون فتناول القيّم الورقة وقرأ فيها : «تعال الينا بقوتك وجندك» . فأدرك انها رسالة الى هولاكو ، وكان من أشد الناس عداوة للخليفة وحاشيته لانه شيعي وقد اصابه شيء من اذاهم ، فأخذ في نقش الرسالة على رأس الغلام ، وهو لسذاجته كالبهيمة لا يفهم شيئا . فلما فرغ القيّم من ذلك نظر الى مؤيد الدين وابتسم ، فأشار اليه ان يحتفظ بذلك الغلام حتى ينبت

شعره ويغطي تلك الكتابة ، فاذا ظل على اعتزامه استقدام هولاكــــو أرسل الغلام اليه . ويكفي ان يقال لهولاكو ان هذا الغلام قادم مــــن مؤيد الدين فيحلق رأسه ويقرأ عليه ثم يقتله . فاذا رأى العدول عـن ارسالها استبقى الغلام عنده وشعره يكسو رأسه ، لانه لم يزل الى تلك الساعة مترددا ، وضميره غالب على ارادته وهو يرجو ان تصلح الشؤون بالمسالمة .

وأحس مؤيد الدين في تلك الساعة براحة ، وعاد الى شواغله وهي كثيرة ، اهمها النظر في أمور الدولة . فركب بغلته الى قصر التاج للنظر فيما جاء به البريد او ما حدث من الامور العامة ، وكان يفكر طـــول الطريق في الكتاب الضائع ويراقب حركات القوم هناك ليتحقق ما كان من امره ، فلما لم ير ما يبعث على سوء الظن اطمأن باله وعاد الى منزله وقد ذهب قلقه .

- ٩ -

بين المستعصم وهولاكو

مضت على تلك الحال ايام ،وقد نسي مؤيد الدين امر الكتـــــاب وهولاكو ، ولم يسمع عن ابن الخليفة شيئا يسوءه . فظن خيرا وتوهم ان ذلك الشاب رجع عن غيه بعد ان أحس بحرج المركز والخطر الذي يهدد المملكة بسبب الانقسام . لكنه اصبح ذات يوم وقد جاءه رسول المستعصم يدعوه سريعا ، فركب بغلته وهو يفكر فيما عسى ان يكون

سبب هذه الدعوة العاجلة ، وتذكر الكتاب الضائع ، فخاف ان يكـون لتلك الدعوة علاقة به ، فتجلد حتى اتى قصر التاج ، ودخل على الخليفة وهو جالس في ديوان الخاصة وعنده ابنه ابو بكر والداودار ، فاستعاذ بالله من ذلك الصباح ، لكنه دخل وألقى السلام ، فرد المستعصم التحية ودعاه الى الجلوس ، ثم دفع اليه كتابا كان بجانبه على السرير فتناولـه مؤيد الدين وقرأه واذا فيه :

«من الخاقان العظيم هولاكو سلطان السلاطين الى المستعصم باللـه العباسي . أما بعد فانا قد مللنا المماطلة ونحن صابرون . أما آن لك ان ترعوي وتعرف قدرنا ؟ بعثنا اليك نستعينك علـى الاسماعيلية الفتاكين القتلة ، ونحن لا نخافهم على انفسنا كما نخافهم عليك فأبيت . فدلنا ذلك على سوء رأيك ، فبعثنا نعاتبك على عملك فأجبتنا جوابا باردا لا يشفي غليلا وشفعته بهدية هي أولى ان تهدى اليك كأنك تظننا في حاجة الـى المال ، ولم ترسل الينا رسولا يخفف من غضبنا ، وقد كنا نقنع منـــك برسول عاقل . اما الان فلا يرضينا الا ان تأتي انت بنفسك او ترسل الينا وزيرك او قائد جندك للاعتذار ، وان لم تفعل فلا تلومن الا نفسك .. والسلام » .

وما فرغ من تلاوة الكتاب حتى اخذ منه الاسف مأخذا عظيما ، ونظر الى الخليفة فرآه مطرقا يفكر ، فظنه قد اعتبر ولا يلبث ان يطاوعه في استرضاء هذا الفاتح التتري ، فاذا هو قد وقع بصره اليه وقال : «كيف رأيت ايها الوزير ؟» . قال : «الرأي لمولاي امير المؤمنين» .

قال : «هل اعجبتك وقاحة هذا التتري ، وما جزاؤه عندك ؟»

فلما سمع هذا التعبير استغربه ، وشعر ان الخليفة لم يقدر مركزه حق قدره ، فقال : «أستأذن مولاي في امر لا بد لي من التصريح به . ان هذا الرجل اصبح الان شديد البطش ، وقد علمنا من جواسيسنا انه

فاز في حروبه مع الفرس وغيرهم ، وأصبح جيشه عديدا ، وعنده العدة والمؤونة ، واذا لم نجبه جوابا حسنا حمل على بغداد ، فالذي ..»

فتعرض ابو بكر للكلام باستخفاف وقال : «يحمل على بغداد ؟ وهل ينال غير الخزي والفشل اذا حمل عليها ؟»

فازداد مؤيد الدين اسفا ولم يجبه ، لكنه وجه كلامه الى الخليفة وقال : «فالذي اراه ان نسترضيه ريثما نتأهب» .

فقال الخليفة : «بماذا نسترضيه ؟. انه يطلب مني ان اذهب اليه بنفسي او أرسل اليه الوزير او الداودار ، ألم يكن الاولى ان نتلافى الامر قبل تفاقمه ؟»

قال الوزير وقد أعجبه اذعان الخليفة للحقيقة : «كان ينبغي ذلك ، ولم يقصر العبد في اداء النصيحة في المرة الماضية لما جاء كتاب هولاكو هذا ، فقد شرحت لمولاي ما نخافه من هؤلاء ، ورغبت الى امير المؤمنين ان يبعث اليه بالهدايا الفاخرة من الجواهر والمماليك والجواري فان القوم يرضيهم ذلك ، فاعترض الداودار يومئذ ، واتهمني بالضعف ، وظنني أفعل ذلك ممالأة للعدو ، وأطاعه مولاي فأرسل هدية حقيرة اغضبت هولاكو فكتب ما كتب» .

وكان الداودار جالسا فلما سمع ذكر اسمه تصدى للكلام قائلا : «اظن الوزير يريد منا ان نذعن لهذا الطاغية ونسترضيه بكل ما عندنا ، ولو فعلنا ذلك لم يزدد الا عتوا وطمعا» .

فقال الخليفة موجها خطابه الى الداودار : «وماذا يرى قائدنا الان ، هل يذهب اليه بنفسه كما يطلب ؟»

قال وهو يظهر الانفة والعظمة : «نعم أذهب اليه محاربا اذا شاء مولاي» .

فاستغرب ابن العلقمي غرور هذا القائد ، وهو يعلم عجزه عن ذلك ،

مع فراغ الخزانة من الاموال ، حتى اضطر الخليفة ان يقتصد من أعطيات الجند . وكان مؤيد الدين قد اشار عليه بذلك ليجمع مالا يرضي بـــه التتر لعلهم يعودون بلا حرب. وكان جيش بغداد ١٠٠،٠٠٠ فارس فسرح منه ٨٠،٠٠٠ واستبقي عشرين الفا والداوادار يعلم ذلك .. فهل يحارب التتر بهذا العدد ؟. اما الخليفة فلم يكن يجهل هذه الحقيقة . فأجـــاب الداودار قائلا : «كيف تخرج لمحاربتهم وليس عندك الا عشرون الفا ؟»

قال : «صدق امير المؤمنين ، ان هذا العدد لا يكفي الان لكننا نجند سواهم » .

فقال : «هل يسهل التجنيد ؟»

قال : «كيف لا ؟. ان المال الذي اشار الوزير باقتصاده من أعطيات الجند يكفي للتجنيد . سامح الله الوزير ، انه اخطأ بأخذه بهذا الرأي ولم نستفد منه الا نقمة الجند علينا» .

فأراد الخليفة ان يدفع عن الوزير ، فتصدى ابو بكر وقال : «ومـــا الذي يهم الوزير رضي الجند او غضبـــوا ، انما يهمـــه ألا يغضب هولاكو » .

★ ★ ★

فكان لهذا الكلام وقع شديد على نفس ابن العلقمي ، وتذكر كتابه الضائع فخاف ان يكون لهذا الكلام علاقة به ، فأغضى عن وقاحة ذلك الشاب الى مخاطبة الخليفة ، ثم اجاب الداودار فقال : «ان ما أشرت به من قبل لا ازال عليه حتى الان . وما جمع لدينا من المال المقتصد لـــو استرضينا به هولاكو لرضي وكفانا مؤونة الحرب . اما الان وأنت قائد الجند ، فاذا كنت ترى جندنا قادرا على الحرب ، فالرأي راجع لامـــير المؤمنين » .

فنظر الخليفة الى ابن العلقمي وقال : «هل هذا هو رأي الوزير فيما نحن فيه» .

قال : «نعم ارى ان نسترضي هولاكو بما امكن غير الحرب» .

قال الخليفة :«انه يطلب ان أذهب انا اليه او انت او الداودار» .

قال : «يرسل المولى من شاء منا» .

فقطع ابو بكر احمد كلامه قائلا وهو يضحك متهكما : «اظن الوزير يتمنى ان يذهب هو بهذه المهمة لزيارة صديقه الخاقان» . وقهقــــه ضاحكا .

فاستغرب المستعصم هذا القول ، ونظر الى ابنه نظرة توبيخ على هذا المزاح ، فوقف ابو بكر وأظهر الجد وقال : «انني اقول الحق يا ابي . اسأل الوزير ألم يكن بينه وبين هولاكو صداقة ومراسلة ؟»

فأجفل الوزير وترجح عنده ان ابا بكر مطلع على شيء مما بينه وبين هولاكو ، فأظهر اشمئزازه من ذلك الحديث والتفت نحو الخليفة معاتبا، فالتفت الخليفة الى ابنه وقال : «لا محل لهذا الكلام يا احمد الان» . فمد ابو بكر يده الى جيبه وأخرج كتابا دفعه الى ابيه وقال : «وهــذا الكتاب يشهد بذلك» . فتناول المستعصم الكتاب وقرأه ، ثم نظر الــى مؤيد الدين فرآه مطرقا ، فقال له : «أتعرف هذا الكتاب ؟» . فرأى من الحزم ان يتجلد فنظر الى الكتاب وقال : «أعرفه يا مولاي وقد كان معي وسرق مني» .

فرماه المستعصم اليه وقال : «انه يؤيد كلام ولدنا ، ويدل ايضا على ان بينك وبين هولاكو تزاورا» .

فالتقط مؤيد الدين الكتاب وقال : «نعم ياسيدي ، لكن هل يدل على اني متفق معه على عمل ، ام هو يشكو من رفض مطالبه ؟»

فقال ابو بكر : «ولكن على كل حال يظهر مما في اخره ان المخابرة

بينكما قديمة . ألم يكن يجدر بك ان تطلع امير المؤمنين على ذلك . ما آدرانا بما دار بينكما ؟. والارجح انك متفق معه على تسليم البلاد اليه ، وانما اختلفتما في كيفية تسليمها . ليس هذا شأن الوزير المخلص لمولاه كما تدعي» .

فتحير مؤيد الدين بماذا يجيب ، وهم بالكلام فرأى الخليفة يشير اليه ان يسكت ، وقد بان الغضب في وجهه ثم قال : «صدق ابو بكر لم اكن أتوقع منك ذلك مع ثقتي بك . كان ينبغي ان تطلعني على ما يدور بينك وبين عدونا قبل الان» .

فأراد ابن العلقمي ان يدفع عن نفسه فأشار اليه المستعصم ان يسكت وقال : «طالما دافعت عنك وكذبت ما ينقلونه لي والتمست لك الاعذار . اما الان فظهر لي ان كلامهم هو الصواب ، ولا أفهم لسكوتك عن اتصال هولاكو بك معنى سوى ان لك في ذلك غرضا او مطمعا ، ولولا ذلك لاطلعتني على ما دار بينكما» .

فلم يطق مؤيد الدين صبرا على السكوت فقال : «لم أر فائدة من اطلاع مولاي على ما يكدره ، وانما يطلب مني ان أحافظ على الولاء له وأدافع عن مقام الخلافة . فهل في هذا الكتاب ما يدل على خيانة ؟ فاذا كان فيه شيء من ذلك فالعبد رهين امر مولاه» .

فاعتدل المستعصم في مجلسه وقال : «حسنا . وهل كان في اطلاعي على مكان تلك الجارية ضرر ايضا ؟»

فاستغرب مؤيد الدين قوله وقال : «أي جارية يا مولاي ؟» . قال : «جارية ابي بكر الذي ذبح اهل الكرخ بسببها» . قال : «وما شأنها فيما نحن فيه ؟»

فقال الخليفة : «ما كنت أظنك تجهل شأنها . ألم تكن تعلم ان مقتلة الكرخ انما جرت بسببها لان أبا بكر علم انها مختبئة هناك وأنكروها

عليه ؟» . قال : «بلى !» . قال : «وقد قلت لنا يومئذ انك لا تعـــرف عنها شيئا» . قال : «نعم» . قال : «كيف تقول ذلك وهي مخبوءة فـــي منزلك ؟» . فأجفل مؤيد الدين عند سماع ذلك وقال : «مخبوءة فـــي منزلي ؟» . قال : «نعم . او منزل بعض اهلك في الكاظمية . وقـــد استرجعها ابو بكر امس بهمة الداودار» .

فتذكر مؤيد الدين شوكار وان سحبان اخذها من عنده ليخبئها في الكاظمية ، ولما تذكر ذلك سرى عنه لانه سيفوز بها على ابي بكر لعلمه انها جارية المستعصم وقد خطفها ابو بكر لنفسه ، فقال وهو يظهـــر الاستخفاف : «هل امير المؤمنين واثق بما قيل له ؟»

قال : «هذا ابو بكر ، وهذا الداودار ، وقد اتيا بها امس مـــن الكاظمية » .

قال : «هل رآها امير المؤمنين ؟» . قال : «لا . لم آرها ولكني لا أشك في صدقهما» .

ووقف ابو بكر وهو يظهر الغضب وقال : «وهل انا كاذب ؟» . فقال له مؤيد الدين : «لا أعلم ولكنني اعلم اني غير كاذب . وبما انك وجهت الي تهمة الخيانة فيقتضي ان تثبت قولك بالبرهان . فاذا اثبته فاني مذعن لحكم مولاي» .

فقال ابو بكر : «لا حاجة الى اثبات ذلك فانه ثابت عندنا جميعا» .

وجلس وراح يتشاغل بفتل شاربيه ويظهر الازدراء ، وقد خاف ان يلح مؤيد الدين في طلب الجارية ليراها ابوه فيفتضح امره، وندم على ذكر هذه الجارية لابيه ، لكنه لم يكن يعلم ان مؤيد الدين مطلع علـــى تاريخها .



اما مؤيد الدين فازداد تمسكا بقوله ووجه كلامه الى الخليفة وقال : «هل من ضرر اذا أمر مولاي امير المؤمنين باحضار الجارية لنراها ونطلب شهادتها ؟ »

فقال : «لا ضرر من ذلك» . والتفت الى ابي بكر وقال : «اين هي؟»

فأظهر الاشمئزاز من ذلك الطلب وقال : «ما الداعي لاستقدام جارية الى ديوان امير المؤمنين ؟ وما هي اهميتها ؟»

قال مؤيد الدين : «انها ذات اهمية كبرى . لان الوزير متهم بالخيانة والكذب بسببها ، فالمطلوب اثبات ذلك» .

فنهض ابو بكر وهو يظهر عدم المبالاة وقال : «ليس امر هذه الجارية مهما ، وانما المهم كتاب هولاكو وقد اطلع عليه والدي وكفى» . قال ذلك وتحول وخرج بلا استئذان وأبوه ينظر اليه ، وقد سره خروجه لئلا يفرط منه كلام يسيئه ، لكنه كان يحب بقاءه ليتحقق امر تلك الجارية فناداه وقال : «احب ان تتم امر البحث في امر الجارية» . فقال: «لا اهمية لها .. وأنا أسامح الوزير على خطيئته بشأنها» . فقال الوزير : «أما انا فلا أسامح نفسي . احب ان تأتي الجارية وتثبت الخيانة علي او على غيري ، وطلبي هذا حق» .

فما زاد ابو بكر على ان ضحك ومشى وأبوه يتبعه بنظره .

اما مؤيد الدين فالتفت الى الخليفة وقال : «يأمر مولاي باستقدام الجارية الى هنا ، وهذا الداودار يعرفها لانه كان مع الامير ابي بكر لما أخرجاها من منزل بعض اهلي في الكاظمية كما يقول» .

فالتفت الخليفة الى الداودار كأنه يأذن له في الكلام فقال مخاطبا الوزير : «وهل انت في شك من قول مولانا ابي بكر ؟» . قال : «لا شك عندي في قوله ولا قولك ، لكني ألتمس من مولاي الخليفة ان يأمر باستقدامها» . فأشار الخليفة الى الداودار قائلا : «لا ارى بأسا من

استقدامها فافعل» .

ولم يكن الداودار يعرف علاقة هذه الجارية بالخليفة ولذلك لم ير بأسا من احضارها ، فنهض وهو يقول : «انا ذاهب بأمر مولاي لاستقدام الجارية بدون ان أستأذن الامير ابا بكر» . قال الخليفة : «افعل» . فخرج الداودار وظل ابن العلقمي جالسا يفكر فيما وفق اليه من التغلب على عدوه ، والخليفة مطرق لا يتكلم . ولم يمض كثير حتى عاد الداودار لان المنزل الذي وضعوا فيه شوكار كان قريبا من قصر التاج .

دخل الداودار ووقف وقفة الظافر وقال : «ان الجارية بالباب ، هل ادخلها يا مولاي ؟» . قال : «لتدخل» .

فدخلت ومؤيد الدين ينظر الى الباب بلهفة مخافة ان يكون قد جاء بجارية اخرى غير شوكار ، فلما وجد انها هي انشرح صدره . اما شوكار فوقفت مطرقة ، فخاطبها الخليفة قائلا : «ألم تكوني مخبوءة في الكاظمية وجاء بك قائدنا هذا امس ؟» . قالت : «بلى يا مولاي» . قال : «ومن خبأك هناك ، اصدقيني ؟» . قالت : «وهل يجسر احد على الكذب في حضرة امير المؤمنين ، خبأني رجل اسمه سحبان» . قال : «ألم يكن الوزير مؤيد الدين الذي خبأك ؟» . قالت : «كلا يا مولاي ، ولم يكن يعرف اني مختبئة هناك» . قال : «ألا تعرفين وزيرنا قبل الان ؟»

فتحيرت في الجواب وتلعثمت لانها توسمت من وراء تلك الاسئلة سوءا يريده الخليفة بالوزير وهي لم تر من الوزير الا الخير ، ولا تحب مع ذلك ان تقص خبرها على الخليفة فارتج عليها . فوقف مؤيد الدين وقال للخليفة : «يتفضل مولانا بالسؤال عن اسمها ومن اين اتت الى بغداد وما سبب مجيئها ؟»

فقال الخليفة : «وما علاقة ذلك بما نحن فيه ؟» . قال : «سيرى مولانا انه ذا علاقة كبرى بذلك ، وسيكشف له عن أمور جليلة» . فقال

الخليفة : «ما اسمك ، ومن اين اتيت ، ولماذا ؟» . ففهمت شوكار من تعرض ابن العلقمي لهذا الامر انه يريدها ان تقول الحقيقـــة ، فقالت : «اسمي شوكار ، وقد جئت من مصر لاكون مغنيـــة في قصر امـــير المؤمنين » .

فلما سمع الخليفة قولها أجفل وخفق قلبه اذ ترجح له انها المغنية التي كان قد اضاعها ، فنظر الى مؤيد الدين ثم الى الداودار وقد تولته الدهشة وأعاد السؤال عليها قائلا : «انت شوكار جارية شجرة الدر ؟»

قالت : «نعم يا مولاي اني شوكار جارية شجرة الدر» . قال : «من اخذك مني ؟ وأين كنت كل هذه المدة ؟»

قالت : «اخذني ابنك الامير ابو بكر وأخفاني عنده» .

قال : «ألم تكوني انت الجارية التي حدثت مقتلة الكرخ من اجلها ؟»

قالت : «انا تلك الجارية يا مولاي، وكنت قد فررت للنجاة بنفسي» .

قال : «وكيف اخذك ابني وأنت محمولة الي ؟»

قالت : «لما وصلت مع الركب الى قرب بغداد جاءنا جند قالوا انهـم قادمون من قصر امير المؤمنين ليأخذوني اليه ، فدفعني الركب اليهـــم فأخذوني الى قصر عرفت بعد ذلك انه للامير احمد ابي بكر ..»

فأخذ الغضب من الخليفة مأخذا عظيما ، وندم الداودار لانه تصدى لحمل الجارية الى هناك ، وأصبح خائفا على ابي بكر من غضب ابيه ، فوقع في حيرة ، وأعاد النظر الى تلك الجارية بدهشة . وظل مؤيد الدين ساكتا وقلبه يرقص فرحا لفوزه ، اما شوكار فقد عدت انتقالها من بيت ابي بكر الى بيت الخليفة فرجا وان كانت تفضل الانتقال الى مصر .

★ ★ ★

وحينما تحقق الخليفة الواقع صفق ، فجاءه غلام فأومأ اليه ان يأخذ

شوكار الى قصر التاج ويسلمها الى القهرمانة ويوصيها بها خيرا ، والتفت الى الداوادار وقال : «قد سمعت الان ان الذين اعانوا احمد على هـذه الجريمة من الجند . أيليق ذلك بالاجناد ؟ أليست هذه خيانة منهم ؟»

فاعتبر الداودار هذا التوبيخ موجها اليه لانه القائد العام ، فاضطر في سبيل الدفاع عن نفسه ان يشكو ابن الخليفة فقال : «لم يفعل الجند ذلك بأمري وانما فعلوه بأمر الامير احمد ابي بكر ، وهل نستطيع ان نخالف له امرا ؟»

قال : «كيف لا ؟ أتطيعون ابني في سبيل معصيتي ، وأنا لا ازال حيـا ؟ »

وتحرك في مجلسه من شدة الغضب وأخذ يلهث وينفخ ويصر على اسنانه ، فخيل لمؤيد الدين ان ابا بكر لو كان حاضرا لامر الخليفـة بقتله ، وود لو انه يحضر ، واذا بالخليفة يقول للداودار : «اين احمد الان ؟» . قال : «لا أعلم يا مولاي» . قال : «الي به حالا أينما كان» . فخرج الداودار . ونظر الخليفة الى مؤيد الدين نظر الاعتذار لانه شك فيه وقال : «لقد اسأنا الظن بك يا وزيرنا . جوزيت خيرا ، لماذا لـم تطلعني على خبر هذه الجارية من قبل ؟»

قال : «لاني لم أعرف بها الا منذ ايام قليلة ، وقد قلت للذي قص علي خبرها ان يخبئها في مكان امين ريثما نطلع امير المؤمنين على امرها في فرصة مناسبة لا يدري بها الامير ابو بكر ، لاننا لو اردنا ان نفعل ذلك بعلمه لما نجونا من الاذى وهو ابن امير المؤمنين والجند طـوع ارادته » .

فهز الخليفة رأسه وقال : «انا لله وانا اليه راجعون . اني اخطـأت باطلاق سراح ابني هذا ، ولو كان محجورا عليه كما كان الامراء قبله لما كان في مثل هذه الاخلاق ، ولما جر علينا هذه البلايا . لأحبسنه ولاحجرن

عليه ولاعلمنه كيف يكون مطيعا . قبحه الله من ابن عاق» .

وبينما هما في ذلك اذ سمعا ضوضاء بالباب عرفا منها صوت ابي بكر وهو يقول بلحن الغضب : «أما كفاه من في داره من النساء حتى يطمع في جاريتي . دعني أدخل» . واذا بالحاجب يدخل وهـــو يقول : «ان مولانا ابا بكر ابن امير المؤمنين بالباب ، هل يدخل ؟» . فقال : «هل جاء وحده ؟» . قال : «نعم» . قال : «وكيف ذلك ، أليس الداودار معه ؟» . قال : «لا» . ولم ينتظر ابو بكر الاذن له في الدخول ، فدخل والغضب باد في محياه ، فلما رآه ابوه داخلا استعاذ بالله وابتدره قائلا : «مـا هذا يا احمد ، أهكذا يدخلون على امير المؤمنين ، اين التربية ووقـار الخلافة ؟ »

فجلس دون ان ينتظر الاذن ، وقال : «تسألني عن التربية وأنا ابن امير المؤمنين وقد ربيت في حجره ؟ ولعل ذلك من اسباب شقائي .. يحسدني الناس على ان الخليفة ابي ولو علموا كيف يعاملني لأشفقـــوا علي» . قال ذلك واختنق صوته كأنه يجهش بالبكاء .

فلما سمع المستعصم اجهاشه ولحظ شيئا يتلألأ في عينيه كالدمع خمد غضبه وتغلب حنانه ، وان لم يكن هناك ما يدعو الى الحنان والاشفاق ، وذلك لان المحبة الابوية لا تذعن للحقوق ولا تعترف بقواعد المنطق ولا تطلب البراهين ، وانما هي حاكم مستبد اكثر اعماله لا تنطبق علـــى القوانين ، وكثير منها يناقض المنطق ويخالف أحكام العقل . الاب يحب ابنه ويغار عليه ويرى فيه حسنات لا يراها الاخرون . وهو لا يحبه لانه يرجو منه نفعا ، او لانه يستحق المحبة لفضائل فيه او حسنات اتاها ، وانما يحبه عفوا . يحبه لانه ابنه ، ويزداد حبه له كلما شقي في تربيته ، ويزداد عطفه عليه اذا رآه حزينا . ان الوالدين ليس أدعى الى تحريك شفقتهما من ان يريا ابنهما باكيا وان كانا في أشد حالات الغضب كأن

دموعه تقع على نار ذلك الغضب فتطفئها ويتصاعد دخانها فيغشي مـــا هناك من دواعي النقمة فلا يريان غير بواعث الشفقة والعطف .

وكان المستعصم من أضعف الآباء قلبا وأكثرهم حنانا ، فأوشك ان ينسى اسباب غضبه على ابنه لكنه تجلد وقال : «أبمثل هذا تخاطب أباك؟ هل يحق لك الشكوى من ابيك وقد منحك ما كان يشتهيه ابناء الخلفاء قبلك ؟ كانوا مسجونين وأنت حر طليق ولك الامر والنهي ، ألم تـــر الداودار ؟ »

قال : «لا . لم أره . لكنهم قالوا لي انه اتى قصري وحمل جاريتي فلم أطق الصبر على ذلك فجئت لأشكو اليك عمله . فاذا انت تمن علي بالحرية التي وهبتني اياها . وأي حرية هذه وقد ضننت علي بجارية مع كثرة الجواري في قصرك ولكن ..»

فقطع المستعصم كلامه قائلا : «لم أضن عليك بجارية ، لكنني عتبت عليك لانك اختطفت جارية آتية من مصر باسمي» .

فقال وهو يحول وجهه استخفافا : «آتية من مصر باسمك ؟ انك لا ترى بأسا من اقتناء مئات الجواري وتبعث في طلبهن من الاطراف . وابنك الشاب اذا اخذ جارية منهن اتهمته بالعقوق وشددت النكير عليه. لو كنت ابن احد العامة لم يفعل ابي معي فعل امير المؤمنين» . قال ذلك وغص بريقه وأظهر انه ضاق صدره من الاجهاش وانه انما يمسك نفسه عن البكاء حياء ثم قال : «ومع ذلك انت امير المؤمنين ولك الحق فـــي أمور ليس لسواك الحق فيها . ونحن عبيدك وكل ما هو لنا طـــــوع ارادتك . ولا يزال عندي بضع جوار أخر أبعث الداودار ليحملهن اليك. يا ليتك أبقيتني اسيرا ولم ترني نور الحرية . ان المولود في الظلمة لا يعرف لذة النور ولا يأسف لفراقه ، واذا كنت قد ندمت على اطـــلاق سراحي فها أنذا بين يديك احبسني او اقتلني . والقتل خير لاني أريحك

من المتاعب» . وأظهر انه لم يعد يستطيع التماسك عن البكاء وأخذ في الشهيق ، وأوشك ابوه ان يشاركه في ذلك .

أما مؤيد الدين فكان جالسا يسمع ويرى وقد أدهشه ما رآه من الانقلاب في عواطف المستعصم ، فذهب فرحه بالفوز عبثا ، واكتفى بالنجاة من الغضب ، وود الخروج من ذلك المجلس ، ولكن لا يجوز له ان يستأذن قبل ان يرى الخليفة راغبا في صرفه على عادة الخلفاء والملوك . فأخذ يتحرك في مجلسه ليوجه التفات الخليفة الى صرفه ، وقد يكون الخليفة اكثر رغبة منه في ذلك .

لكن حركته لفتت انتباه ابي بكر فتحول نحوه وعاد الى الكلام فقال: «انا لا أشك في حب ابي ، ولكن الذنب كله على هذا الوزير الذي شب على كرهنا لانه علوي ولا يرى لنا الحق في الخلافة» . ووجه خطابه الى ابيه وقال : «واني لأستغرب صبر والدي على رجل يكرهنا ويسعى في خلع خلافتنا ويخابر ألد اعدائنا سرا ، وأغرب من ذلك انه صدق دفاعه عن نفسه» . ومد يده الى كتاب هولاكو ، وكان ما زال في يد مؤيد الدين ، فاختطفه منه بخشونة وفتحه وقال وهو ينظر فيه : «صدق دفاعه وظنه بريئا من المواطأة مع عدونا وهو يقول له في هذا الكتاب انه صديقه ويشير عليه بارسال الرسالة كما قال له قبلا ، ألا يدل هذا على سبق المخابرة في شأن الخيانة ؟ ومع ذلك فان قول ابن العلقمي العلوي مصدق وقول احمد مكذب» . وعاد الى البكاء .

فتفطر قلب ابيه لبكائه ، ورأى مؤيد الدين في وجهه الانصياع الى رأي ابنه ، فأسقط في يده وتحقق ان سعيه ذهب سدى ، وود لو انه يختفي من المجلس لئلا يسمع تأنيبا من الخليفة نفسه ، فاذا هذا يقول : «سأنظر في امر احمد والجارية في فرصة اخرى . أما من حيث مخابرة العدو فقد صدق احمد يا مؤيد الدين . كيف صبرت على مخابرة ذلك

العدو مدة ولم تخبرنا • اني واثق بأمانتك ولكن للثقة حدودا تقـــف عندها •• لا •.لا • لا ازال على ثقتي بك وان خالفني احمد • انه قال ما قاله الان من غضب» •

فقطع احمد كلام ابيه قائلا : «لا • لا اقول عن غضب ، انت تعرف سوء رأيي في هذا الوزير من قبل وقد تحقق ظني فيه اليوم» •

فلم يشأ الخليفة ان تنتهي الجلسة على هذه الصورة لانه يعتقـــد اقتدار وزيره ويرى نفسه في حاجة اليه ، لكنه لم يستطـــع ان يغالب عواطفه الابوية ويجدل ابنه فأحب اقفال باب الكلام ، فأبدى اشـــارة الصرف فوقف مؤيد الدين واستأذن في الانصراف وهو ساكت يفكر •

خرج الوزير وقد اخذ الغضب منه مأخذا عظيما حتى اخطأ الطريق من الديوان الى موقف الدواب حيث كان غلامه في انتظاره ، ثم انتبه لنفسه فركب بغلته وسار قاصدا منزله وهو لا يكاد يرى طريقه لعظم مـا جاش في خاطره من الاسف واليأس والخوف • وتضاربت خواطره بين الانتقام والتربص حتى وصل الى المنزل فاستقبله قيّم الدار على جاري العادة ، فحالما وقع نظره عليه تذكر المملوك الذي كتب الرسالة على رأسه فسأل عنه فقال : «هو في حجرتي» • قال : «كيف شعره ؟» • قال : «قد نما حتى كسا رأسه ، واذا شئت اتيتك به الساعة» •

قال : «احضره» • ومشى الى غرفته وهو يفكر وخاطره مشتغل بما مر به في ذلك اليوم ، وكلما تصور أبا بكر واحتقاره اياه اقشعر جسمه قشعريرة الحقد والغيظ والكراهية • فقعد على سريره وهو مطرق ، واذا بالقيّم قد جاء ومعه ذلك الغلام يساق كالبهيمة ، وليس فيه من علامات الانسانية الا شكله الخارجي ونطقه اذا تكلم • فلما رآه مؤيد الدين نظر الى رأسه فرأى شعره قد نما وتكاثر ولم يبق شيء ظاهر من جلده ، فتفرس في رأسه وهو يناجي نفسه قائلا : «ان تحت هذا الشعر رسالة

اذا بلغت صاحبها اقام الدنيا وأقعدها وانتقم لي من ذلك المغرور الطائش. وما علي اذا انا ارسلتها الى هولاكو ؟ ان الرجل قادم الينا لا محالة وهو فاعل ما يريده ، ولا ريب عندي بفوزه ، فاذا ارسلت اليه دعوتي هذه على رأس هذا المملوك ضمنت حياتي وحياة من احب من اهلي وأصدقائي . ولو علمت اننا قادرون على دفع هولاكو ورجاله لم اكن لأبالي بجهالة هذا الغر واستخفافه ، بل كنت أدافع عن أمتي وبلدي وأغضي عن ضعف الخليفة وطيش ابنه . ولكن انى لنا ان ندفع التتر وليس عندنا الا عشرون الفا قلوبهم متفرقة ونياتهم متناقضة . اذن..» .

ووضع سبابته على ذقنه كما يفعل المتأمل ثم رفع بصره الى قيّم القصر وقال : «أرسل هذا الغلام في المهمة التي تعرفها» .

فخفق قلب القيّم فرحا لانه كان كثير الرغبة في الانتقام من الخليفة فنادى الغلام اليه فتبعه ، فلما خلا به أفهمه ان مولاه الوزير يريد منه ان يذهب الى هولاكو خاقان التتر ، ويقول له انه قادم من وزير بغداد وكفى. ومتى عاد نال المكافأة الكبرى ، ففرح الغلام ومشى كالشاة تساق الى الذبح .

- ١٠ -

شوكار في دار النساء

ذهبت شوكار مع غلام الخليفة الى دار النساء ، برغم ارادتها ، لكنها كانت تفضل ان تكون فيه على ان تبقى عند ابي بكر . وكانت قد قضت فترة وجودها عنده وهي في حرب دائمة معه ، لانه يريدها لغير

الغناء وهي تأبى ذلك ، ولاسيما بعد ان جاءها كتاب ركن الدين مع الخصي عابد البصري رسولها اليه الذي كتبه وهو نافر من سعاية سلافة في شوكار ، ولم يكن سعيها فيها الا ليزيده تمسكا بحبها ، فكتب اليها كتابا ضمنه العطف عليها والوعد بانقاذها ، فجاءها الرسول بالجـــواب المذكور وهي في حوزة ابن الخليفة ، فاحتالت حتى ادخلت عابدا في خدمته لعلها تحتاج اليه في شيء بعد ان اختبرت أمانته ، وهو الـــذي أعانها في الفرار الى الكرخ وجرى بسبب فرارها ما جرى بين القتـــل والنهب ، وخرج معها الى الكاظمية ، ولما استرجعها ابو بكر الى منزله كان عابد لا يزال فيه . ثم بعث المستعصم في طلبها فجاءت وحدها وأمر الخليفة بارسالها الى دار النساء كما رأيت .

وقبل وصولها الى الدار بلغ اهل القصر ان الجارية المغنية لتي كانت مرسلة الى الخليفة واختطفها اللصوص قد وجدت وجيء بها الـــى قصر التاج ، وانها قادمة الان الى دار النساء . فلا تسل عمن تجمع لمشاهدتها من الرجال والنساء . وكان في قصور النساء هناك مئات من السراري والجواري على اختلاف الطبقات والاغراض ، فجاء كثير منهن الــــى قهرمانة القصور يستوضحن ما سمعنه عن شوكار ، وقد اختلفت الروايات في شكل هذه الجارية وطول قامتها او قصرها ودرجة رخامة صوتها وغير ذلك مما تصوره المخيلة في مثل تلك الحال .

وكان اكثر النساء اهتماما بأمرها المغنيات ، لان شوكار قادمـــــة لمناظرتهن في عملهن ، فاجتمعن وتحدثن في امرها وما وصل الى علمهن من الاقاويل عنها . وهذا طبيعي في الناس ، وبخاصة في ذلك العصر ، وبين نساء لا عمل لهن غير أمثال هذه الاحاديث . اذ لا يشغلهن عن ذلك كتاب ولا جريدة ولا مجلة ولا مدرسة ولا خطاب ولا اجتماع علمي ولا ادبي ، مما قد يشغل نساء هذا العصر . وانما همهن كله هـــذه

الاحاديث والمباراة في التبرج لاجتذاب قلوب الرجال .

وأول من لقيته شوكار هناك استاذ الدار (رئيس الخصيان) ، اخذت اليه وهو متصدر في غرفته فقبلت يده ووقفت باحترام تنتظر امره ، وهو الآمر الناهي في تلك القصور ، وذو نفوذ كبير في الشؤون السياسية، كما كان شأن بعض أغوات يلدز في زمن عبد الحميد . وبعد ان قدمت نفسها لاستاذ الدار واستفهم عن اسمها وعمرها ويوم وصولها وسائر الاوصاف المميزة لها امر بتدوين ذلك في اماكنه لئلا يختلط امر النساء بعضهن ببعض لكثرتهن . وقد تتشابه الاسماء .

ثم اخذوها الى قهرمانة الدار وهي كهلة رهلة قد تراكم اللحم على بدنها مثل تراكم المصوغات والمجوهرات حول عنقها وزنديها ، وعليها أفخر اللباس ، وهي في تلك الدار كالملكة ، ليس في الجواري والسراري من لا يتزلف اليها ويخطب رضاها بالمحاسنة والمجاملة والهدايا . مشت شوكار وهي مطرقة حياء لكثرة من لقيتهم في طريقها من الخصيان والجواري وقوفا في الدهاليز والابواب يتفرسون فيها ويتهامسون . فلما اقبلت على غرفة القهرمانة رأت الخصيان ببابها كالحراس بأبواب الملوك ، فدخلت تلك الغرفة وتلفتت لتتعرف الوجوه ، فعرفت القهرمانة من مجلسها المرتفع ولبسها الفاخر . فمشت نحوها حتى اذا دنت منها أكبت على يدها تقبلها ، فقبلتها القهرمانة وأمرتها بالجلوس الى جانبها ، وأخذت ترحب بها بعبارات مألوفة في مثل تلك الحال ، لو تليت على انسان لم يألفها لظن قائلها أشد الناس مودة له وتفانيا في مصلحته ، لكنها على طول التكرار اصبحت لا معنى لها ، او ان لها معنى يناقض اصل المراد بها .

فاستأنست شوكار ونظرت الى ما في تلك الغرفة من الرياش الفاخر ، وتأملت حال اهل ذلك القصر من الرخاء والنعيم ، فأوشكت ان

تؤثر المقام هناك على الاجتماع بركن الدين • ثم ناداها قلبها فأصغت الى نداثه ، ولسان حالها يقول : «ليست السعادة بالرياش والمجوهرات وانما هي في الحب» • ثم سمعت القهرمانة تنادي بعض الخصيان وتأمره ان يهيىء لمغنية الخليفة غرفة فيها كل اسباب الراحة • والتفتت الى شوكار وقالت : «تمكثين هنا ريثما تتهيأ الغرفة كما يليق بك ، اني في انتظار قدومك من أمد طويل ، وقد شغل بالنا خوفا عليك ، فنحمد الله على سلامتك » •

فأجابتها شوكار شاكرة وقالت : «اني لا أستحق هذا الالتفات يا سيدتي ، ما انا الا جارية حقيرة» •

فأجابتها القهرمانة (او القيّمة) وهي تضحك : «انت تظنينني لا أعرفك قبل الان ، ولكنني اعرفك من عهد بعيد ، وأعرف كل شيء عنك ، عرفت ذلك من صديقتي قهرمانة الملك الصالح صاحب مصر رحمه الله • أتعرفينها ؟ »

فتذكرت سلافة وما بينها وبين سيدتها شجرة الدر من المنافسة ، ولم تكن تعرف لها هذه المنزلة لدى قيّمة قصور الخليفة فقالت : «أظنك تعنين سلافة • نعم أعرفها يا سيدتي ولم اكن أظنها تعرفني» •

قالت : «بالعكس ، انها تعرفك جيدا ،وهي التي لفتت انتباهي الى رخيم صوتك ، وانك تليقين بمجالسة مولانا امير المؤمنين ، فأشرت على مولانا باستقدامك ، فطلبك من سلطان مصر كما تعلمين» •

فأحست شوكار بفضل سلافة عليها ، ولكنها كانت تفضل الخروج من ذلك القصر ،غير انها نظرت في الامر من حيث قصدها فقالت : «الحقيقة ان حسن ظن السيدة سلافة منة كبرى يجب ان أشكرها عليها ، ولو عرفت ذلك لشكرتها وأنا في مصر» • قالت : «ويمكنك ان تشكريها هنا» • قالت : «وهل هي هنا الان ؟» • قالت : «هي هنا منذ بضعة

ايـام » .

***

استغربت شوكار هذه المصادفة ، وبان البشر في محياها ، وسبق الى ذهنها حسن الظن ، وتصورت ان وجود سلافة هناك سيكون اكبر تعزية لها ريثما تستطيع التخلص ، وخيل لها ان سلافة ستكون عونا كبيرا لها في ذلك فقالت : «لله ما أسعد حظي . اين سيدتي سلافة حتى أقبـــل يدها وأشكر لها صنيعها» .

قالت : «سنرينها بعد قليل ، وقد سألت عنك ساعة وصولها مــن مصر فأخبرتها عن ضياعك فتأسفت ،ولما جاءتنا البشـارة الان بوجودك اخبرتها ففرحت فرحا عظيما وهي آتية الساعة .. هذه جاريتها قادمة .. اين سيدتك يا أقحوانة ؟»

فأجابت الجارية : «انها في غرفتها يا مولاتنا ، وقد بعثتني لأدعــو القادمة الجديدة اليها لتتمتع برؤيتها فانها في شوق اليها» .

فضحكت القهرمانة حتى بانت بقايا اسنانها وما يتخللها من الفراغ في اماكن الاسنان المقلوعة وقالت : «هل تريد ان نرسلها اليها لتراها قبل ان يراها امير المؤمنين ؟»

فقالت الجارية : «هذا ما قالته مولاتي ، والامر لك» .

قالت : «لا بأس . ان ضيفتنا شوكار ذاهبة معك للقاء صديقتنـــا سلافة لانها في شوق لرؤيتها وتقديم شكرها لها . وقولي لها ان لا تطيل المقام فلا بد من ارسالها الى الماشطة بعد قليل لاصلاح شأنها بحيث يليق بها الجلوس بين يدي مولانا الليلة لسماع صوتها الرخيم ، ولا أظنه يصبر على الانتظار الى الغد .. قومي يا شوكار الى سلافـــة .. وأحب ان

تستأنسي بنا وتثقي بي فانك كاحدى بناتي» .

فنهضت شوكار ومشت في اثر الجارية أقحوانة ، وهي تمر من ممر الى ممر ، والغرف على الجانبين . وشعرت ان في تلك الغرف أناسا يتشوقون الى رؤيتها ، نعني الجواري او السراري ، فترى الابواب بين مفتوح ومشقوق ، والرؤوس تطل لمشاهدتها ثم ترجع خلسة ، حتى وصلت الى غرفة سلافة فتقدمتها أقحوانة وأعلمت سيدتها بمجيء شوكار، فلما أطلت شوكار على مجلس سلافة تصاعد الدم الى وجهها خجلا وفرحا ، اذ شعرت بأن هذه السيدة ارادت الاحسان اليها بارسالها الى بيت الخليفة وان كان ذلك لم يوافق حالها ، فلما شاهدتها سلافة مقبلة نهضت لها وتقدمت لاستقبالها ببشاشة وترحاب زادا الفتاة خجلا ، لانها تعرف منزلة تلك السيدة في قصر الملك الصالح بمصر وقصور المستعصم في بغداد ، فأكبرت تواضعها وعطفها وأكبت على يدها تريد ان تقبلها ، فمنعتها من ذلك وهي تقول : «مرحبا بالعزيزة شوكار ، وأشكر الله ان رأيتك في هذا القصر ، فقد طالما تمنيت لك هذه السعادة . هل انت مسرورة يا شوكار ؟» وأومأت اليها ان تقعد على وسادة بجانبها ، فجلست شوكار وهي تقول : «أشكر لك غيرتك وفضلك يا سيدتي . اني في سعادة بحمد الله ...»

فقطعت سلافة كلامها قائلة : «ولكن ساءني انهم اختطفوك في اثناء الطريق ، واليوم عرفت سبب ذلك ، فالحمد لله على سلامتك .. كم انا مسرورة بلقياك ، ومهما يكن من حظوتك بالقدوم الى بغداد والمكوث في دار الخليفة فان الخليفة اكبر حظا منك بالحصول على مغنية ليس في العراق ولا مصر أرخم صوتا منها».

فأطرقت شوكار وعيناها ولسانها ينطقان بالشكر ، وقلبها ينكر ذلك الفضل ، لانها كانت تؤثر البقاء بقرب ركن الدين ، ولو في سجن ، على

وجودها بعيدة عنه في قصر الخليفة .

ولم تكن سلافة تجهل ذلك لكنها خاطبتها بما قد تتوقعه منها ، لان شوكار لم تكن تعلم شيئاً مما دار بين حبيبها ركن الدين وهذه المرأة ، ولو علمت الغرض الذي حملها على المجيء الى بغداد لاقشعر بدنهـــا وكرهت النظر اليها ، فان سلافة قد تركت مصر بعد حديثها مع ركن الدين الذي غادر دارها وقد اغضبها لانه لم يطعها فيما أرادته منه ، فتركتـــه واقفا ومشت بعد ان رمته بنظرة كالسهم وقالت : «سر بحراسة الله . سر الى فراشك ايها الامير . ولا تظن فشلي هذا يذهب عبثا» .

قالت ذلك يومئذ وقد أثار باعراضه نقمتها منه . وانقلب حبها بغضا ولكنها رأت ان تتربص عساه ان يرجع الى صوابه ويتحـــول عن حب شوكار والا عمدت الى أذاه . وما زالت تبث الجواسيس لاستطـلاع مقاصده حتى علمت عزمه على السفر الى بغداد ، فأسرعت اليها لتستقصي أخباره وترى ما يكون من امره . وكانت قد سمعت بضياع شوكار ، فلما عادت ووجدتها حية اخذت تفكر في حيلة اخرى ، وهي تعتقد ان وجود هذه الفتاة حية يقف في سبيل غرضها . ومن اخلاق هذه المـرأة اقدامها على عظائم الامور ، بلا دهاء او تدبير سابق يضمن نجاحها ، فاذا خطر ببالها امر اقدمت عليه .

فلما سمعت شكر شوكار لها ، وعلمت حسن نيتها ، وانها لا تعلم بما دار بينها وبين ركن لدين ، استسهلت تنفيذ بغيتها ، فأظهرت انها مسرورة جدا بلقياها ، وخطر لها ان شوكار قد تفضل البقاء في دار الخليفة على الاقتران بركن الدين ، فأحبت ان تستطلع رأيها في ذلك فقالت لها : «يظهر انك نسيت مصر وأهلها .. لك حق فان المقيم في هذه القصور بجوار امير المؤمنين لا تخطر مصر بباله» . قالت ذلك وجعلت تتفحص ما يبدو منها ، فتحيرت شوكار بماذا تجيبها ، والمحب حريص على سره لا

يفشيه الا لمن يعتقد اخلاصه وصدق مودته ، وقد سبق الى ذهنها ان سلافة تحبها ، بدليل سعيها لها في هذه النعمة بما لها من النفوذ في تلك الدار ، فتصورت انها اذا شكت اليها حقيقة حالها فربما ساعدتها على التخلص من بغداد والرجوع الى مصر ، فترددت في الجواب ، وبـان التردد في عينيها ، ولحظت سلافة ذلك فيها فقالت لها : «ما بالـك لا تتكلمين يا حبيبتي ؟ قولي .. يظهر انك تستحين مني او لا تثقين بي» .

فخجلت شوكار من هذا التوبيخ وقالت : «كلا يا سيدتي ، اني أقدر تنازلك حق قدره ، ولولا حبك لي لم تسعي لي في هذه السعادة ، ولكن ..» . وسكتت .

فقالت سلافة : «ولكن ماذا يا شوكار ؟ ألم اقل لك انك لا تثقين بي؟»

قالت : «العفو يا سيدتي ، لكنني أستحي ان اقول ما في خاطري لئلا تضحكي مني ..»

قالت : «أضحك منك ؟ لماذا» . فأطرقت وقد توردت وجنتاها وجعلت تتشاغل بطرف جديلتها تلفها على سبابتها ، ثم قالت : «ان الاقامة في هذه القصور تشتهيها كثيرات ، وربما حسدن عليها ، لكنني أفضـل الرجوع الى مصر» .

فأظهرت سلافة الاستغراب وقالت : «ترجعين الى مصر ؟ وما الذي خلفته هناك ، الا ان تكوني مخطوبة لاحد ؟» حتى هذا فانك تجدين بدلا منه في بغداد . واذا سمع الخليفة غناءك ومهارتك في ضرب العود فربما أصبت نصيبا لا يتيسر لك مثله في مصر» .

فقالت شوكار بكل بساطة واخلاص : «ليست السعادة في قربي من الخلفاء ولا بالتزوج من امير او شريف ، وانما هي في الحب المتبادل» . قالت ذلك وتورد وجهها حياء ، فحولته الى ستارة معلقة بالحائط عليها صور بعض الطيور وتشاغلت بالنظر اليها .

فابتدرتها سلافة قائلة : «اذا كنت عالقة القلب ببعض الشبان في مصر فاحذري ولا تنخدعي . قد يكون ذلك الشاب حينما علم بسفرك تزوج غيرك . وهبي انه تزوجك فليس أسهل على الرجال من الطلاق . لا تثقي بأحد منهم ، اقول لك هذا عن اختبار» .

فابتسمت شوكار ابتسام النصر لثقتها بحبيبها وقالت : «ان الشاب الذي احبه على خلاف ما تقولين ، وأنا واثقة من ثباته على حبي . وقد يأتي الى هذا البلد لانقاذي» .

فضحكت سلافة باستخفاف لتحمل شوكار على التصريح بما في قلبها ، وهزت رأسها هز الانكار وسكتت ، فقالت شوكار : «أؤكد لك يا سيدتي ان خطيبي هو كما اقول لك ، ولو عرفته لوافقتني على رأيي» .

فأحبت سلافة ان تتبع الحديث الى اخره فقالت : «ما اسمه ؟» . وأخذ قلبها يخفق لعلمها بالجواب قبل سماعه .

فقالت شوكار : «هو الامير ركن الدين بيبرس البندقداري ، ولا شك انك تعرفينه ، فهل ألام على حبه؟» . قالت ذلك وأبرقت عيناها وآكبت على يد سلافة تقبلها وهي تقول متضرعة : «بالله يا سيدتي ساعديني ، فليس في الدنيا احد يقدر ان يحقق لي هذه الامنية سواك.. انت جئت بي الى هذه المدينة ، وأنت وحدك تقدرين على ارجاعي الى مصر» . وشرقت بدموعها .

وكانت سلافة حالما سمعت اسم ركن الدين قد هاجت عواطفها وزادت نقمتها ويئست من النجاح في هذا السبيل ، فتظاهرت بالحنان عليها وتلطفت اليها وقالت : «نعم أعرف الامير ركن الدين ، وهو من خيرة الامراء ، واذا كنت على ثقة من حبه فاني أبذل جهدي في مساعدتك لاني احببتك كثيرا ولا غرض لي الا راحتك وسعادتك» .

فلما سمعت شوكار كلامها اعتقدت صدقه ، فاختلج قلبها في صدرها

من الفرح وقالت وهي تضحك : «صحيح ؟! صحيح ما تقولين ؟! ترجعينني الى مصر ؟! شكرا يا سيدتي ، اسرعي في انقاذي» . وهمت بتقبيل يدها فمنعتها وضمتها الى صدرها تحببا . ولو علمت شوكار بما يكنه ذلك الصدر نحوها لأجفلت وتراجعت ، لكنها صدقت واعتقدت قرب الفرج .

اما سلافة فقالت : «يصعب انقاذك سريعا .. وأنت لم يمض عليك يوم بقصر امير المؤمنين الذي أمر باصلاح شأنك ليسمع صوتك في هذه الليلة .. كوني مطمئنة ، اني لا أدخر وسعا في اجابة طلبك ، ولا بد من حيلة أدبرها لك» .

فأحست شوكار بارتياح كثير ، وعولت في نجاتها على سلافة ، وشكرت الله لالتقائها .

***

والتفتت سلافة اليها بلهفة كأنها استدركت شيئا فاتها ، او انها وفقت الى رأي جديد وقالت : «اسمعي يا عزيزتي اذا لم يكن بد من الرجوع الى مصر فالاوفق ان نبدأ بالسعي من هذه الساعة . اما بعد ان يسمع امير المؤمنين صوتك فسيصبح الخروج صعبا» .

فتأكد لدى شوكار صدق رغبتها في انقاذها فقالت : «وما هو الرأي يا سيدتي ؟ اني رهينة اشارتك أفعل ما تأمرين به» .

قالت : «ارى ان تبدئي من الان فتشكي من صداع في رأسك وألم في حلقك ، وأنا أرفع خبر ذلك الى القهرمانة وأقنعها بصحته ، ثم أحتال في نقلك الى قصر اخر اهداه الي الخليفة لأقيم فيه على مقربة من قصر التاج ، ومتى صرت هناك هان انقاذك» .

فخدعت شوكار بهذا القول ، واستبشرت به ، ورأت فيه سبيلا

لعودتها الى حبيبها ركن الدين ، فانحنت على قدمي سلافـــة تحاول ان تقبلهما وقالت : «شكرا لك يا مولاتي •• شكرا لك •• اني أشعـــر بالصداع من الان ••» • فتناولت سلافة منديـــلا عصبت به رأسها ، وصفقت ، فجاءتها أقحوانة وهي تقول : «ان مولاتنا القهرمانة استبطأت شوكار فبعثت في طلبها لان امير المؤمنين آت بعد قليل» •

فقالت : «انظري ، انها مريضة تشكو صداعا شديدا وألما في حلقها وقد تعبت في معالجتها ، فالاحسن ان تعتذر القهرمانة الى امير المؤمنين من غيابها ريثما تشفى» • فذهبت أقحوانة الى القهرمانة بالخبر ، فأسرعت هذه لمشاهدة شوكار وهي تقول بصوت جهوري خشن : «كيف ذلك ؟•• مولاي الخليفة يأتي بعد قليل •• وقد قضى زمنا طويلا في انتظار هذه المغنية •• فكيف تمرض في ساعة وصولها ؟»

ولما وصلت الى غرفة سلافة رأت شوكار مستلقية على الارض وهي تضيح من شدة الالم وقد تغير لونها ، فلم يسعها عند رؤيتها الا الاشفاق عليها ، ونظرت الى سلافة فرأتها شديدة الاهتمام بها والحنو عليها فقالت لها : «احب ان أنقل هذه المسكينة الى دار المرضى ليعودها الطبيب ثم••»

فقطعت سلافة كلامها قائلة : «لا ، لا تنقليها الى مكان ، دعيني أهتم بأمرها • دعي ذلك لي ••» • قالت ذلك وهي تهتم بتغطية شوكـــار وتلمس جبينها وخديها ثم قالت : «دعي امرها لي ، واذا اقتضت الحـــال نقلها نقلتها الى قصري ، لان موقعه يساعد على سرعة شفائها» •

فعادت القهرمانة وهي تهيىء الاعذار للخليفة لتخلف مغنيته بعد ان منى نفسه بها على اثر انتظاره الطويل للحصول عليها • وقبل وصولها الى غرفتها جاءها رسول الخليفة يدعوها اليه ، فذهبت مهرولة الى غرفتـــه فوجدته يعد نفسه للذهاب الى المنظرة ، وقد أخذ يلبس ثياب المنادمة • فلما وقع بصره عليها صاح بها : «أين المغنية الجديدة ؟ لقد ظفرنا بها بعد

طول الانتظار ، والحمد لله . هل جربت صوتها ؟. هل اسمعتك اياه ؟ يقولون انها أرخم النساء صوتا وأتقنهن صنعة ، قد آن لي ان أستريح من مهام الدولة ومتاعبها ، سامح الله ابا بكر انه سبب هذه المتاعب كلها» . واسترسل المستعصم في الكلام وهو واقف والخادم يساعده على لبس الغلالة ولف العمامة الصغيرة ، والقهرمانة واقفة تنتظر سكوته لتجيبه على اسئلته . فلما سكت قالت : «ان جاريتك شوكار مريضة الان» .

فصاح فيها : «مريضة ! لقد رأيتها اليوم في عافية . متى مرضت ؟»

قالت : «كانت في خير ، لكنها أصيبت منذ ساعة بصداع شديد كاد يقتلها ، وقد اهتمت جاريتك سلافة بأمرها» .

فقطب المستعصم حاجبيه ، وكان الخادم الواقف بين يديه يناوله منطقة من الحرير ليتمنطق بها ، فتناولها ورمى بها الى الارض ، وألقى نفسه على المقعد كأنه يستريح من تعب ، وتنهد وقال : «يا لله من سخرية القدر ؟ لقد تشاءمت من هذه الجارية ، فانها منذ خروجها من مصر وأمورها معرقلة ، ولما ظفرنا بها مرضت ، وأخاف ان تكون شؤما علينا فيما نحن فيه» . وأطرق لحظة ثم قال : «يا ليتها ظلت عند ابي بكر ولم نغضبه لاجلها ، وهل تظنين مرضها يطول ؟» . قالت : «انها تشكو صداعا وألما في حلقها ، والامل ان تشفى في يومين او بضعة ايام . واذا لم تشف فغيرها خير منها .. ان الجواري المغنيات كثيرات في خدمة امير المؤمنين .. هل يأمر بتهيئة سواها ؟»

قال : «هيئي من شئت منهن .. اني في حاجة الى الراحة بعد تعب هذا النهار . هل علمت ماذا جرى لنا اليوم مع ابي بكر ؟»

قالت : «انه غضب لذهاب شوكار من يده ، وقد اخطأ لانه اخذها وهو يعلم انها محمولة لمولانا امير المؤمنين . لكنه فعل ذلك بدالة الابن على ابيه ..» . وقد استرضته بهذه العبارة . وهو انما سألها هذا

السؤال ليسمع منها هذا الجواب ، لان قلبه ما زال مشغولا من جهة ابنه ، يتنازعه في شأنه عاملان : احدهما النقمة عليه لانه تجاوز حدوده وتعدى على حقوق ابيه ، والثاني عطفه عليه ورغبته في ارضائه ، والعامل الاخير أشد ظهورا وأكثر تسلطا على قلبه . وهو يعلم ان تلك القهرمانة تحب أبا بكر ، او هي تعرف حبه اياه فلا تجيب الا بما يخفف من غضبه عليه ، فسألها ذلك السؤال ولم يكن عنده ريب في اطلاعها على ما جرى في جلسة ذلك اليوم وان كانت في دار النساء . فانها كانت كثيرة التدخل في شؤون الدولة والاطلاع على ما يجري منها ، لان المستعصم كثيرا ما كان يذكر ذلك بين يديها على سبيل التفاخر ، فأصبحت كثيرة النفوذ عنده شأن الدول في عهد انحطاطها .

فلما سمع الخليفة قولها عن ابي بكر سرى عنه وقال : «صدقت انه فعل ذلك بحسن نية ، وقد جرأه عليه الداودار .. وكان ينبغي لهذا ان يردعه ويقف في وجهه» .

ولم تكن القهرمانة تحب الداودار لانه جندي خشن لا يحترمها ، فلما سمعت الخليفة ينتقده وافقته وقالت : «طبعا كان يجب على الداودار ان يردعه .. لكنه يفعل ذلك بدالته على امير المؤمنين لانه قائد جنده .. وتلك دالة كاذبة ، اذ يستطيع امير المؤمنين ان يبدل بداوداره أحسن منه .. لكنه لا يبدل بابنه سواه ..» . قالت ذلك وضحكت اعجابا بهذا التعبير ، وأظهرت انها تهتم بالخروج لتهيئة جلسة الغناء ، فأجابها بضحكة من نوع ضحكتها وقد فهم قصدها ، وهي تعني ان يعزل الداودار وقال لها : «ابعثي الى ابي بكر ليحضر هذا المجلس معنا . عسانا ان نعوضه ونرضيه فأشارت اشارة الطاعة وانصرفت» .

* * *

تركنا مؤيد الدين في داره وقد بعث رسوله الى هولاكو بعد ان يئس من الاصلاح ، على انه ظل برهة بعد ارسال الغلام وهو غارق في التفكير ، تتناوبه الخواطر المتضاربة بين ندم وارتياح ، لكن الارتياح كان غالبا عليه لانه لم يقدم على مخابرة هولاكو الا بعد تردد طويل . قضى ذلك اليوم ولم يخرج من منزله ، ومضت ايام أخر وهو لا يريد ان يرى احدا ولا ان يخاطب احدا لعظم قلقه وفظاعة ما أقدم عليه ، وازداد قلقه لان الخليفة لم يسأل عنه ، ولم يدعه اليه ، فعد ذلك تغيرا عليه ، ففضل البقاء في منزله كالمحاصر ريثما يرى ما يحدث .

وأصبح ذات يوم فاذا بطارق يطرق الباب ، فعرف من طرقه انه سحبان ، وكان قد طال غيابه هذه المرة حتى قلق عليه ، فلما رآه مقبلا رحب به وأشار اليه ان يقعد ، ورأى في وجهه تغيرا فقال : «ما وراءك يا سحبان ؟ اراك متغيرا» .

قال : «وأنا اراك متغيرا ايها الوزير .. ولا عجب اذا رأيت فيّ تغيرا ، فانا اذا بقينا على رأيك ، فنحن متغيرون جميعا .. بل نحن منتقلون الى الدار الآخرة عما قريب» . قال ذلك وتشاغل بعض شفته السفلى كأنه يفكر .

فأدرك مؤيد الدين ان سحبان ينتقد صبره على المستعصم ومحافظته على ولائه الى هذا الحد فضحك وقال : «ان الانتقال الى الآخرة خير لنا من هذه الدنيا» . قال : «نعم ، ولكننا لا ينبغي ان ننتقل قبل ان ننتقم» . قال : «لك علي ذلك» .

ولم يكن سحبان يتوقع سرعة الموافقة ، فاستغرب جوابه وقال : «ومتى ؟» . قال : «منذ بضعة ايام» .

فدهش سحبان ونهض فجأة متأثرا وقال : «ماذا تعني ؟ أظنك لم تفهم مرادي» . قال : «كيف لا ؟ ألم تقصد التخلص من اولئك القوم ،

ولو استنجدنا عليهم الغرباء ؟» . قال : «بلى !» . قال : «قد فعلت .. فاصبر لنرى النتيجة» .

فتلفت سحبان حوله خوفا من ان يسمعه احد وقال : «استنجدت هولاكو ؟. كتبت اليه ان يأتي ؟!» . قال : «لقد فعلت ذلك .. وكنت أنتظر مجيئك قبل الان لاخبرك وأرى رأيك ..»

فقطع سحبان عليه كلامه وصاح : «وهل لي رأي غير ذلك ؟! هذه هي أمنيتي ، اذا حصلت عليها لا أبالي ان انا مت الساعة .. وقد جئتك الان بأمر جديد مهم لكنه لا يقف في سبيلنا » . قال : «وما هو ؟» . قال : «الامير احمد الذي سميناه الامام .. انت تعلم انني بعد ان اتيت به الى هنا أرجعته الى حيث كان في قصر الفردوس . وكأن القوم ادركوا قصدنا ، او لعلهم علموا بخروجه وارتابوا في حرس قصره ، فنقلوه الى قصر اخر» . قال : «نقلوه الى قصر قرب باب كلواذي في الجنوب ، وأقاموا عليه الحراس وشددوا التضييق عليه ..» . قال : «هو الان في كلواذي ؟ ولماذا فعلوا به ذلك ؟»

قال : «فليفعلوا ما يشاءون ، انه خليفتنا حيثما كان ، وهل يصعب علينا اخراجه من سجنه متى تم لنا ما نطلبه ؟! اذا دخل التتر بغداد وقبضوا على هذا الخليفة فستكون انت معهم فترشدهم الى الامام احمد فيولونه الخلافة .. آه ما اجمل ذلك اليوم السعيد ! وأسعد منه ان نعيد دولتنا العلوية .. هذه هي أمنيتي الحقيقية» .

فنظر مؤيد الدين اليه وهو يغبط فيه ذلك الامل الواسع والوثوق بالنجاح لاضعف الاسباب .. ان صاحب هذا الخلق قد يخطيء ويفشل، لكنه اقرب الى السعادة من الرجل الحذر الكثير الشكوك الذي يرى السعادة في قبضته ويشك في وجودها . ولذلك استغرب مؤيد الدين سرور سحبان واطمئنانه لا لشيء الا ان سمع منه انه وافق هولاكو على

القدوم الى بغداد ، وفاته ما يعترض نجاحه من العقبات ، وانه قد عرض نفسه في هذا لخطر جسيم . ثم رفع نظره الى سحبان وقال : «وفقنا الله في سعينا على القوم الظالمين» .

- ١١ -

ركن الدين في بغداد

وبينما هما في ذلك اذ سمعا قرع الباب . وكان الباب بعيدا عن غرفة الوزير ، ولم يكن يهتم لسماع قرعه من قبل . اما الان فانه لشدة قلقه اصبح لا تفوته حركة مما يحدث في البيت ، فتطلع نحو الباب ، واذا بغلام سحبان قد دخل وفي وجهه تغير ، فقال له سحبان : «من اين اتيت يا غلام ؟»

قال : «اتيت من المنزل يا سيدي» . قال : «ولماذا ؟» . قال : «لان قادما غريبا جاء يطلبك وألح علي ان أوصله اليك حالا ، فجئت به لعلمي انك في دار الوزير» . قال : «من هو هذا القادم ؟ وأين هو ؟» . قال: «لم يشأ ان يخبرني عن اسمه ، لكنه جاء معي وهو واقف في انتظار الاذن له» .

فالتفت سحبان الى الوزير كأنه يستأذنه في ادخال ذلك الضيف ، فقال الوزير : «ادخله» .

فعاد الغلام ومعه رجل حسن البزة عليه لباس السفر ، وحالما وقع نظر سحبان عليه صاح : «الامير ركن الدين ؟! الامير ركن الدين ؟!» ونهض لملاقاته والترحيب به .

ونهض مؤيد الدين وهو يقول : «مرحبا بالامير ركن الدين» . فمشى ركن الدين حتى دنا من الوزير فحياه وحيى سحبان ، وجلس على كرسي قدموه له ، وأخذ الوزير يرحب به قائلا : «طالما سمعنا بالامير ركن الدين بيبرس وأعماله في مصر ، وكنت في شوق الى رؤيته فمن الله علـــي بذلـــك» .

فقال ركن الدين : «ليس في ركن الدين ما يدعو الى الاعجاب لاني لم أعمل عملا ، ولكن الاعجاب يجدر بالوزير مؤيد الدين بن العلقمـــي القابض على أزمة الدولة العباسية يدير شؤونها» .

وتصدى سحبان للكلام قائلا : «ان الامير ركن الدين بطل عظيم». ووجه كلامه الى الوزير وقال : «ألم اقل لك عن بسالة هذا البطل وما بشأنها عند سفره من مصر ، فقال له : «هل تأذن ان تتكلم عن المهمـــة اتاه من المدهشات في محاربة الافرنج وتخليص مصر من أيديهم ؟ فعساه ان يساعدنا في تخليص بغداد من غير الافرنج ..» . وضحك .

فلم يعجب مؤيد الدين تسرعه لكنه تغافل ، وتغافل ايضا ركن الدين لانه مثل مؤيد الدين تكتما وحذرا ، فخجل سحبان من نفسه وأراد ان يغطي خجله فأثار موضوعا جديدا فقال لركن الدين : «متى وصلت الى بغداد ايها الامير ؟ وكيف عرفت داري ؟»

قال : «وصلت في هذا الصباح ، وأما منزلك فقد عرفت منك فـــي مصر انه بالكاظمية . وأنا اعرف بغداد ، فصرفت من كان معي وأحببت ان أدخل البلد متنكرا ، فوصلت الى الكاظمية وسألت عنك فقيل لي انك عند مولانا الوزير فجئت لأراك وأراه لاني اعرفه بالسماع ، فطلبت الى خادمك ان يأخذني اليك وقد فعل» .

فقال الوزير : «لقد جئت اهلا ووطئت سهلا» .

وتذكر سحبان تعلق ركن الدين بشوكار وقلقه عليها وحديثه معـــه بشأنها عند سفره من مصر ، فقال له : «هل تأذن ان تتكلم عن المهمـــــة

التي أنفذتني اليها من مصر ؟ ان لمولانا الوزير اطلاعا على شيء منها ، وهو محب لك غيور على شؤونك» .

فقال ركن الدين : «أظنك تعني شوكار . نعم تكلم وقد كنت أتوقع ان تكتب الي بشأنها قبل الان» .

فخجل سحبان لكنه بادر الى الاعتذار قائلا : «كان ينبغي ان أفعل ذلك ، ولم اتأخر عن اهمال ، لكنني حال وصولي الى بغداد لقيت شوكار في المكان الذي كانت مخبوءة فيه ، وأخبرتني انها كتبت اليك ، وقد عملت على انقاذها فلم أوفق الى ذلك حتى الان ، وما الفائدة من الكتابة بلا عمل ؟ والوزير يعلم بما وقف في طريقنا من العراقيل» .

فقال : «والخلاصة اين هي الان ؟» . قال : «هي في قصر الخليفة منذ ايام» . قال : «وأين كانت قبل ذلك ، ومن خطفها ؟» . قال : «كانت عند ابي بكر بن المستعصم ، وأبوه لا يعلم انها عنده وأخذ يبحث عنها . ثم تمكنا من اختطافها من بيت ابي بكر وأخفيناها في منزلنا ، وهممت ان أفر بها اليك فعلم بها ذلك الغلام وأخذها منا بقوة الجند . ثم علم ابوه انها عنده فأخذها اليه ، ولذلك حديث طويل يهمك منه ان شوكار لا تزال كما عرفتها في مصر تبذل نفسها في سبيل رضاك ، ولا تفضل مكانا في الدنيا على قربك . ولا شك انها في بيت الخليفة رغم ارادتها . ولا بد من اخذها .. تمهل .. اننا في مشكلة شائكة ستقلب بغداد رأسا على عقب . وسيصل دويها الى مصر والاندلس وكل انحاء العالم . وسيكون لها شأن عظيم ، وانما يستفيد منها العاقل الحازم» .

فخاف الوزير بعد هذه المقدمة ان يبوح سحبان بما حدث من المساعي وهو يحب كتمانه ، فتصدى لمخاطبة ركن الدين قائلا : « لا تعجب ايها الامير من اضطراب حالنا فخليفتنا مشغول باستجلاب المغنيات من أقاصي المملكة ، عن الاهتمام بأمور الدولة والعدو على الابواب لا

يلبث ان يأتينا ، وجندنا في اختلال و ..»

فقطع ركن الدين كلامه قائلا : «سمعت وأنا قرب بغداد ان هولاكو التتري زاحف بجند كثيف على هذا البلد وانه الان على مقربة منها . ألم تستعدوا له ؟»

فهز الوزير رأسه وقال : «كيف لا ؟ بلغنا منذ ايام ان حملة من جند هولاكو وصلت الى تكريت بقيادة باجو وعبرت دجلة الى البر الغربي ونزلت تطلب بغداد ، وقد اختلفت آراؤنا في طرق الدفاع ، ولم يستقر الرأي الا بعد ان وصل جند التتر الى دجيل وعددهم نحو ٣٠٫٠٠٠ فارس ، فأمر الخليفة بارسال عسكره لدفعهم بقيادة مجاهد الدين ايبك الداودار ، ولكن عسكرنا قليل العدد والعدة ، ولا ندري ما تكون النتيجة . على اني اخاف سوء العقبى لاننا غير متفقين في رأي ، وخليفتنا ضعيف مستسلم لابنه وقائد جنده ، وكلاهما على غير خبرة ، ونخاف ان يكون الله قد اراد انقضاء هذه الدولة و ..»

فتصدى سحبان قائلا : «لا تخف ، بل توسل الى الله ان تنقضي هذه المحنة ، وهذا الامير ركن الدين لا يخفى عليه شيء من امرنا ، وقد حادثته وأنا في مصر عن استرجاع خلافة الفاطميين» .

فاستاء مؤيد الدين من اندفاع سحبان في ابداء آرائه وقال : «لا أظن الامير وافقك على ذلك .. ونحن يكفينا الان ان نبدل خليفة بآخر كما سبق الكلام» .

فاستحسن ركن الدين اعتدال ابن العلقمي في رأيه فقال : «هذا هو القول المعقول ، وهو هين ميسور لمن يبذل المال بدون حرب . وأنا أضمن لكم ذلك متى رجعت الى مصر وتم الاتفاق بيننا على رأي نرضاه» . وهو يضمر ان يجعل امر ابدال الخليفة مرتبطا بصيرورة سلطنة مصر اليه . اي انه يشترط على الخليفة الجديد قبل توليته ان يساعده في

التسلط على مصر .

وأدرك مؤيد الدين غرضه فاستحسنه وندم على رسالته الى هولاكو وتعريض الخلافة للتتر ، لكنه ما زال يعتقد ان هولاكو لا يزيد على ان يخلع الخليفة المستعصم ويطلب سواه وهم يدلونه على الامام احمد فقال: «سننظر في ذلك ونرجو ان يعود بالخير» .

فعاد ركن الدين الى الحديث عن شوكار وخبرها ووجه خطابه الى سحبان وقال : «والآن ماذا تفعل شوكار ؟ قل لي .. فقد تركت بلدي وقومي وهم في حاجة الي وجئت الى هذه الديار من اجلها ، فهل اعود دون ان آخذها معي ؟ هذا لا يمكن» .

فقال سحبان : «لا بد من اخذها ، وقد قلت لك ان ذلك ميسور لما نرجو حدوثه من الانقلاب ، ومع ذلك فان الخصي عابدا الذي حمل اليك رسالة شوكار وحملته جوابك اليها مقيم عندي منذ اخذوا شوكار منا ، وقد أوصيته ان يتتبع أخبارها . وكان قد جاءني منذ يومين بخبر لم أصدقه لبعده» . فقال ركن الدين بلهفة : «وما هو ؟» . قال : «انبأني ان شوكار خرجت من قصر التاج ، على انها لو خرجت لجاءت الينا ، وقد اوصيته بالامس ان يبذل جهده ويدقق البحث ويعود بالخبر الصحيح» .

فقال : «اين هو الان ؟» . قال : «أظنه عاد الى منزلنا في الكاظمية او يعود الليلة ، هل تريد الذهاب الان للبحث عنه ؟» . قال : «نعم ، هلم بنا ومتى فرغنا من امر شوكار عدنا الى امر الخلافة ، او لعل الامرين يتمان معا» . قال ذلك ووقف واستأذن في الانصراف ، ثم ودع الوزير وخرج معه سحبان .

★ ★ ★

كان ركن الدين قد عرف بغداد في صباه ، فلما جاءها هذه المرة وجد

فيها تغيرا كثيرا . ومشى هو وسحبان في طريقهما الى الكاظمية ، وهي على مسافة بعيدة من قصر الوزير ، فعبرا الجسر حتى صارا في الجانب الغربي من بغداد ، حيث كانت البلدة التي بناها المنصور منذ خمسمائة سنة ونيف ولم يبق منها الا آثار قد عفتها الايام وأقيم في مكانها الاسواق. وبينما هما سائران وركن الدين يتأمل فيما يمران به من الابنية ، رأيا جماعة من العامة يركضون نحو الجسر وهم في خوف شديد ، وعرف سحبان رجلا منهم فناداه اليه ، فجاءه وقد غطى الوحل قدميه الى ركبتيه ، فسأله سحبان عن سبب هذا الركض فقال : «التتر يا سيدي ، التتر !»

فقال : «ماذا تعني ؟ اين هم ؟» . قال وهو يرتعد : «هم هنا .. هنا في بغداد» .

فصاح فيه : «في بغداد ؟ وأين جندنا ؟.. ذهبوا لمحاربتهم عند دجيل ؟! أين الداودار ؟ ما بالكم ؟ تكلم» .

قال : «ان هؤلاء التتر من الجان لا يقدر احد ان يقف في طريقهم . كنت قرب دجيل يوم وصولهم اليه ، وما ذاع ان التتر قد اقبلوا حتى ذعر الناس وهربوا قاصدين المدينة بأولادهم ونسائهم في حالة يرثى لها، حتى كان الرجل يقذف بنفسه في الماء خوفا منهم ، وقد رأيت ملاحا لم يرض ان يعبر برجل في سفينته من جانب الى جانب الا اذا اعطاه عدة دنانير ، ورأيت امرأة دفعت للملاح سوارها ليعبر بها الى الضفة الاخرى، ثم قالوا لنا ان جند الخليفة جاء لمحاربة اولئك المفاريت فسكن روعنا ، لكننا ما لبثنا ان رأينا جندنا يتقهقر مدحورا امام التتر ، والتتر يطاردونهم ويمعنون فيهم قتلا وأسرا . وأعانهم على ذلك ما حفروه في الليل من خندق وصلوه بالنهر فكثرت الوحول في طريق المنهزمين ، ولم ينج الا من رمى نفسه في الماء وأنا منهم ..» . قال ذلك وأشار الى الوحل على

قدميه وهو يلهث .

وكان ركن الدين يسمع ذلك وشرر الغضب يتطاير من عينيه فقال سحبان للرجل : «والداودار ، اين هو ؟»

قال : «رجع مع بقية الجند مدحورين مكسورين ، ولذلك انكسرت قلوبنا . نعوذ بالله من التتر ! يا لطيف !»

فقال : «وكيف رأيت هؤلاء القوم ؟»

قال : «رأيتهم من الأبالسة يا سيدي .. لا يمكن لجندنا ان يقف امامهم ، واذا وقفوا اكلوهم اكلا .. اعوذ بالله ! لم أر مثل هـؤلاء الناس . لا . لا لم أر مثلهم عمري . اذهب يا سيدي من الطريق . لاني أظنهم الآن على مقربة من بغداد ، او لعلهم دخلوها . وبلغني ان فريقا منهم نزل عند المارستان العضدي ، وفريقا اخر وصل الى المبقلة تجاه الرصافة ، ولم يبق بينهم وبين قصور الخلفاء الا دجلة . سر يا سيدي. لا تعرض نفسك للسهام المتساقطة فسهامهم تتساقط كالمطر .. لا . لا . لم أر مثل هؤلاء الناس قط» . قال ذلك وجرى مسرعا .

فالتفت سحبان الى ركن الدين فرآه يهتز من الغضب ، وقد احمرت عيناه وقطب حاجبيه ، وود لو ان فرسه تحته ليهجم على التتر فقال لـه سحبان : «ما بال سيدي الامير ؟» . قال : «ويلك يا سحبان ! أهكـذا يكون رجال الخلفاء ؟ يهربون من وجوه التتر المتوحشين حتى يدخلـوا دارهم ! كم أتمنى ان يكون فرسي تحتي او يكون رجالي معي لأريهم كيف يكون القتال !»

فضحك سحبان وأمسك بذراع ركن الدين وتحول به الى زقاق ضيق ومشى وهو يقول : «ان اظهار البسالة لا يفيد ، لانها ضائعة يا مولاي. ان القوم ماتت نفوسهم وذهبت دولتهم ، وكفى ما ارتكبوه من المظالم، ولو اراد الله نصرهم لأنار بصائرهم وهداهم الطريق الصواب ، لكنهم

يتخبطون في اعمالهم تخبط الاعمى ، ولا يعلمون • دعهم ان الله أقدر منا على نصرتهم اذا شاء» •

وبينما هما في ذلك اذ رأيا سهما وقع امامهما ذا شكل خاص لـم يعهد سحبان مثله فيما يعرفه من السهام ، فالتقطه وتأمله فرأى عليه كتابة عربية فقرأها ، فاذا هي : «ان الرؤساء العلويين (الشيعة) ، وكل من لا يقاتلنا . آمنون على انفسهم وحرمهم وأموالهم» •

فدفع السهم الى ركن الدين فلما قرأه قال : «يلوح لي ان العلويين ينصرون التتر» •

قال : «ان العلويين مظلومون يا سيدي • أما كفاهم ما قاسوه من الضيم والعذاب أجيالا ؟• فاذا كانت الغلبة للتتر وأنصفوهم فلا حـرج عليهم ولا علينا» • وهز كتفيه هز التنصل من التبعة •

فتحقق ركن الدين ان حماسته للعباسيين لا تجدي نفعا ، ولم يبق له من هم الا ان يعثر على شوكار ويخرج بها من بغداد ويرجع الى امارته ويسعى في نيل السلطنة بمصر • ولا بد له قبل كل شيء من لقاء عابـد الخصي ليسمع منه خبر شوكار •

وجعل سحبان طريقهما في أزقة مهملة لا يتزاحم فيها الناس ، لئلا يصدمهم الهاربون ، حتى أقبل على المارستان العضدي ، فرأيـا ضفاف دجلة وما يليها تعج عجيجا بالتتر وخيولهم وخيامهم وأعلامهم وأسراهم• فوقف سحبان على مرتفع وأومأ الى ركن الدين ان يأمل اولئك القوم ويميز بينهم وبين البغداديين وقال له : «أرأيت التتري وقوة بدنه وخشونة يديه ، وكيف هو مشمر عن ساقيه ، وعيناه تكادان تطيران من وجهه •• ان بين هؤلاء الناس من قضى اياما وهو ساع على قدميه لا ينام الا لماما ولا يأكل الا القومز (لبن الخيل) كما كان البدوي في صدر الاسـلام يكتفي بناقته يسافر عليها ويقتات بلبنها ويتفيأ ظلها ويستأنس بها • هكذا

هؤلاء التتر مع أفراسهم . وقد يعدو التتري فيسبق فرسه . فأين ذلك من جند بغداد وقد ألفوا الراحة والرخاء ، كما كان الروم في صـــدر الاسلام .. هل نستطيع يا سيدي ان نقاوم القضاء ؟. لكل أجل كتاب ، والله يفعل ما يشاء ، هلم بنا الى الكاظمية لنرى عابدا ونسمـــع خبر شوكار » .

فلم يحر ركن الدين جوابا من الدهشة التي تولته مع ميله الى معرفة خبر شوكار ، فتجاوز المارستان العضدي والحربية الى الكاظمية ، فاختلف منظر الاهلين في عين ركن الدين عما رآه في سائر الاحياء . رأى اهل الكاظمية هنا مستبشرين مطمئنين ، كأن فوز التتر فوز لهم ، او كـــان التتر دولة شيعية جاءت لنصرتهم . وهكذا الانسان يحب من يأخذ بناصره مهما بعدت الروابط ، ويكره من يسلبه حقه ولو كان اخاه . مرا فـي أزقة الكاظمية وأهلها فرحون . وحالما رأوا سحبان تقدموا للسلام عليه وتهنئته ، فرد السلام وقد استحيى من التظاهر بالفرح الى هذا الحد بين يد يركن الدين .

وبعد قليل وصلا الى بيت سحبان فدخلا وقعدا ، وسأل سحبان عن عابد فجاءه ، وحالما رأى ركن الدين تناثر الدمع من عينيه وأكب على يده يقبلها ، فاستغرب ذلك منه وقال : «ما وراءك يا عابد ؟ اين شوكار ؟ ماذا جرى لها ؟» . فتماسك الخصي وقال : «بذلت جهدي يا مولاي في سبيل سيدتي شوكار كما وعدتك ولم أفارقها لحظة الا هذه المرة ، فان الجند اخذوها رغم أنفي . لكنني أتعقب أخبارها كأني معها» .

قال : «وأين هي الان ؟» . قال : «آخر ما عرفته عنها انها في قصر التاج» . فقال ركن الدين : «هذا عرفته من اخي سحبان ، وقد اخبرني انك ذهبت للبحث عنها أمس ، فماذا عرفت ؟» . فأطرق عابد وقد ارتج عليه ، فصاح ركن الدين فيه : «قل . قل يا عابد ماذا جرى ؟» . قال :

«تنكرت امس في زي الخدم حتى دخلت قصر التاج في جملتهم واجتمعت بكثير من اصدقائي الخصيان ، واستطلعتهم خبرها فاختلفوا في الرواية، وفهمت من مجمل احاديثهم ان شوكار يوم وصولها الى قصر التاج اصابها صداع شديد ، ولم تقدر ان تغني للخليفة ، فباتت تلك الليلة عنـــــد صديقة لها من مصر اسمها سلافة» . فلما سمع ركن الدين اسمها ارتعدت فرائصه وصاح : «سلافة ؟ سلافة هنا ؟ اين سلافة ؟» . قال : «نعم يــا سيدي ، يقولون انها كانت قيّمة قصور الملك الصالح بمصر ، ولها نفوذ عظيم في قصر التاج لصلتها بقهرمانة القصور وأستاذ الدار ، حتـــى الخليفة نفسه يحترمها» .

فأطرق ركن الدين ، وتذكر سعي هذه الجارية في ابعاد شوكار عنه ليخلو لها الجو معه ، وكيف كانت مقابلته الاخيرة لها ؟ وكيف هددته ؟ مر كل ذلك في ذهنه في لحظة ، وقلبه يخفق خوفا من أذى تلحقا بشوكار، فنظر الى عابد وقال : «قل وبعد ذلك ماذا جرى ؟»

قال : «واختلف الرواة فيما جرى بعد تلك الليلة ، فقال بعضهم ان سلافة اخذت شوكار الى قصر لها قرب باب كلواذي ، وقال غيرهم انها لم تأخذها ، بل ظلت مخبأة في قصر التاج ، وقال غيرهم غير ذلك» . وتغيرت سحنته كأنه يخفي شيئا خطر له ، ثم قال : «يظن بعضهم ان شوكار اختفت ، لكنهم لا يعلمون اين هي ولا كيف ضاعت ؟» . فصاح ركن الدين : «لعل سلافة قتلتها ؟»

قال : «لا . لا سمح الله . والمشهور عندهم ان سلافة احب الناس اليها ، وهي التي بذلت جهدها في راحتها ، على انهم لا يعرفون هل هي حية او ميتة ، لكنهم يعرفون انها كانت تشكو صداعا وان سلافة قــد احتضنتها ثم نقلتها الى قصرها للاستشفاء ، ولا يعلمون ماذا جرى بعد ذلك ، فلعلها مقيمة عندها الى الان بحيث لا يراها احد» .

في سلطنة مصر ، وهو يرجح مصيرها اليه لضعف القائمين بها هناك ، وتذكر حاجته الى مصادقة الخليفة لتثبيت سلطته ، فتمثلت له اهميـــة بغداد ــ مركز الخلافة الاسلامية ــ وكيف ان العالم الاسلامي على بكرة ابيه في مشارق الارض ومغاربها لا غنى له عنها : فلا يثبت السلطان على عرشه ان لم يأته تثبيت من خليفة بغداد لما للخلافة في نفوس العامة من الاحترام الديني • ثم نظر في حال هذه المدينة وخليفتها على ضوء مـا علمه في ذلك اليوم فاستغرب سلطان الاوهام على الناس • ولكن رجال السيادة لا غنى لهم عن الاوهام ليسوقوا بها العامة الى حيث يريدون • ولما وصل في تصوره الى هنا أطرق وقد خطر له خاطر رقص له قلبه طربا رغم بعده عن المألوف ، ولكن المرء اذا رغب في امر اخذ يفكر فيه حتى يرى مستحيله ممكنا ــ خطر له بعد ما شاهده من اضطراب أحـــوال بغداد ، وما يحدق بها من الخطر ، ان ينتقـــل الخلافة منها الى مصر ، فتصير تلك الاهمية الى مصر بدلا من بغداد وتصير القاهرة مركز العالم الاسلامي ، لا يستغني عنها امير او سلطان ، وان استقـــل عنها بادارة حكومته فهو في حاجة الى خليفتها في تثبيته • ولو كان المفكر في ذلك سحبان لرقص فرحا وتصور نفسه قد نقل الخلافة الى مصر وصار هـــو سلطانا يخطب رضاه سائر السلاطين ، لكن ركن الدين كان ضعيف الثقة في المستقبل ، اذا بدا له امل في امر يرغب فيه بحث عن كل ما يمكن ان يحول دون نيله ، وهو أميل الى تصديق اسباب الفشل • فلما خطر له امر الخلافة تصور العراقيل الكثيرة التي تحول دونه ، فعاد الى التفكير في شوكار فهاجت أشجانه •

قضى في هذه الافكار برهة جاءه في اثنائها عابد يدعوه الى الطعام مرة والى الصلاة مرة اخرى ، وبدل ثيابه حتى دنا الاصيل فقيل له ان سحبان عادمن عند مؤيد الدين ، وبعد قليل جاء سحبان والاضطراب باد

على وجهه ، والغضب يتجلى في عينيه ، فناداه ركن الدين وقال له : «ما وراءك ، هل رأيت الوزير ؟» . قال : «لم أره» . قال : «ولماذا ؟» . قال : «لانه ليس في منزله ، وقد برحه بعد خروجنا من عنده» . قال : «الى اين ؟» . قال : «بعثه المستعصم الى هولاكو ؛ والظاهر ان هـــذا الخليفة تحقق الخطر المحدق به ، وهو يعتقد دهاء وزيرنا وتعقله فأنفذه اليه ليسترضيه» .

قال : «الى هذا الحد بلغ الضعف من خليفتكم ؟» . فابتسم وقال : «ألم اقل لك ذلك من قبل ، وارسال وزيرنا في هذه المهمة احسن رأي ارتآه المستعصم ، لكن اخشى ان يكون قد جاء متأخرا ، وذلك لان هولاكو كان قد اشترط نحو ذلك من قبل للكف عن العداء ، وأشار به الوزير على المستعصم ولكنه لم يطعه لانه كان يسيء الظن به ويصدق ابنه أبا بكر ، وهو شاب مغرور بـ فالظاهر ان المستعصم لما رأى جند التتر محاصرا قصوره ، وسمع دوي المجانيق ووقوع قنابلها على القصور ، ورأى عجز جنده عن القتال لجأ الى المسالمة ، وقد أحسن لان وزيرنـا حفظه الله له دالة على هولاكو فيشير عليه بما فيه خير الجانبين» .

فقال ركن الدين : «لم أفهم مرادك من دالة الوزير لدى التتر ، وما هو الباعث عليها ؟ هل كانت بينهما معرفة ؟»

قال : «لا أخفي عليك يا مولاي ان بين الوزير وهولاكو مخابرة في هذا الشأن ، أعني ان هولاكو خابره وطلب اليه ان يكون معه ، ووعده خيرا كثيرا ، وظل مؤيد الدين يتردد ، وهو ينصح الخليفة ويخوفه ، فلما يئس من اصلاحه خابر هولاكو خوفا من انه اذا جاء وفتح بغداد ينتقم منه ومن اهله وسائر الشيعة . أما اذا اظهر موافقته فانه يراعي جانبه ، ولم يفعل ذلك خيانة» .

ففهم ركن الدين من ذلك ان مؤيد الدين خان خليفته ، ولو تنصل

من ذلك ، وزعم انها ليست خيانة — فقال في نفسه لا شك ان هذا من اكبر أدلة السقوط . ولم يبد رأيه في ذلك لكنه سأل سحبان قائلا :
«وما تظن الوزير يفعل الان اذا اجتمع بهولاكو ؟»
قال : «أظنه يتفق معه على خلع المستعصم وتنصيب الامام احمد اخي المستنصر ، فانه أجدر بني العباس بمنصب الخلافة ، والمستعصم يخافه، ولذلك حبسه في قصره وأقام عليه الرقباء ، فهذا الامام قد عرفنـــــاه واجتمعنا به وخاطبناه في امر الخلافة فاذا صارت اليه فوعدنا خيرا . ولا شك انه يسهل عليك سلطنة مصر ويساعدك عليها ، فانك أولى بها مـــن سائر الامراء» .

فعلم ركن الدين ان سحبان يرغبه في مظاهرته على المستعصم وفي تنصيب الامام احمد خليفة ، لكنه يطمع فيما هو اكثر من ذلك : يطمع في نقل الخلافة الى القاهرة . غير انه لم يسمح لنفسه ان تتمكن منه هذه الخواطر خوفا من فشلها فاكتفى بموافقة سحبان على تنصيب الامــــام احمد بدلا من المستعصم وقال : «وأين هو الان ؟»
قال : «كان محبوسا في قصر الفردوس بجوار قصر التاج ، ثـــم احدقت الشكوك به فنقلوه الى قصر عند باب كلواذي وأقاموا الحرس حوله ، وأنا عارف مكانه ، ومن أسهل الامور علي اذا تم اتفاقنا على خلع المستعصم او قتله ان اخرج الامام احمد من محبسه وأنادي به خليفـــة مكانه ، ولا اجد من يخالفني لان الناس ملوا ضعف السياسة ، ولاسيما اذا علموا ان هذا التبديل كان بارادة الخاقان هولاكو قائد التتر . وكيف ترى يا سيدي ؟»
قال : «اراك مصيبا ، ونعم الرأي رأيك ، وفقك الله الى اتمامه» .
لكنه حالما سمع اسم باب كلواذي تذكر ما سمعه من عابد عن سلافة وانها اخذت شوكار الى قصرها قرب هذا الباب ، وعادت اليه هواجسه وعاد

يفكر في شوكار : أحية هي ام ميتة ؟ وهل سلافة لا تزال على كرهها لها ، فالتفت الى سحبان وسأله قائلا : «سمعتك تذكـــر باب كلواذي ومحبس الامام احمد عنده ، وأمس سمعت عابدا الخصي يذكر هذا الباب وان قصر سلافة عنده ، فكيف ذلك ؟»

قال : «ان كلواذي يا سيدي حي فيه باب من ابواب سور بغـــداد سمي باب كلواذي ، وبقربه قصور كثيرة كما تقولون في مصر باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح فقد اصبحت اسماء أحياء فيها قصور عديدة» .

وقضيا بقية اليوم وكلاهما يفكر في امره ، وأكبر هم ركن الديـــن الوصول الى شوكار ومعرفة حالها وانقاذها او الانتقام لها ، وبات وهو يحلم بها .

* * *

وأصبح ركن الدين في اليوم التالي وقد مل الانتظار ، لكنه توسم في بقائه هناك خيرا ينفعه في مطامعه السياسية ، على انه كلما فكر في شوكار خفق قلبه ورأى انه أساء اليها لان ما اصابها من الاذى انما كان بسببه . وبينما هو في ذلك اذ جاءه عابد وفي وجهه خبر فقال له : «ما وراءك ؟»

قال : «بالباب رسول من سلافة معه كتاب اليك» .

فلما سمع اسمها اقشعر بدنه وقال : «ليدخل» .

فدخل الغلام ودفع الكتاب الى ركن الدين وتناوله فاذا فيه : «من سلافة الى الامير ركن الدين . علمت انك في بغداد وأنا فيها .. وعندي امر يهمك أحب عرضه عليك ، فاذا شئت تفضلت بالمجيء الى قصري بباب كلواذي وهذا رسولي يهديك اليه والسلام» .

فلما قرأ الكتاب دفعه الى سحبان ليرى رأيه فيه فحذره من الذهاب

فقال ركن الدين : «لا بد من الذهاب لأرى هذه الداهية وأتحقق امر شوكار ، وماذا عساها ان تفعل بي . عار علي ان اخافها وخنجري معي. لكن اين موقع قصرها من هنا ؟»

قال : «هو بعيد ، لا بد للذهاب اليه من المسير مسافة طويلة ثم عبور دجلة فوق الجسر الذي جئنا منه . اذا شئت المسير فهذا فرسي بين يديك ، وهذا عابد يسير في ركابك فضلا عن الرسول القادم من عندها».

فوقف ركن الدين وقال : «أذهب الساعة» وتحول الى غرفة منامه وأصلح هندامه وتسلح بخنجرين وتشدد ، ثم خرج وركب الفرس ، وسار عابد في ركابه والرسول يمشي بين يديه . ولحظ في اثناء الطريق ان اهل الكاظمية فرحون معتزون وقد اشتدت عزيمتهم وهاجت نقمتهم على جيرانهم من اهل السنة الذين كانوا يعتزون بالخليفة وحكومته . ولما خرج من الكاظمية رأى الناس في خوف شديد يجتمعون جلوسا او وقوفا للمداولة في الاحوال الجارية ويتلقفون الاخبار من أفواه المارة متناقضة متباينة .

وصل الى الجسر فعبره الى الرصافة ، فرأى الناس هناك أقل قلقا لقربهم من قصور الخلافة حيث لا يسمعون غير ما يدعو الى الثقة بقوة الجند ومناعة الحصون رغم ما كان يتساقط عليها من حجارة المجانيق حينا بعد اخر ، وهي حجارة صوانية كروية الشكل قطر الواحد منها نصف متر او اكثر ، يقذفه المنجنيق من معسكر التتر على أبراج السور او على بعض القصور ، وكانت الاسوار تجيب بمثلها ، وهذه هي مدافع تلك الايام .

وانتهى مسيره اخيرا الى ضفة دجلة الشرقية ، فوقف الرسول والتفت الى ركن الدين وأشار باصبعه الى قصر على ضفة النهر تحيط به حديقة حولها سور . دخل ذلك السور راكبا ، فتقدم الرسول لاعلان وصوله،

وترجل ركن الدين وسلم زمام الفرس الى عابد وأوصاه ان ينتظره وأن يكون على حذر ، ومشى في الحديقة وقلبه يخفق تطلعا الى ما يكون من امر سلافة ، وصورتها لا تزال في ذهنه كما فارقها في المرة الاخيرة .

* * *

وصل ركن الدين الى باب القصر فرأى سلافة واقفة في انتظاره وقد لبست اجمل ما عندها من الحلي والثياب ، وبذلت جهدها فيما تملك به قلبه . أما هو فقد كان مدرعا بالتعقل وحب شوكار ، فحياهـــا فردت التحية ورحبت به ترحيبا حسنا ، ودعته الى قاعة مفروشة احسن فرش فيها النمارق والستائر والطنافس ، وأشارت اليه ان يقعد وهي تقول له وتبتسم : «من كان يظن اننا سنلتقي في هذا البلد ؟»

فقال : «ان المصادفة تأتي بأعجب العجب» .

قالت : «الصدف ! هل تظن اننا التقينا هنا صدفة ؟»

قال : «نعم ، لاني لم يخطر لي ببال انك تجيئين الى هنا» .

قالت : «هذا يصح عليك وأما انا .. انا المسكينة الشقية فيخطر لي كل شيء ، وأبذل راحتي وحياتي في سبيل لقاء ركن الدين . لم تخـــط خطوة في مصر وغيرها الا عرفت بها وحسبت لها حسابا» . ثم تنهدت ، فتشاءم ركن الدين من هذه المقدمة ، وأراد تغيير الحديث فقال : «اشكرك يا سيدتي على حسن ظنك بي . وصل الي كتابك فجئت ، لكنني اسألك سؤالا أرجو الجواب عنه» .

قالت : «قل ما تريد» .

قال : «علمت ان شوكار جاءت اليك في هذا القصر فأين هي ؟» .

قال ذلك وهو يخاف ان يسمع خبر موتها او قتلها ، فتجلد وهو ينتظـــر الجواب ، فأبطأت سلافة في الجواب وهي تنظر اليه نظر الاستغراب ثم

قالت : «مسكينة» • فصاح فيها : «مسكينة ؟! اين هي ؟»

قالت : «ليست هنا ، لعلك تذكر اني كنت ناقمة عليها ، وقد قلت لك اني احببت ابعادها رغبة في قربك ، لكنني شعرت هذه المرة لما لقيتها في قصر الخليفة ، انها لا تستحق العذاب لسلامة قلبها وطيب عنصرها ••» • وتنهدت وأظهرت سلامة النية وشدة الاسف •

فقال : «قولي ما بالها • اين هي ؟ ماذا جرى لها ؟» • قالت : «قلت لك انها ليست هنا» • قال : «فهمت انها ليست هنا فأين هي ؟»

فنظرت اليه نظرة العاتب وقالت : «لله انت ! ما اكثر تسرعك ! أتطمع في الملك وتوشك ان تناله ، ولا تستطيع ان تصبر على سماع حديث قصير عن جارية ؟! اسمع لأقص عليك خبر هذه المسكينة : رأيتها في اول يوم جاءت فيه الى قصر التاج ، وسررت بها ، وقد ملأت قلبي ، وندمت على ما فرط مني في حقها ، واستأنست هي بي وقصت علي حديثها معك وانها لا تود البقاء بعيدة عنك ولو كان مقامها بقصر الخليفة ، فأشرت عليها ان تحتال بالمرض ، ولما لي من النفوذ في دار النساء وعند الخليفة تمكنت من اقناعهم بأنها مريضة وانها في حاجة الى تبديل الهواء ، وفي اليوم التالي انتقلت انا الى هذا القصر وبعثت من يأتي بها الي ولبثت في انتظار قدومها» • وسكتت وأظهرت انها غصت بريقها ، فقال ركن الدين : «وبعد ذلك هل اتت ؟» • قالت : «لا ، لم تأت» • فصاح قائلا: «اذن ماتت او قتلت ؟»

قالت : «احسب كما تشاء • انها ماتت وانتهى امرها» •

فنهض وقد ثارت شجونه وقال : «لا • انها لم تمت انك خبأتها في مكان» •

فضحكت وهي تنظر اليه باستخفاف وقالت : «بل ماتت يا ركن الدين ، ويسوءني انها ماتت ، وقد اخبرني البحارة الذين حملوها الي في

القارب انها غاصت في الماء رغم ارادتهم • ارجع يا ركن الدين الى رشدك واستسلم لقضاء الله ، ولا تعمل عمل النساء وتبكي على جارية ، وبين يديك سلافة تعرض عليك نفسها ، وهي فوق ذلك تعرض عليك منصبا لم يحلم به احد من سلاطين مصر» •

فرجح له موت شوكار ، وكان في ريب من سبب موتها ، وان كان يرجح ان سلافة سعت فيه برغم تنصلها منه واظهارها الميل اليها • فأسف اسفا شديدا وود ان يقتل سلافة ، لكنه لم يتحقق انها هي القاتلة • ومع ذلك اراد ان يعرف ما هو المنصب الذي تعرضه عليه فرأى من الحكمة ان يسمع حديثها الى اخره فقال : «مسكينة شوكار واأسفاه عليها» •

فقالت هي : «مسكينة ، لقد شق والله علي موتها ، ولكن ما الحيلة ؟ لا بد لنا من التسليم للقضاء والقدر ، والآن ألا تريد ان اخبرك بما انتدبتك له ؟» • قال : «وما هو ؟» • قالت : «لنجلس ولنتحادث» • ومشت به الى القاعة فقعدت ، وقد سرها انه أطاعها وأصغى لها ، وبان البشر في محياها ، وقالت : «لعلك عالم بالاضطراب المستحوذ على الدولة بسبب محاصرة التتر ، وهذا هولاكو عند برج العجمي • ولم يصل الى هنا الا لضعف رأي الداودار قائد الجند • وقد غضب مولانا امير المؤمنين عليه وأراد ابداله ، وحادثني استاذ الدار فيمن يليق بهذا المنصب ويرجى منه ان يرد شرف الجند العباسي ويدفع العدو عن أسوار بغداد فلم يخطر ببالي سواك ــ وان كنت لا تبرح بالي في اي وقت» • ثم ابتسمت وقالت : «ليس هناك من يستطيع ان ينقذ الدولة من هذا الضيق سواك ، وأنت اذا صرت قائد جند بغداد هان عليك ان تكون كما تشاء ، وأنا أضمن لك سلطنة مصر او غيرها كما تريد •• اني احبك وأتفانى في الحصول عليك وأحب ان تقول لي انك تحبني ، او على الاقل لا تحب سواي» • قالت ذلك بلحن الغرام •

فأطرق هنيهة واستجمع قواه ، وأطرق يفكر فأصحاب المطامع طلاب منفعة قبل كل شيء . انه أحب شوكار في بادىء الامر شفقة عليها ، ثم احبها حقيقة بعد ما قاسته بسببه من الشقاء ، وكان يود ان يجعلها سعيدة ، اما الان وقد ماتت فليس من الرجولة ان يموت في اثرها ، وان كان موتها قد شق عليه كثيرا ، ولم يطاوعه قلبه ان يحب التي كانت تبغضها وكانت سبب موتها . لكن ذلك لا يمنع ان ينظر فيما تعرضه عليه لعل فيه ما يبلغه الاماني التي طالما تاقت نفسه اليها وحلم بها . وقد تأكد من قرائن كثيرة ان سلافة ذات نفوذ لدى الخليفة وأهله وحكومته ، فخطر له انها قد تفيده في مطامعه ، فأراد مسايرتها مع حفظ مقامه فقال : « لا ارى فيّ الكفاءة لهذا المنصب يا سيدتي ، ولا اشعر من نفسي بميل للتكلم في المناصب الان . سننظر في ذلك في فرصة اخرى» .

فقالت : «هذا امر لا يمكن تأجيله لان الدولة في حرب ، وهذه قنابل المجانيق تصل الى قصورنا صباح مساء ، وأما كفاءتك فأنا أعلم الناس بها . لم يبق الا انه يشق عليك يا قاسي القلب ان تعترف بحبي لك ! فكيف لو طلبت اليك ان تعترف بحبك لي ؟ يا لله ما اقسى قلبك ! اسمع ، هذا استاذ الدار قادم الي لاني اسمع صوته بالباب يخاطب الحاجب . انه آت ليرى هل أقنعتك بقبول القيادة ، فبالله لا تخجلني بين يديه . أما اعترافك بحبك لي فاتركه الى ما بعد نيلك هذا المنصب وغيره مما ستراه مني» .

ثم دخل الخادم يستأذن لاستاذ الدار ، فخفت الى الباب لاستقباله وأخذت ترحب به لما تعلمه من نفوذه لدى الخليفة ، ثم دخلت به الى القاعة وأشارت الى ركن الدين وقالت : «هذا هو الامير ركن الدين البندقداري الذي قهر الافرنج وأرجعهم عن مصر . وقد ذكرت لك عنه ما يكفي . وأنا أباحثه الان فيما انتدبتني له» .

فنظر استاذ الدار اليه وهش له وقد أعجبه ما في طلعته من أدلـة الشجاعة والذكاء وقال : «يسرنا ان يكون في الامير ركن الدين مـا يرضي مولانا امير المؤمنين ويكشف عنا العار الـذي سببه الداودار السابق بسوء تدبيره . هل تريد ان تذهب معا الى قصر التاج الساعة ؟»

فأراد ركن الدين ان يعتذر من عجزه ، فرأى استاذ الدار ذلـك تواضعا وقال : «لا .. لا نقبل منك عذرا ، هلم معي الى امير المؤمنين» قال ذلك ومشى فالتفتت سلافة الى ركن الدين لفتة هيام ، وأمسكت يده بحجة الوداع وضغطت عليها وهي تقول : «سرني النجاح في هذه المهمة ، وعسى ان تفوز بانقاذ الدولة من الخطر . وأما انا فاذا مت بعد هذا فحسبي انك اطعتني في شيء عرضته عليك وان لم يكن فيه غـير لوعتي وآلامي . واذا التقينا بعد الان كان لنا شأن اخر» .

ولكنه لم يزد على ان حياها مودعا وانصرف في اثر استاذ الدار ، فركب كل منهما فرسه ، ومشى عابد في ركاب ركن الدين الـى قصر التاج .

سار ركن الدين وهو غارق في تفكيره على اثر ما شاهده من سلافة وهو لا يفهم حقيقة حالها . على انه فعل ما يفعله الرجل العاقل البصير. ولم يلم نفسه لسكوته عن الانتقام لشوكار ، لانه لم يحقق مصيرها وهل تعمدت سلافة أذاها ، وان كان ميالا الى اتهامها بناء على سابق عهده بها . لكنها شغلته بأمر ذلك المنصب ، ثم جاء استاذ الدار فلم يسعه الا السير معه الى الخليفة ، وفي نفسه ان هذا كله لا يمنع من انتقامه لشوكار عند الوثوق من صحة القتل .

قطع مسافة الطريق وهو لا ينتبه لرفيقه الراكب الى جانبه ولا الـى اشتغال القوم بأخبار التتر ، ولا سمع وقع تنابل المجانيق على المنازل ، فقد كان ذلك بعيدا عن طريقهم لا يسمعه الا المنصت. ولكنه حالما وصل

الى قصر التاج وجد اهله في هرج واضطراب لكثرة ما تساقط حوله من حجارة المجانيق او النبال المرمية عن الآلات . ووجه التفاته الى استاذ الدار ليقلده فيما يفعله من الرسوم المعتادة ، فلما رآه ترجل عن دابته ترجل هو ايضا وسار في اثره حتى أقبلا على باب مجلس العامة فلاقاهما الحاجب فأمره استاذ الدار بالاستئذان له . وما عتم ان جاء الاذن فدخل والامير ركن الدين يتبعه .

فألقى الاستاذ التحية على جاري العادة ثم قال : «يأذن لي مولاي امير المؤمنين ان أقدم له الامير ركن الدين بيبرس البندقداري ، وكنت قد ذكرت اسمه لمولاي وانه خير من يقوم بقيادة جند بغداد في هـــذا الوقت العصيب ، وقد اشتهر بمهارته في الحرب وتدبير الجند كما شهدت به سلافة القهرمانة» .

وكان الخليفة في تلك الساعة مطرقا يفكر ، وليس في مجلسه احد ، كأنه التمس الانفراد للتفكير . فلما سمع قول استاذ الدار قال : «مرحبا بالامير ركن الدين» . وأشار اليه ان يقعد وقال له : «أصحيح ما يقوله استاذ دارنا ؟!»

قال : «ربما أثبت حسن ظنه ما مضى ، اما الان فلا اراني كفؤا لهذه المهمة لاني من اصغر القواد» .

فأعجب الخليفة بتواضعه فقال : «بل انت قائد باسل ، وكـــلام القهرمانة سلافة مصدق عندي ، ونحن الان في حرب مع عدو غريب هو عدو كل مسلم ، لانه اذا فاز لا سمح الله في حربه معنا لا تنجو مصر من اذاه ، فأنت مطالب بقهره للدفاع عن الخلافة ببغداد وعن السلطنة بمصر ، وأنت فاعل ان شاء الله . ولو عرفت فضلك من قبل لما سلمت قيـــادة جنودنا الى الداودار الذي ألبسنا العار ، فعسى ان تكون الوسيلة لمحو هذا العار عن جيش بغداد» . قال ذلك وتنحنح وأظهر انه لم يكمـــل

حديثه بعد فظل ركن الدين ساكتا .

ثم عاد الخليفة الى الكلام قائلا : «أظننا اخطأنا لاننا لم نصغ الى رأي وزيرنا مؤيد الدين من اول الامر ، فلو أطعناه لما اضطررنا الى انفاذه الان لطلب الصلح وتأجيل الحرب ، ولا ندري اذا كان طلبنا يجاب . ولكن سامح الله ابا بكر انه تعدى حقوق الابناء وكدر قلبي على الوزير ، فالآن انظر ايها الامير اني جاعل امارة جند بغداد اليك فاذا دفعت العدو كافأناك بما انت اهله» .

فأجاب ركن الدين : «ان الدفاع عن دار السلام وأمير المؤمنين فرض على كل مسلم ، واني باذل روحي في هذا السبيل ، وعسى ان يوفقني الله الى القيام بحق الخدمة» .



وبينما هم في ذلك اذ دخل الحاجب وقال : «ان الوزير مؤيد الدين بالباب» . فأشرق وجه الخليفة وبان التطلع في عينيه . وحالما دخل مؤيد الدين لم يصبر المستعصم عليه حتى يلقي التحية فصاح به : «قل ماذا جرى ؟» . قال : «كل خير يا سيدي . والتوفيق من عند الله» .

قال : «اقعد وحدثنا بما جرى» .

فقعد والعرق يتصبب من جبينه وأخذ في الحديث ، فقال : «لقيت هولاكو خاقان التتر ، وبينت له جرم اعتدائه علينا بلا حق ، واننا لا نخافه ، لكننا نحب حقن الدماء ، فأجابني جوابا غليظا . وبعد جدال طويل لم يقبل الكف عن الحرب الا اذا ذهب مولانا امير المؤمنين بنفسه الى معسكره ، وتعهد بالمحافظة على مقام مولانا والابقاء على خلافته كما فعل بمن حاربهم من الملوك ، وقد قال لي انه لا يهمه تغيير الملوك والخلفاء وانما يهمه ألا يهان جنده . وهو يعد رفض مولانا امير المؤمنين نجدته

على الاسماعيلية اهانة لانه كان يريد بذلك قطع دابر اولئك الاقـوام لينجو العالم منهم • ثم حارب القوم وحده وغلبهم وبعث الى مـولاي يعاتبه فلم يرد عليه • وكنت قد اشرت على سيدي ان يبعث اليه هدية فمنعه بعض خاصته من ذلك • وبعث الينا هولاكو انه لم يعد يقبل هدية ولا يرضى الا ان يذهب اليه الوزير او الداودار فلم نفعل • فعد ذلك اهانة مكررة لا يقبل ترضية عليها الا ان يركب مولانا امير المؤمنين اليه ويكون هناك معززا مكرما مع رجال خاصته • وقد اخبرني اننا اذا أطعناه في ذلك فهو عازم على ان يزوج ابنته من مولانا الامير ابي بكر» •

وكان الوزير يتكلم والعرق يتصبب من جبينه خجلا من حمل هذه الرسالة الى الخليفة • والخليفة مطرق يسمع ولا يتكلم ولا يبدي حركة، وكذلك كان ركن الدين • فلما فرغ مؤيد الدين من كلامه رفع المستعصم رأسه وتنهد وقال : «انه لعزيز على نفسي ان أذهب الى هذا التتري ، واني لأرجو ان نفوز عليه ونرده عن بلدنا بعد ان عهدنا بقيادة الجند الى الامير ركن الدين ••» • ولبث ينتظر جوابه •

فقال الوزير : «ان الامير ركن الدين اهل لثقة امير المؤمنين ، وقـد يأتي النصر على يده • لكنني اخاف ان يكون جندنا أضعف مما نظن • ولا يبقى باب للصلح ، وقد عرض علينا القوم صلحا تحقن به الدماء ومع ذلك فالامر لمولاي» •

فقال الخليفة : «لكن هذا الطاغية يطلب ان اذهب انا بنفسي الـى معسكره ؟»

قال : «كلا يا مولاي قد رضي ان يركب مولاي بأعوانه ورجـال خاصته الى فسطاط ننصبه لهم عند باب كلواذي مما يحاذي الشاطـىء فيلاقيه هولاكو هناك وينقضي الامر» •

فهان عليه القبول بعد هذا التسهيل ، لكنه التفت الى استاذ الدار

واستشاره في الامر فأشار بالقبول لانه رأى الخليفة مائلا الى السلم ــ ذلك كان دأبه اذا استشاره الخليفة فيجعل نصب عينيه ان يرضــــي احساس مولاه . فاذا رآه مائلا الى رأي اشار عليه به ، شأن المتملقين المتزلفين في كل زمان ومكان . وهؤلاء اذا كان الامير او الخليفة عاقلا نبذهم ، واذا كان ضعيفا اصبحوا من المقربين اليه فيفسدون حكومتــه ويعينون على سقوط دولته .

فاستقر رأي الخليفة على اجابة هولاكو الى طلبه ، والتفت الى ركن الدين وقال : «قد سمعت ما اشار به وزيرنا ، وقد طالما خالفناه ولم نر في مخالفته خيرا . اما الان فالرأي ان نطيعه . وعلى كل حال فاننا نعد الامير ركن الدين من كبار قوادنا وعسى ان نوفــــق الى مكافأته» . والتفت الى الوزير وقال : «متى نصب الفسطاط ذهبنا اليه» .

فأشار الوزير مطيعا واستأذن في الانصراف وانفض المجلس . وأومأ الوزير الى ركن الدين ان يوافيه الى منزله .

فخرج ركن الدين وهو غارق في الهواجس ، وقد ساءه تنازل الخليفة الى هذا الحد . لكنه ركب الى بيت مؤيد الدين ــ وعابــــد يرشده ــ ليستفهم عن الحقيقة ، فلما وصل اليه رأى مؤيد الدين قد سبقه ورأى سحبان عنده وكان قد جاء للاستطلاع بعد علمه بخروج الوزير الــــى هولاكو .

ـ ١٢ ـ

نهاية الدولة العباسية

دخل ركن الدين فوجد الوزير يذرع غرفته ذهابا وايابا وقد قطب

حاجبيه وأخذ منه التأثر مأخذا عظيما ، وسحبان قاعد ينتظر التفاتـــه اليه . فلما دخل ركن الدين اومأ اليه مؤيد الدين ان يقعد فقعد . ثـم وقف امامه وقال : «ايها الامير قد قضي الامر» .

فتصدى سحبان للكلام قائلا : «وكيف قضي ؟»

فالتفت اليه وقال : «قضي كما تريد انت لا كما أريد انا ولا كمـا يريد الامير ركن الدين» .

فقال ركن الدين : «افصح يا مولاي» .

قال : «لم أقدر ان اقنع هولاكو باستبقاء الخلافة العباسية . انـه مصمم على ابادتها» .

فصاح ركن الدين : «ابادتها ! يريد ان يقتل كل بني العباس ؟»

قال : «هكذا ظهر لي من مغزى كلامه وان لم يصرح بذلك» .

والتفت الى سحبان فرآه يضحك فانتهره قائلا : «انت تضحك لانك لا تنظر الى العواقب ، اذا محيت الدولة العباسية ذهب الاسلام مـــن هذه الديار» .

فقال سحبان : «ولماذا ؟ نحن نعيد الخلافة الفاطمية» .

فصاح فيه : «انك رجل أوهام وأباطيل ، اذا كنت ترجو ارجـــاع الدولةالفاطمية فانك ترجو المحال وتطلب اقامة الاموات» . والتفت الى ركن الدين فرآه ينظر اليه ويراعي حركاته ويوافق على كل حركة منهـا بملامحه وعينيه . فلما التفت اليه نظر هذا الى سحبان وقال : «قد اصاب الوزير بقوله ، انه رجل عاقل مدبر ، وكم سمعتك تذكر امر الفاطميين ، هل سمعت مني موافقة على ذلك ؟»

قال : «كنت اذا ذكرتهم سكت» .

قال : «وسكوتي يكفي ؟ واذا كان هذا الطاغية ينوي حقيقة ابادة العباسيين كافة فانه يحدث كسرا في الاسلام يعسر جبره» . ووجـــه

كلامه الى الوزير وقال : «لكنك قلت للخليفة ان هولاكو ينـــوي استبقاءه » .

قال : «هذا ما قاله لي هولاكو ، لكنني لا أصدقه وقد فهمت من خلال كلامه وقرأت في عينيه ما ذكرته الان ، ويؤيد ذلك انه اعطانـــي رايات عليها علامته ، وأوصاني ان أنصبها على ابواب المنازل التي أريد حمايتها من الاذى ، او على الطرق المؤدية الى منازل الشيعة . فاذا رآها رجاله عرفوها وكفوا عن الاذى ، ألا يدل هذا على عزمه الذي ذكرته لكم ؟ وعلى كل حال لا بأس من الاحتياط للمخاطر» . قال ذلك وتحول الى ناحية من الغرفة أخرج منها راية صفراء عليها صورة خنجر احمـــر ودفعها الى ركن الدين وقال : «خذ هذه لعلك تحتاج اليها» . ودفع رايات اخرى الى سحبان وقال له : «خذ هذه الرايات اغرسها في مداخل أحياء قومنا في الكرخ والكاظمية ، افعل ذلك بلباقة لئلا يشعر بك احد» .

فتناول ركن الدين رايته وخبأها تحت ثيابه ، وقد شق عليه الالتجاء الى هذه الخرقة للنجاة من السيف وهو قائد باسل تعود دفع الاذى عن نفسه وقومه بالسيف البتار . لكنه كان داهية يلبس لكل حال لبوسها .

اما سحبان فانه مكث بعد ما سمعه من الانتهار الصريح صامتا وقد استولى اليأس عليه ، لكنه ما لبث ان رضي بما وقع ورآى ذلك فوزا عظيما للشيعة . ونظر الى ركن الدين وسأله عما فعله عند سلافة فاختصر هذا الجواب لانه شعر انه بين يدي امر مهم ينبغي له ان يسرع فـــي تدبره واستأذن في الانصراف .

خرج ركن الدين مهموما وفكره تائه ، فتقدم عابد اليه بالجواد فركبه وهو لا يقصد مكانا معينا . ثم خطر له ان يتجه الى منزل سلافة لانه ما زال يرجو ان تكون شوكار حية ، واذن لا يليق به الخروج من بغداد قبل ان ينتقم لها . قضى مسافة الطريق وهو يردد ما سمعه من مؤيد الدين

عن عزم هولاكو على ابادة العباسيين . ففكر في الامر مستوحيا نفسه ، كما يفعل كل انسان في كل زمان . وليس ما يدور على اقلام الكتاب من أسماء الفضائل الراقية ، كالاريحية والنجدة والاتحاد والشجاعة والاحسان وغيرها ، الا أسماء مختلفة ترجع الى معنى واحد وهو «المنفعة الذاتية» فمن اراد ان يستنهض همم جماعة لعمل فلن يلقى مجيبا ان لم يكن في ذلك العمل نفع عائد على كل منهم .

فكر ركن الدين في مطامعه الراسخة في قلبه ، ومرجعها طلب السلطة في مصر ، فرأى لذهاب الخلافة العباسية علاقة كبيرة بذلك فأعمل فكرته للاستفادة من تلك الاحوال ، وعاده الخاطر الذي كان قد مر في ذهنه بالامس وهو ان يجعل مصر قصبة الخلافة العباسية بحيث لا يستغني عنها سلطان ولا امير . وارتاحت نفسه الى هذا الامر ، وتذكر الامام احمد وما سمعا عنه من اللياقة لهذا المنصب وانه محبوس قرب باب كلواذي . فرأى ان يقابله ويسعى في انقاذه فاذا فتك هولاكو بسائر بني العباس احتفظ هو بهذا الامام . ومتى صار هو سلطانا على مصر جعله خليفة فيها . فلما تصور ذلك رقص قلبه من الفرح .

***

قطع ركن الدين الطريق الى باب كلواذي وهو غارق في هذه الهواجس ، ولم ينتبه الا والناس في ازدحام وهرج عند ذلك الباب وقد اخذوا في نصب الفسطاط للخليفة ، فعاد الى تذكر الخليفة وما علمه من مصيره ، وتذكر الامام احمد لعلمه انه مسجون قرب باب كلواذي فنادى عابدا فدنا منه فقال له : «يقولون ان الامير احمد عم الخليفة مسجون في قصر بهذه الجهة فهل تعرف مكانه ؟»

قال : «أظنه هذا القصر» . وأشار باصبعه الى قصر وراء قصر سلافة.
قال : «هل تعرف احدا من خدمه او حرمه ؟»
قال : «كلا يا مولاي لانه نقل الى هنا من عهد قريب ، واذا شئت ان أبحث في ذلك فعلت ، هل تريد الذهاب اليه الان ؟»
قال : «اريد الان ان اعود الى سلافة وأفرغ جهدي في استطلاع خبر شوكار لاني على وشك سفر .. كن على استعداد يا عابد ، هل تسافر معي الى مصر ؟»
فقال شاكرا : «ذلك حظ كبير لي يا مولاي ، ولكن شوكار ، هل تذهب بدونها ؟»
فأثر سؤاله في نفس ركن الدين تأثيرا شديدا ، وكان أولى بـه ان يسأل نفسه هذا السؤال ، فقال وهو يستمهل الفرس بالمسير : «آه يا عابد ان سؤالك هذا دلني على غيرتك وصدق خدمتك .. صدقت كيف نأتي بغداد لاجل شوكار ونرجع بخفي حنين ؟ هذا لا يكون .. انا سائر الان الى سلافة اللعينة ولا بد لي من ان اقف على مصير شوكار ، وعند ذلك أفعل ما يرضي المروءة والوفاء» .
وكان ركن الدين يسير على جواده الهوينى على ضفة النهر وعابد يماشيه فوصل الفرس الى عشب استطيبه فوقف ليتناول منه شيئا . فقال عابد : «انظر يا مولاي ، لا يليق بي ان أحذرك او ألفت نظرك لكنني أستأذنك في هذا الامر ، بلغني عن سلافة هذه انها من شر النســـاء وأدهاهن حتى ان الخليفة لا يرد لها طلبا ، وأنت ستكون وحيدا فـــي قصرها فاحذر ا نتغدر بك او تستعين عليك ببعض الاشقياء خلسة» .
فأثنى ركن الدين على غيرته وقال : «لا تخف علي يا عابد ، لكنني أوصيك بالانتظار في الحديقة قريبا من القصر ، فاذا لحظت مكيدة او شيئا فنبهني بالنداء على الملاحين في هذا النهر ، اي اجعل نفسك كأنك

تنادي ملاحا اوشك ان يغرق فتحذره من الغرق ، وأنا حالما أسمع صوتك أفهم المراد ، وفي كل حال لا تفارق الجواد وليكن مهيأ للركوب» •

فأجابه مطيعا ودخلا الحديقة ، وأسرع الحارس في ابلاغ خبره الى سلافة فهرولت لاستقباله وقد بدلت بثوبها ثوبا أجمل منه، وتلقته بالترحاب ودخلت به الى القاعة وهي تقول له : «ارجو ان تكون قد نجحت في مهمتك» • قال : «وأي مهمة ؟» • قالت : «ألم تذهب في هذا الصباح مع استاذ الدار على ان تلقى امير المؤمنين ليوليك قيادة الجند ؟ فهل تم الاتفاق على ذلك ؟» • قال : «لم يتم شيء من هذا القبيل ، ارى انه لم يبلغك الاتفاق الذي أبرم بين هولاكو والخليفة» • قالت : «لا • ماذا جرى ؟»

قال : «بعث الخليفة وزيره مؤيد الدين الى هولاكو للبحث في شأن وقف القتال ولو مؤقتا ، فعاد الوزير ونحن عند الخليفة وأبلغه انهم اتفقوا مع هولاكو على ان يخرج الخليفة بنفسه اليه مسترضيا الى باب كلواذي• واذا أطللت من هذه النافذة رأيت الفراشين ينصبون الفسطاط الذي سيأتي المستعصم لملاقاة هولاكو فيه ، وهذا الاتفاق يمنع حدوث حرب ، ولم تبق حاجة الى قائد ريثما نرى ما يكون» •

فلما سمعت كلامه نهضت الى النافذة وتطلعت ، فرأت الفسطاط يوشك ان يتم نصبه فصفقت ولطمت خدها وقالت :

«ويلاه ! واذلاه ! امير المؤمنين يخرج من قصره لملاقاة عدوه ليسترضيه ؟• قل على الخلافة وأصحابها السلام ••» • قالت ذلك وبان التفكير في عينيها وركن الدين صابر فاذا هي تقول له : «لم يبق لنا وطر في هذا البلد ولا خير في المقام به هلم بنا • وهذه أموالي وجواهري وكل ما أملك بين يديك • هلم بنا» • فقال : «الى اين ؟» • قالت : «الى مصر» • قال : «نذهب الى مصر وحدنا ؟» • قالت : «خذ من شئت من

الاتباع والاعوان» .

فنظر اليها باهتمام وقال : «وشوكار ؟» . قالت : «ألم أقل لك عن مصيرها ؟» . قال : «لا أفهم ما تقولين . جئت من مصر الى بغـــداد للبحث عن شوكار فلا أرجع بدونها» .

فهزت رأسها هز الاستغراب وابتسمت وقالت بلطف : «ماذا أعمل يا سيدي ؟. من اين آتي بشوكار وقد قلت لك انها غرقت وأصبحت طعاما للأسماك» . فأجابها بهدوء : «لا . انها لم تمت ، ولا بد انها موجودة في مكان . ابحثي عنها لعلك تجدينها فاني لا أرجع بدونها» .

فزاد استغرابها وقالت : «ماذا تعني ؟ أظنك تمزح» .

قال : «كلا . اني اقول الجد وقلبي يحدثني بأن شوكار لم تمت» .

فأمسكت بيده وهي تقول : «اذا كنت لم تصدق فتعال لأريك برهانا يقنعك وتتأكد صدق قولي» .

فمشى معها فمرت في دهليز الى غرفة تشرف على دجلة ، وتقدمت الى خزانة في الحائط فتحتها واستخرجت صرة اخرجت منها خصلة كبيرة من الشعر وقدمتها اليه ، فحالما وقع نظره عليها عرف انها شعر شوكار ، فاقشعر بدنه وارتعدت فرائصه وصاح : «ما هذا ؟»

قالت : «أليس هذا شعر المسكينة المأسوف على شبابها شوكار ؟» .

قال : «نعم ، ومن اين اتاك ؟» . قالت : «جاءني به الملاحون الذيـــن ارسلتهم الى قصر التاج ليأتوني بها الى هنا لاجل الاستشفاء ، فجاءوني بهذا الشعر وقالوا ان السفينة انقلبت بهم في هذا المكان (وأشارت الى مكان في الماء تحت القصر) وانهم حاولوا اخراجها فأمسكوا بثيابهـــا وشعرها فغرقت وتقطع شعرها وظل في أيديهم» .

فأصبح صدر ركن الدين يعلو ويهبط ، وهو يغلي كالمرجل من الغيظ ، وأطرق يفكر فيما سمعه وأوشك ان يعتقد اشتراك سلافة في قتل شوكار .

وظنت هذه ان يأسه من لقاء شوكار هون عليه الرضا بها فوضعت يدها على كتفه تلطفا وابتسمت وهي تقول : «أظنك صدقتني الان ، آه يا ركن الدين لو تعلم منزلتك في الحب عندي . لقد بذلت كل ما في وسعي لكي أجعلك قائدا عند الخليفة فتكون اعظم قائـــد في الاسلام ». ولا يغضبك ان ذلك لم يتم فاني قد هيأت سلطنة مصر ومهدت لك سبيلها ولم يبق الا ان تصل الى القاهرة فتنالها» .

- ١٣ -

موت شجرة الدر وعز الدين

وقع لفظ السلطنة على قلب ركن الدين اجمل وقع لانه اقصى مـــا يتمناه فخفف غيظه ومال الى استطلاع حقيقة ما تقوله سلافة ، وظل ساكتا وهي ترعاه بنظرها . فلما رأت سكوته امسكت بيده ومشت الى شرفة في تلك الغرفة تطل على دجلة وأومأت اليه ان يقعد على وسادة هناك ، وقعدت هي بجانبه والماء يجري بين أيديهما ، وركن الدين لا يرى شيئا لعظم ما جاش في خاطره ، فقعد قعود المتحفز وأدركت هي انـــه يطلب تفصيل ما ذكرته .

فقالت : «أظنك تحب ان تطلع على تفاصيل خبر سلطنة مصر ومـــا فعلته في سبيل اعدادها لركن الدين ؟» آه لو تشعر يا قاسي القلب بعظم حبي ، ولكنك ستشعر متى علمت بما ارتكبته من الامور العظام فـــي سبيل مرضاتك» .

وتنحنحت ووضعت ضفيرة الشعر الى جانبها استعدادا للحديث ثم قالت : «فارقت القاهرة وأنت تعتقد ان الملك الاشرف سلطان عليها وعز الدين ابيك وصي عليه» •

فهز رأسه ان : «نعم» •

فضحكت وقالت : «ذهب هؤلاء جميعا وذهبت شجرة الدر معهم»•

قال : «الى اين ؟» • قالت : «الى الموت» • فأجفل وقال : «كيف ماتوا ، انك تكذبين» • قالت : «سامحك الله على هذه التهمة ، انا لا أكذب ، الا اذا كان ذلك في سبيل مرضاتك • نعم قد ارتكبت في هذا السبيل افظع من الكذب ، ارتكبت القتل والخيانة في سبيل ركن الدين، وهو ما زال يضن علي بكلمة او لفتة» • قالت ذلك وغصت بريقها وتلألأ الدمع في عينيها ، فتأثر ركن الدين من منظرها لكنه تجلد ليسمع تتمة الحديث •

فقالت : «انك تركت عز الدين وصيا على الملك الاشرف ، وقد رضي بذلك ، وشجرة الدر ساكتة قانعة بالسلامة ، ولو بقي الحال على ذلك لم يبق لركن الدين سبيل الى نيل السلطة • وهب انه نالها فهو لا يكون سلطانا بل وصيا والسلطان من بني أيوب ، وأنا اريد ان يكون ركن الدين سلطانا كما وعدته ، أتدري ماذا فعلت ؟»

فتطاول لسماع الحديث فقالت : «أظنك تعلم منزلتي عند عز الدين ومقدار انصياعه الي لاني كنت السبب في نيله ذلك المنصب بعد خلع شجرة الدر • انا خلعت شجرة الدر ونصبت عز الدين ، وأنا جعلت القوم يختارون سلطانا أيوبيا ففعلوا وصار عز الدين وصيا • فعلت ذلك تمهيدا لك يا قاسي القلب ، وقد ذكرت لك عملي هذا ونحن في القاهرة فلم تعبأ بقولي ، وأوشكت ان أنقلب عليك وأنتقم منك ، لكن قلبي لم يطاوعني فظللت على حسن ظني بك ، والقيام على خدمتك ، فأغريت

عز الدين بالملك الاشرف فألقاه في سجن مظلم سيموت فيه قريبا ان لم يكن قد مات . وقبض عز الدين على السلطنة بيده ولم ينازعه احد في ذلك ، بقي علي ان أتخلص من عز الدين ليخلو الجو لركن الدين ويكون هو السلطان ، وأنا أعلم ان لعز الدين أعوانا أشداء ولا يسهل قتله ، فأغريت به شجرة الدر ، وكان قد تزوج بها فدسست بواسطة بعض الجواري من أبلغ شجرة الدر ان عز الدين لا يحبها وانه عازم على التزوج بابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل . وشغلت عز الدين عن زيارتها مدة فتحققت تلك الاشاعة ، وأنت تعلم غلظ قلب هذه المرأة ، فاشتدت غيرتها حتى اغرت بعض الخدم وأوصتهم اذا دخل عز الدين الحمام ان يقتلوه خنقا فقتلوه وقالوا انه أغمي عليه في الحمام فأخرجوه وشاع انه مات مصروعا» .

فصاح ركن الدين : «مات عز الدين ؟» . قالت : «مات وماتت ايضا شجرة الدر» .

فقال : «وشجرة الدر ايضا ماتت ؟ وكيف ذلك ؟» . قال ذلك وقد غلبته الدهشة .

قالت : «لما توفي عز الدين بايع القوم ابنه نور الدين علي ، وكنت قد ربيته ، وهو يصغي لقولي ، فلما تولى أنبأته ان شجرة الدر هي التي قتلت أباه ، وحرضته على الانتقام له ، فأوعز الى نساء بيته فأماتوها ضربا بالقباقيب على رأسها ، وطرحوا جثتها في خندق القلعة فأكلت الكلاب نصفها ودفن النصف الباقي في مقابر السيدة نفيسة» .

فبغت ركن الدين لذلك الحديث وقال : «أكنت انت السبب في ذلك كله ؟»

قالت : «نعم . انا السبب في ذلك ، وقد ارتكبت هذه الامور في سبيل مرضاتك ، فأنت اذا نزلت مصر الان لا تجد من يقاومك ، وهذا

نور الدين علي في قبضة يدي ، اذا شئت قتلته ايضا ، فتكـــون انت سلطان مصر» .

فأدهشته تلك الفظاعة والقسوة من امرأة ، وخيل له انه قبض على السلطة بيده ، فاختلج قلبه في صدره ، وأطرق لحظة يفكر ، فوقع نظره على خصلة الشعر بجانب سلاقة ، فعادت صورة شوكار الى ذهنه ، وتذكر ان شجرة الدر كانت السبب في خطبتها ، وان هذه المرأة الخائنة اعترفت بأنها كانت سبب قتل كثيرين ، ووجح لديه انها قتلت شوكار ايضا . وما يمنعها ان تقتله اذا خامرها شك في صداقته ويئست منه ؟ فتحير فـــي امره معها . فلما رأته ساكتا قالت : «أرأيت ماذا ارتكبت في سبيل حبك يا قاسي القلب؟ وأنت تحاسبني الآن على جارية تستطيع ان تبتاع احسن منها بمائة دينار ! دع عنك الجفاء ، ولننس الماضي ، ونذهب الى مصر لتتم سعادتك ، وهذه أموالي بين يديك» .

فمر بخاطره انه اذا اطاعها صار سلطانا ونال البغية التي طالما شغلت باله وتمناها قلبه ، لكنه ما لبث ان أنكر ذلك على نفسه وتصور شوكار وما اصابها بسببه ، فنهض على رغم ارادته فنهضت سلاقة معه وهـــي تحسبه اقتنع بأقوالها ، فمد يده الى خصلة الشعر وتناولها ، وجعل يتفرس فيها فقالت سلاقة وهي تداعبه : «أظنك تأسف على صاحبة هذا الشعر ، ولكن ما لك وله وهذا شعر امرأة حية تخاطبك وتتمنى رضاك ؟!» . وأشارت الى خصلة من شعرها مرسلة على كتفها .

فقال : «وشوكار ؟ هل ماتت ؟» . فقهقهت وقالت : «ألم اقل لك انها ماتت ؟» . قال : «قلت ذلك نقلا عن الملاحين وقد يكذبون» .

قالت : «بل هم صادقون ، ولماذا يكذبون ؟» . قال : «قد يكون لهم غرض» .

فنظرت اليه نظرة هيام وقد احمرت عيناها من فرط ما جاش فـــي

خاطرها من امره ، ثم قالت : «لقد احرجتني يا ركن الدين لأؤكد لـك موت هذه الجارية . انها ماتت ، وأنا دبرت قتلها ، وقد فعلت ذلك ايضا في سبيل الحصول عليك لئلا يكون وجودها حائلا بيني وبينك ، وهي تتمة الفظائع التي ارتكبتها لاجلك» .

فلما سمع اقرارها لم يعد يستطيع التجلد والاغضاء ، ونظر الى ما حوله فلم يجد من يخشى بأسه ، ولاحت منه التفاتة فرأى عابدا فـي الحديقة يشير اليه بيده ان يقتلها ، فقال في نفسه : «لأمر ما يلح علي هذا الغلام بقتلها» . فاستل خنجره وطعنها في قلبها طعنتين ، فسقطت على الارض لا تبدي حراكا وأغمد خنجره وأخذ صرة الشعر بيده وتحول الى الباب ، ولم يجد في البيت احدا يعترضه .

★ ★ ★

ما كاد ركن الدين يجتاز الباب حتى استقبله عابد والفرس معه ، وأومأ اليه ان يركب وهو يقول : «لا شلت يمينك ! قد انتقمت لسيدتي شوكار ، اركب يا سيدي وهلم بنا» .

فركب وخرج من الحديقة . واذا هي خالية ليس فيها احد من الناس، فلما صار خارجها قال لعابد : «لماذا تعجلت قتلها ؟»

قال : «لاني تيقنت من بعض الخدم انها هي التي تعمدت قتل سيدتي شوكار ، فأغريت من كان هنا من الخدم بالذهـــاب الى باب كلواذي لمشاهدة الخليفة قادما الى الفسطاط الذي نصبوه له ، فمضوا وخفت ان تقنعك تلك الخبيثة بأنها بريئة فتؤجل قتلها» .

فقال : «بورك فيك من صادق امين . لقـــد اعترفت بأنها قتلتها ؟ واعترفت بفظاعتها ولكن كيف عرفت انت انها تعمدت قتلها ؟»

قال : «اغتنمت انفرادي ببعض خدمها وتحدثت في شؤون عديدة ،

وقصصت عليهم فظائع زعمت اني ارتكبتها بايعاز مولاي بين قتل ونهب واغراق . وكنت اقول هذا مفتخرا فتحركت غيرة احدهم وقص علي كيف كلفته سلافة مع رفيق له ان يأتيا بشوكار من قصر التاج الى هذا القصر، وانها اوعزت اليه سرا ان يجعل المسير ليلا ، وأن يغتنم فرصة يحتال فيها لالقاء الفتاة في دجلة ، وقال انه لم يستطع ذلك الا قبيل وصوله الى قصرها ، لان قاربا اخر كان في اكثر الطريق قريبا من قاربهم لا يعرفون من فيه . فقص شعرها بخفة ورماها في دجلة ، وذهب بالشعر الى سيدته شهادة على امضاء امرها . فسألته : هل رآها غرقت ؟ فقال انه لم يقدر ان يراها لشدة الظلام ، لكنه لا يرتاب في انها ماتت» .

فاطمأن ركن الدين عند سماع هذا الحديث لانه رأى سلافة تستحق القتل وقال في نفسه : «ألا يمكن ان تكون شوكار قد نجت بقضاء الله» . ولم يذكر ذلك امام عابد ، لكنه استحثه الى سجن الامام احمد ابن الظاهر .

فساق فرسه ، وقد اوشكت الشمس ان تغيب ، واذا بجند هولاكو يركضون من جهة برج العجمي نحو باب كلواذي والناس يفرون من بين أيديهم ، فتحول عابد بالفرس الى الطريق المؤدي الى سجن الامير احمد، وركن الدين يفكر في سلافة من جهة وفي مصير الخليفة وأهله من جهة اخرى ، فأراد ان يلقي نظرة على بغداد في نور الشفق عند الغروب ، فصعد الى مرتفع يطل على باب كلواذي وما يجاوره الى برج العجمي ، فرأى التتر زاحفين نحو المدينة ، وتحولت شرذمة منهم نحو قصر سلافة وتسلقوا أسواره ، فالتفت عابد الى ركن الدين وقال : «هل ترى يا سيدي ؟» . وأشار بيده الى القصر .

فقال : «ارى القوم هاجمين يريدون النهب ، ولا أظنهم يجدون من يردهم .. سيجدون سلافة مضرجة بدمها ، وأظنهم يشتركون مع خدمها

في النهب والقتل ، تلك آخرة القوم الظالمين . كم كنت أحب ان أطلع على ما يجري في بغداد غدا ، هيا بنا الى الامام احمد» .

وقبل الوصول الى قصره رأوا الحرس وقوفا بالباب ، فتقدم عابد وسأل عن الامام احمد هل هو هناك فأجابه الحارس : «نعم لكنه في شغل شاغل» .

قال : «بماذا ؟» . قال : «جاءه زائر منذ حين» . قال : «استأذن لنا في الدخول عليه» . قال : «لا أظنه يأذن لاحد لان امير المؤمنين يمنع الناس عن مخاطبته» .

قال : «نحن غرباء ، وقد امسى علينا المساء قبل دخول المدينة ونطلب المبيت الى الغد» .

فقال : «لا بد من الاستئذان ، فماذا اقول له ؟»

قال : «قل له اننا من مصر نطلب الراحة الليلة» .

فذهب الحاجب وطال غيابه ، وركن الدين لا يزال على جواده ، وعابد واقف ، وبعد برهة سمعا وقع أقدام الحاجب ثم وصل ومعه رجل اخر تقدم وتفرس في ركن الدين وصاح : «الامير ركن الدين تفضل يا مولاي» .

فعرف ركن الدين من صوته انه سحبان فترجل ودخل معه الى دهليز نوره ضعيف لا يسمع فيه صوت ، وقد استولى الهدوء على المكان كأنه مقر الاموات ، فتهيب ركن الدين وتوقع ان يبادئه سحبان بالكلام ، فلما رآه ساكتا قال له : «انت هنا من زمن بعيد ؟» . قال : «منذ ساعة» . قال : «وهل الامام احمد هنا ؟» . قال : «نعم» . قال : «اين هو ؟»

قال : «يلبس ثيابه للخروج مع الخليفة وأهله الى الفسطاط لمقابلة هولاكو كما تم الاتفاق في هذا الصباح» .

قال : «ومن اشار عليه بذلك؟»

قال : «جاءه الامر من الخليفة كما جاء لجميع الامراء العباسيين» .
قال : «وهل وافقت على ان يذهب معهم ؟»
قال : «لماذا أمنعه ؟ دعه يذهب» .

وبان الغدر في عينيه ، فتذكر ركن الدين مطامع سحبان في ارجاع الخلافة الى الفاطميين ، وانه ينوي قطع دابر العباسيين من الارض حتى اذا لم يجد المسلمون خليفة يبايعونه هان عليهم مبايعة الخلفاء الفاطميين فتعود دولتهم . ولكن هذا يخالف مطامع ركن الدين ، فرأى من الحزم ان يحول دون خروج ذلك الامير من قصره في تلك الليلة ، فاستوقف سحبان وقال له : «لا ينبغي لنا يا سحبان ان نسوق هذا الامير الى القتل » .

قال : «انهم لم يدعوه للقتل ، ولكن لمقابلة هولاكو مع سائر بني العباس للكف عن الحرب» .

فضحك ركن الدين وأمسك بكتف سحبان وهزه وقال : «تقول ذلك لي ، وقد سمعنا خبر الاتفاق معا ؟ دع الرجل حيا» .

قال : «وهل يهمك بقاؤه ؟»

قال : «هب ان بقاءه لا يهمني ، فلا ينبغي ان يهمك انت قتله ، دعه اين هو الان ؟»

قال وقد تلعثم وارتبك : «أظنه خرج» .

قال : «لا يمكن ان يكون قد خرج ، ينبغي ان تحضره توا الساعة» . قال ذلك وبان الغضب في عينيه .

فخاف سحبان غضبه وعمد الى الملاينة وقال : «اراك قد غضبت يا ركن الدين ولا موجب للغضب ، اذا كان الامام احمد هنا فهو يسر بلقياك» . وأظهر الاهتمام ومشى الى باب غرفة الامير وقرعه وركن الدين واقف فسمع الامام يقول : «اوشكت ان انتهي من وضع ردائي» .

فقال سحبان : «هنا احد الضيوف يرغب في لقاء مولاي» .

- ١٤ -

الامام احمد بن الظاهر

فتح الباب وأطل الامام احمد وقد لبس بعض ثياب الخروج ، ولم يبق الا الجبة السوداء شعار العباسيين وقد تناولها ليلبسها ، فتقدم سحبان وساعده في لبسها وهو يقول : «اقدم لمولاي الامير ركن الدين بيبرس البندقداري الذي ذكرت لك اسمه الساعة . انه جاء من مصر ، وكان الخليفة قد اراد ان يعهد اليه في قيادة الجند ، ثم جرى الاتفاق والصلح بالشكل الذي ذكرته الان ، وقد جاء ضيفا على مولاي» .

فابتسم الامام احمد وقال : «مرحبا بالامير الباسل ، تنزل علينا على الرحب والسعة» . وأشار اليه ان يدخل ثم قال : «تمكث هنا ريثما اعود من مقابلة هولاكو بعد قليل» .

فلم يتمالك ركن الدين ان قال : «لا ينبغي لمولاي ان يخرج من هذا القصر الليلة» .

قال : «ولكن امير المؤمنين بعث الي ان أذهب قياما بالاتفاق الذي عقد بينه وبين هولاكو ، وأخاف ان يترتب على تخلفي ضرر ، وقد استشرت سحبان فأشار علي بالذهاب» .

قال : «أظنه غيَّر رأيه الان ، اسأله» .

فالتفت الامام احمد الى سحبان فرآه أسرع الى التنصل من تلك

المشورة وقال : «غيّرت رأيي لان الامير ركن الدين نبهني الى امر فاتني والافضل ان يبقى مولانا الليلة هنا ، وسنرى ما يكون في الغد» .

قال : «وبماذا اجيب الرسول ؟»

قال ركن الدين : «قل انك ستنظر في الامر» .

وشق على سحبان حبوط مسعاه ، فكتم ما في نفسه وأظهر انه مضطر للذهاب في تلك الساعة ، فأذن له وانصرف . فارتاب ركن الدين في نية سحبان ، وأعمل فكرته فيما قد يكون غرضه ، وعزم ان يصطنع الدهاء والحيلة للوصول الى هدفه الذي جعله نصب عينيه منذ نشأت مطامعه السياسية ، نعني الوصول الى السلطنة ، وهي تستلزم وجود خليفة عباسي يثبته ، وقد كاد ان يوقن انه ظافر بها بعد ما سمعه من حديث سلافة ، فحالما خرج سحبان نظر ركن الدين الى الامام احمد وقال : «هل يعرف مولاي هذا الشيعي من عهد بعيد ؟» . قال : «نعم» . قال: «وهل هو على ثقة من اخلاصه ؟» . قال : «لم يظهر لي منه ما يوجب شكا» . قال : «وهل تظن الشيعة يخلصون للخلفاء العباسيين ؟»

فأطرق الامام لحظة وقال : «لا أدري» . قال : «يأذن لي مولاي ان أصارحه القول ، ونحن الان على باب مستقبل جديد وانقلاب عظيم» .

فاستغرب الامام احمد هذا التعبير وقال : «وأي انقلاب تعني . كنا نخاف الانقلاب قبل عقد الصلح بين الخليفة وهولاكو ، وأما الان فلا تلبث الامور ان تعود الى مجاريها» .

فابتسم ركن الدين ابتسامة تهكم واستخفاف وقال : «ان الذي بلغ مولاي ليس سوى خداع ، واذا كان المبلغ سحبان نفسه فانه يكون قد تعمد الكذب ، لانه يعلم ان حقيقة هذا الاتفاق تخالف ظاهره . ان الحقيقة في ذلك تقشعر منها الابدان وتشمئز منها النفوس ، أعوذ بالله منها وأدعو الله ان ينجي الامام احمد من عواقبها» .

فوقع هذا الكلام في نفس الامير وقعا شديدا ، وتهيب مما سمعه ، وعظم امر ركن الدين في نفسه وأصبح شديد الشوق الى معرفة سر الامر فقال : «اني ارى الجد في كل كلمة أسمعها وكل حركة اراها . قل ايها الامير . افصح . اني شديد الثقة بك» .

قال : «لو ان مولاي اطاع سحبان وذهب في الامر الذي دعي اليه لاصبحت بغداد وليس فيها واحد من نسل العباس كرم الله وجهه» . قال ذلك وأبرقت عيناه واشتد لمعانهما لاضطراب النور الواقع عليهما من المصباح فخيل للامير احمد انه يخاطب رسولا هبط عليه من السماء وقال: «كيف ذلك ؟» . قال : «لان ظاهر الاتفاق بين المستعصم بالله وهولاكو ان يجتمع هذا بالخليفة وأهله للتصافي والصلح ، وأما حقيقته فهي ان يغتنم هذا التتري الفرصة ويفتك ببني العباس جميعا» .

فلما سمع الامام احمد ذلك ارتعدت فرائصه وقال : «وهل كان سحبان يعرف ذلك ؟» . قال : «نعم» . فقال : «قبح من خائن ، وبارك الله فيك !. اني لا انسى لك هذه اليد ما حييت . ولكني أجزع لما سحل بأهلي وقومي ، هل انت على ثقة مما تقول ؟»

قال : «نعم . وفي الغد يظهر الحق ، وعسى ان اكون مخطئا فيكون ذلك الصلح صحيحا وترجع الاحوال سيرتها الاولى ولا يكون من بأس على مولاي الامام ، واذا لحقته من ذلك تبعة ، فأنا أتحمل عنه كل تبعة وأفديه بروحي» .

فازداد الامير اعجابا بركن الدين ، وهان عليه ان يفعل كل ما يأمره به لانه أنقذه من الموت ، فأخذ يثني عليه ولا يعرف كيف يعبر عن شكره . فقال ركن الدين : «لم اقل ما عندي بعد» . قال : «قل ايها الصديق» .

قال : «اذا خلت بغداد من بني العباس غدا تنحصر الامامة فيكم ؛

فلا تظهر للناس ، واستتر كما استتر أئمتكم قبل ظهور دعوتكم على يد العباس والمنصور في بغداد حتى يأذن الله بظهورها ثانية في غير بغداد، ستظهر في مصر ، والقاهرة التي كانت عاصمة الفاطميين الذين يطمع سحبان هذا في ارجاع ملكهم تصير عاصمة ثانية لبني العباس» .

فازداد الامير دهشة من هذه المنن المتوالية ، ورأى انه قد آن له ان يكافئه على خدماته بمثلها فقال : «اذا شاء الله سبحانه وتعالى ان يحدث ما تقوله وتصير الخلافة الي فالسلطنة في مصر لا ينالها سوى الامير ركن الدين بيبرس» .

فوقع القول عنده موقع الرضا ، وقال : «ان السلطنة يا سيدي ينالها الاقوى ، وأما الخلافة فانها حق موروث لا توهب ولا تباع» .

قال : «وهل في مصر من هو اهل للسلطنة سواك ؟» . وأطرق يفكر فيما هو فيه من غرائب الامور ، وتصور المستعصم وسائر اهله فشق عليه ذلك ودمعت عيناه وقال : «يشق علي ايها الامير ان يصيب بغداد ما تقوله » .

فقال ركن الدين : «اظن مولاي لا يجهل سبب ذلك ، ان التبعة فيه على فساد الاحكام وضعف الخليفة واستسلامه للملاهي والاشتغال بالغناء، فانه لم يسمع بمغنية في اطراف المملكة الا بعث في استقدامها ، وأطاع المتملقين ، وبخاصة ابنه ابا بكر ، وغير ذلك مما لا يليق بصاحب هذا المقام ، فلعل الله ازال هذه النعمة عنه ليضعها فيمن هو اهل لها» .

فقال الامير احمد : «قد آن وقت العشاء فلنذهب الى الصلاة ريثما يعدون لنا الطعام فنأكل ثم نذهب للرقاد التماسا للراحة» .

فقال ركن الدين : «اني طوع ارادة مولاي في كل ما يريده الا الرقاد ، فليذهب مولاي الى فراشه متى شاء ، وأما انا فسأمكث ساهرا أرقب ما أخشاه . ان خروج سحبان على النحو الذي خرج به لم يرضني،

ونحن على كل حال في ابان فتنة كما يعلم مولاي» .

فأعجب الامير بيقظته وعلو همته وقال في نفسه : «مثله يليـــــق بالسيادة» . ثم خاطبه قائلا : «بارك الله فيك ايها الامير وما الذي اخافك من سحبان ؟»

قال : «اخافني فشله وسكوته ، ولو جادلني وعنفني على معارضتي له لما خفت خوفي من كظمه لان الكظم يحبس الغيظ ويزيد النقمة» .

قال : «لا ينبغي ان تخافه لانه من أوليائنا وأصدقائنا» .

قال : «لعلي مخطىء ، وعلى كل حال اني شديد الحذر ، وان شاء مولاي فاني رفيقه الى الصلاة» . فنهض الامام احمد وذهبا للصلاة في مصلى خاص هناك ، وعادا للعشاء .

★ ★ ★

استحسن ركن الدين ما ظهر من تقوى الامام احمد وتدينه وتوكله، وجلسا الى الطعام فتناولاه ، والامير احمد يبالغ في اكرام ركن الدين الذي انقذه من القتل ، فقال له ركن الدين : «لم أعمل من عند نفسي، انما كان ذلك بقضاء الله مكافاة على حسنة من حسناتك الكثيرة» .

فأطرق الامير احمد وهو يتبسم كأنه تذكر امرا يسره تذكره ، فتوقع ركن الدين ان يقص عليه سبب ابتسامه فسكت وآخذ يراعيه فقال الامام احمد : «اعلم ايها الامير اني شديد الاعتقاد بأن من يعمل خيرا يلق خيرا، ولعل الله بعثك الليلة لانقاذي من هذا الخطر مكافأة على حسنة وفقت الى اتيانها بقضاء من الله» .

فأعجب ركن الدين بتواضعه وأنصت يسمع تتمة الحديث فقال الامام: «احمد الله على ذلك التوفيق ، فانه من نعم المولى .. وقد وفقت اليه وأنا في أشد الضنك ، واستبشرت من تلك الساعة . وذلك اني كنت

سجينا في قصر الفردوس ، وأنا صابر على السجن ، ولا ذنب لي غير اني من آل العباس المرشحين للخلافة . وكم شكوت الى الله ذلك وتمنيت لو كنت من عامة الناس ، ولكن الخليفة لم يقنع بالسجن فأراد مزيدا في التضييق فأمر بنقلي الى هذا القصر ؛ فنقلوني ليلا في سفينة نزلنا فيها دجلة في مثل هذا الوقت ، وكان النوتية ومن جاء معهم من الجند يكرمونني ويؤانسونني ، لكن نفسي ضاقت وعظم علي ذلك الظلم ؛ وانفردت في مكان عند مقدم السفينة أتشاغل بالتفرج على الماء في الظلام ، وكان نظري يقع بين الفينة والفينة على سفن تمر بنا صعودا او نزولا ، وأستأنس بنداء ملاحيها او غنائهم الا سفينة كانت سائرة على مقربة منا لم نسمع فيها صوتا ولم نعلم بوجودها الا من نور ضعيف كان معلقا في ساريتها ، وقبل وصولنا الى هذا القصر بقليل سمعت صيحة ورأيت شبحا وقع في الماء فحدثتني نفسي بجريمة ؛ فناديت ربان سفينتنا وأمرته ان يتعقب تلك السفينة فلم يستطع لكنه عثر في اثناء تفتيشه على غريق يتحرك ويستغيث ، فأعانه وانتشله وهو على اخر رمق» .

وكان ركن الدين يسمع الحديث وشوقه يتزايد الى سماع تمامه ، حتى اذا وصل الى هنا خطر له ان الغريق الذي يشير اليه شوكار ، فلم يتمالك ان صاح : «وهل هي حية ؟» فاستغرب الامام دهشته وتسرعه وسأله كيف عرف انها امرأة ؟

قال : «عرفتها يا سيدي عرفتها ؛ قل بالله ماذا جرى ؟»

قال : «فأخذ الملاحون في معالجتها حتى افاقت ورأينا شعرها مقصوصا ، وأردنا الاستفهام منها عن حالها فلم نشأ ان نقول شيئا ، فلم نكرهها على ذلك» .

فقال ركن الدين : «هي شوكار يا سيدي ، شوكار ، أريد ان اراها» .

قال : «لا يا عزيزي ، لو عرفت ان امرها يهمك لاحتفظت بها» .

فقال : «اين هي الان ؟» • قال : «لما وصلنا بها الى هنا وارتاحت وبدلت ثيابها وانتعشت سألناها عن شأنها وعما تريد ان نساعدها عليه فلم تزد على ان شكرت فضلنا وأبت ان تبوح بشيء ، لكن الملاحين عرفوا من شكل السفينة ان الفتاة من جواري الخليفة قضى باغراقها • ولم يجرؤ احد منا ان يقص خبر هذه الفتاة على احد ، وبعد بضعة ايام سألتها اذا كانت تعرف احدا في بغداد تريد ان تذهب اليه ، فقالت انها تعـــرف سحبان ، وتريد خادما يوصلها اليه ، فتنكرت بلباس الرجال وأرسلنا معها بعض الخدم يوصلونها الى بيت سحبان في الكاظمية • وكان ذلك فـــي صباح هذا اليوم ولما جاءني سحبان ورأيته انت عندي لم يكن قد علم بوصولها بعد » •

فأطرق ركن الدين ، وقد ثارت عواطفه وتضاربت افكاره ، وسر كثيرا لنجاة شوكار ، لكنه اسف لذهابها الى بيت سحبان ، ولاسيما بعد ان وقع ما وقع بينهما في ذلك المساء ، وأصبح الامام احمد في شوق الى معرفة علاقة شوكار بركن الدين فسأله عن ذلك فقص عليه خلاصة تاريخ تلك العلاقة في مصر وما ارتكبته سلافة الى اخر الحديث ، فأسف الامام اسفا شديدا لانه بعثها الى بيت سحبان ، لكنه لم يلم نفسه لانه لم يكن يعلم علاقتها بالامير ركن الدين •

- ١٥ -

التتر يخربون بغداد

وبينما هما في ذلك اذ سمعا ضوضاء في حديقة القصر فاستغـــرب الامام ذلك ، لكن ركن الدين لم يستغربه بل كان يتوقعه وقد استبطأه،

فأومأ الى الامام ان يظل في مكانه ، ووثب كالاسد حتى اتى الباب فرأى احد الحراس قد دخل وأقفل الباب وراءه وهو في اضطراب شديد ، فقال له ركن الدين : «ما بالكم ؟»

قال : «التتر يا سيدي ، دخلوا الحديقة وهم يطلبون القبض على مولانا الامير وقد غضبوا لانه لم يأتهم من تلقاء نفسه» .

قال : «اذهب وقل لهم اني خارج لهم بنفسي» .

قال : «ولكنهم يطلبون الامام والا فانهم يأخذوننا عنوة ويقتلوننا مع الامـــام » .

وسمع الامام حديثهما فهرول وتوسل الى ركن الدين الا يعارض التتر فيما يريدون ، وانه يؤثر الذهاب معهم الى الفسطاط .

فأشار ركن الدين اليه قائلا : «كن مطمئنا يا مولاي ، لا يستطيـــع هؤلاء القوم ان يمسوا ظفرا من أظفارك قبل ان يستباح دمي» .

قال : «وما الفائدة من اباحة دمك اذا فاز اولئك التتر علينا ، وهم فائزون لانهم اكثر عددا وأقوى عدة» .

قال : «لا تخف انهم غير فائزين باذن الله» . قال ذلك وصعد الى كوة الباب وأطل منها على الحديقة فرآها مزدحمة بالناس بينهم حملــــة المشاعل للانارة وحملة العصي والنبال والسيوف ، وقد علا ضجيجهـــم وتعالت غوغاؤهم وفي مقدمتهم رجل يظهر من هندامه انه كبيرهم وبجانبه سحبان ، فلما رأى سحبان معه تحقق عنده ما ظنه فيه منذ خرج مـــــن القصر على تلك الصورة . فناداه : «سحبان» . فرفع سحبان بصره الى ركن الدين وقال : «لا بد من تسليم الامير احمد لان خبره وصل الى الخاقان هولاكو ولم يعد بالامكان اخفاؤه» . قال : «انـــــي لا ارى تسليمه» . قال : «لكن الخاقان أمر بالقبض عليه ، والا فان الجنــــــد يهاجمون القصر ويأخذونه عنوة» .

قال : «انهم لا يفعلون ذلك ، ولم يخطر لهم ان يفعلوا لولا وشايتك فارجع بهم ، وذلك خير لك وأبقى» .

قال : «لماذا تعترض وتعرض نفسك لهذا الامر ايها الامير وأنت في غنى عنه ؟ »

قال : «وأنت ايضا في غنى عن هذه الدسائس» .

قال : «فاتني ان اخبرك ان شوكار عندي وأنت انما جئت هذا البلد من اجلها فاذا شئت فاني أدفعها اليك ودع هذا القصر» .

فلما سمع قوله أحس بانقباض لان سحبان يهدده بشوكار كأنه يقول له انه اذا لم يطعه آذاه فيها فوقع في حيرة فقال : «وما تعني بذلك ، وما دخل شوكار فيما نحن فيه ؟»

قال : «لا أعلم ، والآن افتح هذا القصر والا دخله الجند بالقوة . وأنت تعلم عقبى ذلك ، ولا تنس امر شوكار» .

وكان الامام احمد واقفا بجانب ركن الدين يحثه على الاستسلام ولاسيما بعد ان سمع هذا التهديد فيه وفي شوكار ، فأخذ يحرضه ويلح فأبى ركن الدين . ولما ابطأ ركن الدين في الخضوع وفي فتح باب القصر قال له سحبان : «لا تقل ان صديقك سحبان غدر بك ، فاني نصحتك مرارا وأعيد النصح الان ان تسلم والا فأنت ومن في القصر في قبضة الجند ولن ترى شوكار ابدا» .

واذا بصوت صاح في وسط الضوضاء قائلا : «لا تصدق ايها الامير ان شوكار معنا في أمان ، وعرف ركن الدين انه صوت عابد فصدقه وأحس بانفراج الأزمة واشتد قلبه ونظر الى سحبان وقال : «لم اكن أتوقع منك يا سحبان ان تحرض الجند علينا» .

فقال : «لم أحرضهم ، ولكنهم قادمون بأمر الخاقان» .

قال : «كذبت ان الخاقان لم يأمرهم بذلك بعد ان اعطاني الامان انا

وسائر اهل هذا المنزل وهذا علم الامان انظروه» . قال ذلك وأخرج العلم الذي كان مؤيد الدين قد اعطاه اياه ، ونشره في النافذة فبان جليا للناظرين ، وحالما رآه الجند التتر طأطأوا رؤوسهم اذعانا وتحولوا من الحديقة راجعين ، وسار سخبان في اثرهم كالهارب ، وركن الدين يرقبه ، وقلبه يرقص فرحا بذلك الفوز والامام احمد يضمه ويقبله شاكراء فنزل ركن الدين الى صحن الدار ونادى عابدا وسأله عن شوكار فقال : «هي هنا يا سيدي ، قد علمت بخروجها من هذا القصر من الخادم الذي اخذها الى الكاظمية ، فذهبت وأتيت بها لعلمي ان وجودها هناك يسبب عراقيل كثيرة» .

فقال ركن الدين : «بورك فيك من صديق غيور ، انك لست خادماء وهذه الاريحية والشهامة جديرة بالصداقة» . ففرح عابد لهذا الاطراء وقال : «اذا شئت ان ترى شوكار فهلم الى غرفتها» . فمشى ركن الدين مسرعا الى تلك الغرفة ، فرأى شوكار لا تزال متنكرة بثوب بعض الخصيان ، فلما رأته طفرت الدموع من عينيها فرحا وترامت على ركبتيه تقبلهما ، فأنهضها وقبل رأسها وقال : «الحمد لله على سلامتك يا حبيبتي .. لنشكر الله على هذه النعمة ، والفضل الاكبر في ذلك لمولانا الامام حفظه الله» .

قال الامام : «الفضل كله لك ايها الامير ، وأهنىء شوكار بهذا النصيب» .

والتفت ركن الدين الى عابد وقال : «كيف عرفت يا عابد خبر شوكار ؟ »

قال : «كنت جالسا في الحديقة وصرة الشعر معي ، فسألني بعض الخدم عن خبرها ، وحالما رآها صاح : (ما أشبه هذا الشعر بشعر الفتاة التي وجدناها في دجلة وأنقذناها من الغرق) . وبعد اخذ ورد فهمت ان

شوكار حملت الى منزل سحبان ، فذهبت بأسرع من لمح البصر وأتيت بها متنكرة كما تراها» .

فكرر الثناء عليه ، فازداد فرح عابد ، ولكنه قال : «لا ينبغي لمولاي الامام ان يبقى هنا» .

فقال ركن الدين : «لماذا ؟» . قال «لان التتر وان كانوا قد تراجعوا فان سحبان لا يلبث ان يذهب بنفسه الى الخاقان او غيره ويخبره بوجود الامام هنا فيبعث في طلبه .. لاني رأيت في طريقي من الفظائع ما لا يخطر ببال بشر» .

فقال ركن الدين : «ماذا شاهدت ، هل نزل التتر بغداد ؟»

قال : «نزلوا دور الخلافة ، ومعهم هولاكو نفسه ، وتفقد تلك القصور ، وأخرج من فيها من النساء وفرقهن في رجاله» .

فقال الامام احمد : «والخليفة ؟ ماذا فعلوا به ؟ اين هولاكو ؟»

قال : «علمت ان مؤيد الدين الوزير حرض بني العباس وجميع وجوه الدولة على الخروج الى الفسطاط فقتلهم التتر عن آخرهم . ثم هجموا عند الغروب على قصور الخلافة وقتلوا كل من وجدوه هناك من ابناء الخلفاء ومن كان منهم صغيرا اخذوه اسيرا. والقتل الان على أشده في بغداد ، والقائد التتري باجو قد عبر الجسر الى الكرخ وغيرها وأخذ رجاله ينهبون ويقتلون ، وقد علمت ان الكتب التي كانت في خزائن قصور الخلافة اخرجوها وألقوها في دجلة وهي شيء لا يعبر عنه لكثرته. وسمعتهم يذكرون اسم مولاي الامام وسبب تغيبه ؛ لانهم لم يجدوه في قصر الفردوس كما كانوا يظنون ، ولذلك قلت لكم لا بد من السرعة في الخروج الان» .

فوقع الرعب في قلب الامام احمد ، فالتفت ركن الدين الى عابد وقال : «انت من اهل هذه البلاد فارشدنا الى مكان نخفي فيه مولانا حتى

تستقر الحال» •

فأشار مطيعا وقال : «ذلك علي • فأمروا بأخذ ما خف حمله وغلا ثمنه واتبعوني» •

فعمل الامام احمد وخادمه بما قاله عابد ، ثم ركبوا قبل الفجر ، وعابد يمشي في مقدمتهم حتى خرجوا من بغداد ، وعلموا في اليوم التالي ان التتر يتعقبونهم فلم يروا بدا من الالتجاء الى بعض قبائل العرب، فالتجأوا الى قبيلة هناك مكث عندها الامام ومعه عابد •

ولما اطمأن ركن الدين على مصير الامام أوصى عابدا به خيرا ، وسافر الى مصر ومعه شوكار ، حيث عقد زواجه بها ، ووجد سلطان مصر نور الدين ابن عز الدين ، فحرض الامراء على التذمر منه لانه غلام لا يصلح للحكومة ، وبايعوا سيف الدين قطز سنة ٦٥٧ هـ لانه من سلالة ملوك خراسان ، فصبر ركن الدين على ذلك وهو يسعى لتحقيق أمنيته ليتم له ما دبره من امر نقل الخلافة الى مصر •

وفي السنة التالية زحف هولاكو على سوريا وبعث يهدد قطز ، فشاور الامراء فأشاروا عليه بالحرب وفي مقدمتهم ركن الدين ، فجرد حملة سار ركن الدين فيها ، واضطر هولاكو الى الرجوع لموت والده ، وأخذ معظم جيشه معه ، والتقى ما بقي من رجاله بجيش قطز في فلسطين في معركة فاز فيها المصريون وعادوا ظافرين • فاغتنم ركن الدين فرصة في اثناء رجوعهم وقتل قطز ، وكان قد تواطأ على ذلك مع رفاقه الامراء ورضوا ان يتولى هو مكانه ، فنادوا به سلطانا على مصر سنة ٦٥٨ هـ ولقب بالملك الظاهر • وحالما استقر له الامر بحث في استقدام الامير احمد فجاءه في السنة التالية ، فبايعه خليفة ولقبه بالمستنصر بالله، وصارت الخلافة العباسية بمصر من ذلك الحين •

سلسلة روايات تاريخ الإسلام

تأليف جرجي زيدان

